الأدب المصري

من قيام الدولة الأيوبية إلى مجيء الحملة الفرنسية

تأليف

الدكتور عبد اللطيف حمزة

تقديم

الدكتور: عبد العزيز شرف

الهيئة المصرية العامة للكتاب

٢٠٠٠

الأدب المصري

من قيام الدولة الأيوبية إلى مجيء الحملة الفرنسية

تقديم

الدكتور عبد اللطيف حمزة

والدراسة المنهجية لشخصية مصر

بقلم الدكتور: عبد العزيز شرف

هذا الكتاب عن «الأدب المصرى» لأستاذنا الدكتور عبداللطيف حمزة؛ رحمه الله؛ يتمم عمله فى كتابه: «الحركة الفكرية فى مصر فى العصرين الأيوبى والمملوكى الأول»؛ الذى نشر لأول مرة عام ١٩٤٧م. وشاغله فى الكتابين؛ ثم فى دراساته التالية؛ الأدبية ثم الصحفية؛ يتمثل فى دراسة الشخصية المصرية، وتحديد معالمها وخصائصها، وهل بقيت هذه المعالم واضحة فى كل زمان؟ وهل ثبتت هذه الشخصية للأحداث؟

يمثل هذا السؤال جوهر الدراسات التى تناولت الشخصية المصرية؛ والدراسات التى تناولت شخصية مصر؛ كما فعل الدكتور جمال حمدان رحمه الله؛ حين أكد صعوبة تركيز الشخصية الإقليمية فى معادلة موجزة؛ لا سيما إذا كانت غنية خصبة

كشخصية مصر. ولكن البعض كثيراً ما ردد أن مصر «أرض التناقضات»، ربما تحت تأثير التباين الشديد بين الفروق الاجتماعية الصارخة من ناحية، أو من ناحية أخرى بين خلود الآثار القديمة وتفاهة المسكن الفردى؛ أو بين الوادى والصحراء حين يتجاوران جنباً إلى جنب؛ ونظرة هؤلاء «نظرة ضيقة إن لم تكن سطحية لأنها لا تعرض إلا لجانب واحد من مركب عريض؛ ذلك أن حالة مصر نادرة بين الأقاليم والبلاد من حيث السمات والقسمات التى تجتمع فيها، وكثير من هذه السمات تشترك فيها مصر مع هذه البلاد أو تلك، لكن مجموعة الملامح ككل تجعل منها مخلوقاً فريداً فذاً حقيقةً. فهى بطريقة ما تكاد تنتمى إلى كل مكان دون أن تكون هناك تماماً. فهى بالجغرافيا تقع فى إفريقيا؛ ولكنها تمت إلى آسيا أيضاً بالتاريخ، وهى متوسطية دون مدارية بعروضها، ولكنها موسيمية بمبانيها وأصولها. وهى وإن كانت أصلاً موسمية فى مصدرها، فقد أصبحت موسمية دائمة أخيراً على ما فى ذلك من تناقض. هى فى الصحراء وليست منها، إنها واحة صحراوية، بل ليست بواحة وإنما شبه واحة هى».

ويخلص د. حمدان إلى أنها شخصية تجمع بين أطراف متعددة غنية وجوانب كثيرة خصبة وثرية تصل بها إلى التجانس والوحدة بسبب النيل والصحراء، المركزية لضيق مساحة المعمور، تعادل الوضع والموقع فى أحوال القوة وتخلف الوضع عن الموقع فى أحوال الضعف، ملكة الحد الأوسط وتجعلها أمة وسطا بكل معنى الوسط الذهبى ـ ولكن ليس أمة نصفًا! وسط فى الموقع والدور التاريخى والحضارى، فى الموارد والطاقة، فى السياسة والحرب، فى النظرة والتفكير.. ولعل فى هذه الموهبة الطبيعية سر بقائها وحيويتها على العصور ورغمها. إن مصر جغرافياً وتاريخياً تطبيق عملى لمعادلة هيجل: تجمع بين «التقرير» و«النقيض» فى «تركيب» متزن أصيل. وهى «فلتة جغرافية لا تتكرر» على حد تعبير د. حمدان.

وكانت دراسات الدكتور عبداللطيف حمزة فى أربعينات القرن الماضى (العشرين) ؛ تتوجه صوب النصوص الأدبية فى العصرين الأيوبى والمملوكى؛ ومحورها دراسة هذه الشخصية المصرية؛ فعنى بدراسة البيئة، ودراسة الأجناس التى طرأت على مصر واشتركت فى

تكوين «الأمة المصرية، كما درس الظروف السياسية التى تعاورت على هذه الأمة؛ وخلص من ذلك كله؛ إلى أن الطبيعة المصرية قد تأثرت بكل هذه الظروف وأمثالها؛ وهى التى فى جوّها «تكونت الأخلاق المصرية العامة والأخلاق المصرية الخاصة».

ويتصدى د. حمزة لهذه الدراسة الرائدة، داعياً إلى «تضافر الجهود الكثيرة؛ وتعاون العلوم لرسم خطوط رئيسية تميز الشخصية المصرية» وهى ـ كما يقول رحمه الله ـ شخصية «ذات تاريخ طويل وقديم، لا نبالغ إذا قلنا إنه أطول تاريخ وأقدمه»:

«أجل ـ ينبغى أن تتضافر جهود كثيرة فى تصوير شخصية ما لأمة من الأمم؛ فيتعاون فى ذلك المؤرخون والجغرافيون وعلماء الآثار وعلماء الاجتماع وعلماء اللغات وغيرهم»؛ وقد أجيبت هذه الدعوة الرائدة؛ وحسبنا أن نذكر من ثمارها تلك الدراسات القيمة التى تناول فيها د. جمال حمدان شخصية مصر: دراسة فى عبقرية المكان؛ وغيرها من الدراسات التى ما تزال تتوالى حتى الآن.

ثم يحدد د. حمزة دور الباحث الأدبى؛ فيذهب إلى أنه يفيد من بحوث هؤلاء العلماء كلهم؛ ليقول كلمته فى موضوع الشخصية المصرية بعدهم.

ثم يتساءل ـ عام ١٩٤٧م ـ : .. ولكن هل معنى هذا أن يبقى الباحث الأدبى مكتوف اليدين حتى يجود عليه أولئك العلماء؛ كل بكلمته الأخيرة وأبحاثه الحاسمة فى موضوع كهذا، ربما لا يعنى المرء فيه بالتفاصيل، أو ربما اكتفى فيه بما قاله العلماء فعلاً فى هذا السبيل. وإن كان الذى قالوه لا يشفى غليلاً ولا يحسم نزاعاً ولا يقطع بالرأى الأخير فى شأن كهذا الشأن؟

يذهب د. حمزة بعد طرح السؤال؛ إلى أن الباحث الأدبى فى مقدوره أن يقول كلمته الأولى فى هذا الموضوع؛ فى ضوء مطالعاته فى شتى هذه العلوم؛ وقد خص منها ثلاثة هى: علم الآثار؛ وعلم التاريخ، وعلم الجغرافيا الجنسية: «وليس يضير الباحث الأدبى فيما بعد أن يجىء كلامه مخالفاً للنتائج التى سوف يصل إليها المشتغلون بهذه العلوم فى المستقبل؛ بل يجب عليه فى هذه الحالة إما أن يؤيد كلامه بكلامهم وإما أن يصلح خطأه بصوابهم، وإما أن يجمع بين الرأيين».

وفى مقدمة كتابه عن: «الحركة الفكرية فى مصر فى العصرين الأيوبى والمملوكى الأول» ١٩٤٧م، بشّر بهذا الكتاب الذى يعاد طبعه عن «الأدب المصرى» الإسلامى الخالص؛ ورأى فيه أموراً أو خصائص، أهمها ثلاث:

الأولى: أنه كان أدب القوة والعاطفة.

والثانية: أنه كان أدب السخرية والفكاهة والملح اللفظية المتظرفة.

والثالثة: أنه كان أدب الزينة اللفظية بالمعنى المعروف فى كتب البلاغة إذ ذاك. فأما قوة الأدب المصرى من حيث العاطفة فمصدرها: الحوادث السياسية التى سيطرت على الحياة المصرية وأوجبت على مصر أن تكون زعيمة العالم الإسلامى فى الحربين الصليبية والمغولية. يقول د. حمزة:

«ولقد كان الأدب المصرى يومئذ فياضاً بمعانى الحماسة والقوة، والعواطف الدينية الحارة.

وأما فكاهة الأدب المصرى وميله إلى السخرية فقد ظهرت فى الشعر والنثر ظهوراً واضحاً، بحيث لا نكاد نلتقى بشاعر أو كاتب

مصرى عريق فى المصرية إلا وتجد له فى التعبير عن المرح المصرى قدماً راسخة؛ ويداً طولى؛ وأما الزينة اللفظية فقد كلف المصريون بها كلفاً عظيماً. وطرأ على مصر رجل من فلسطين هو القاضى الفاضل، فتعلم هذه الطريقة من طرق التعبير فى مصر، ثم ازداد مع الأيام تعلقاً بها، وتيسر له فيما بعد أن يكون زعيماً سياسياً وأديباً كبيراً فى مصر. وأن ينشر مذهبه الفنى، فانتشر انتشاراً كبيراً؛ وتحمس له الكثرة من أهل مصر؛ وإن احتفظ بعضهم يومئذ بشىء من القصد فى استخدام الزينة اللفظية التى أسرف فيها القوم».

وفى هذا الكتاب عن «الحركة الأدبية فى مصر»؛ يناقش الأسباب التى أدت إلى إسراف الأدب المصرى الوسيط فى استخدام الزينة اللفظية، كما يرى القارئ الكريم فى فصول هذا الكتاب؛ من هذه الأسباب: ديوان الإنشاء؛ والحضارة الفاطمية؛ وذيوع الثقافة الدينية فى تلك العصور، وسيطرتها على أذهان العلماء. والقرآن هو السبب الأول فى نهضة النحو واللغة والبلاغة وغيرها.

ويخلص من ذلك كله إلى أن «ثقافة الأدباء الدينية، فى ذلك الوقت؛ كانت من مصلحة الأدب المصرى إلى حد بعيد. وبقيت هذه الثقافة الدينية صالحة للأدب حتى أتى الوقت الذى وجدنا فيه

القوالب العربية نفسها قد جمدت، والأساليب الأدبية أصابها نوع من التحجر. وذلك بسبب عجز الأدباء المتأخرين عن الاستفادة من أسلوب القرآن الكريم، وبسبب تأخرهم فى تحصيل الثقافات التى تعينهم على بلوغ هذه الغاية».

كما يخلص إلى أن تدين المصريين كان له «أثر عظيم فى نزاهتهم الخلقية التى ظهرت بوضوح فى ثروتهم الأدبية؛ كما نرى فى هذا الكتاب «ذلك أن الأدب المصرى لم يكن فى تلك الفترة أدباً ماجناً بالقياس إلى غيره فى بعض الأقاليم.. وإنما كان الأدب المصرى فى ذلك الوقت «عفّا، نزيه اللفظ فى جملته. آية ذلك أن مصر لم يكن بها فى هذه العصور شاعر كأبى حامد الأنطاكى المعروف باسم «أبى الرقعمق» وهو شاعر بلغ من المجون حداً سلكه فى زمرة السخفاء لا الظرفاء».

ويذهب د. حمزة إلى أن مصر ـ «من أجل أنها تميل إلى القديم ـ لم يستمر فيها المذهب الفاطمى الجديد» ولكنه يرى للعصر الفاطمى، أثراً ملموساً فى هذه النهضة الكبرى فى الأدب؛ وفى حركة الفكر؛ فقد تصدى الكثيرون للرد على الفاطميين؛ مثل: إخوان الصفا، والمعتزلة؛ والإثناعشرية؛ فضلاً عن الفلاسفة

ـ١ـ

والشعر وغيرهم. ومن هذا القبيل ما دار من الرسائل بين أبى العلاء المعرّى فى الشام، وداعى الدعاة بمصر؛ ومن استقرائه للطبيعة المصرية؛ يذهب د. حمزة؛ إلى أنها طبيعة «تحب القديم؛ وتؤثر فى الوقت نفسه السهولة والوضوح». ويرجح أن المصريين آثروا ـ بعد مجىء صلاح الدين ـ الرجوع للمذهب السنى لهاتين الصفتين فقط من صفات الشخصية المصرية. ويقول: «يخيل إلينا أنه لو لم يأت صلاح الدين لإعادة المصريين إلى مذهبهم الأول، لعادوا إليه من تلقاء أنفسهم، وإن استغرقت هذه العودة زمناً أطول بكثير من الزمن الذى قضاه صلاح الدين فى إرجاعهم إلى هذا المذهب».

إن بحوث أستاذنا د. عبداللطيف حمزة؛ فى أربعينات القرن العشرين؛ تعتبر بحق مثالاً رفيعاً للبحوث الأدبية؛ التى تعرضت لها المدرسة الأولى من مدارس البحث فى الأدب المصرى بجامعة «فؤاد» (جامعة القاهرة)؛ فهكذا ـ كما يقول ـ «بدأ تلاميذ هذه المدرسة بحوثهم فى هذه الناحية؛ وهكذا كان تفكيرهم فيها منذ اقتنعوا بوجوب النظر فى الأدب الإسلامى من هذه الزاوية».

وفى تقديمه للطبعة الثانية كتاب «الحركة الفكرية فى مصر» يقرن د. جابر عصفور بين دعوة الطليعة لمفهوم الأدب القومى؛ والتى تظهر بوضوح فى كتابات د. محمد حسين هيكل ـ وبين إنشاء كرسىٍّ جديد فى قسم اللغة العربية للأدب المصرى فى العهد الإسلامى بالجامعة المصرية، وأصبح أحمد أمين أول أستاذ يشغل هذا الكرسى؛ إلى أن شغله أمين الخولى سنة ١٩٤٣، وتولى تدريس الأدب المصرى الذى أصدر كتابه عنه فى السنة نفسها. ويذهب د. جابر عصفور إلى أن صدور كتاب د. عبداللطيف عن الحركة الفكرية فى مصر؛ كان حلقة من «حلقات سلسلة متكاملة، متصلة، متصاعدة، فى عملية تأصيل «مفهوم الأدب القومى».

أما كتابه التالى الذى يصدر فى طبعته الثانية اليوم عن «الهيئة المصرية العامة للكتاب» ؛ فيتناول فيه الأدب المصرى؛ ليتم عمله فى كتاب «الحركة الفكرية» ؛ يدفعه نفس الدافع لتأصيل مفهوم الشخصية المصرية من خلال النصوص الأدبية؛ على نحو يجعله أقرب إلى فكرة «التنوع» فى «الوحدة» ؛ والتى صدر عنها فى دراساته الأخرى: الأدبية والصحفية.

وهى الدراسات التى تعلمنا منها ـ وما نزال ـ كيف نستكمل اكتشاف وطننا المصرى، روحياً، من خلال الدلالات الروحية والنفسية فى النصوص الأدبية؛ رحم الله أستاذنا د. عبداللطيف حمز، وبارك الله فى كريمته الأديبة د. جيلان حمزة؛ التى عنيت بجمع تراثه الأصيل؛ وتقديمه مجدداً للقارئ الكريم فى كل مكان.

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

ليس خيرا للشباب العربى من أن يعرف تاريخ الوطن العربى معرفة جيدة. وليس خيرا لهذا الشباب من أن يتعرف إلى كل جزء من أجزاء هذا الوطن على حدة ؛ فيعلم شيئا عن تاريخ مصر ، وشيئا عن تاريخ سوريا ، وشيئا عن تاريخ العراق . ثم يضم أشتات هذه المعلومات لتتألف له من ذلك فكرة صحيحة عن الوطن العربى كله .

من أجل ذلك سررت حين سئلت أن أضع كتابا فى تاريخ الأدب المصرى منذ قيام الدولة الأيوبية إلى مجىء الحملة الفرنسية . وهى مدة طويلة تقرب من ستة قرون ونصف قرن . تعرضت مصر فى أثنائها لخطوب جسيمة ، وتقلبات عظيمة ، وذلك فى كل من الميدان السياسى ، والميدان الاجتماعى ، والميدان الأدبى الفكرى فى نهاية الأمر .

وليس شك فى أن الميدان الأخير من هذه الميادين هو المقصود بهذا المؤلف الذى بين يديك . ولهذا جعلته ثلاثة كتب على النحو الذى يلى :

أولها كتاب فى الحياة السياسية والعلمية والروحية لمصر فى تلك الفترة. وضحت فيه عوامل القوة والضعف فى الدول التى تعاقبت على مصر . وتحدثت فيه عن دواعى النهضة والركود العلمى والأدبى فى تلك

العصور ، مشيرا مع هذا كله إلى البيئات والمراكز العلمية المختلفة : مثل (الجامع) و (دار الحكمة) فى العهد الفاطمى ، ومثل (المدرسة) و (الخانقاه) فى العهدين الأيوبى والمملوكى . أما (الأزهر) فهو المؤسسة الفاطمية الكبرى التى تولت بنفسها صيانة العلم الإسلامى فى العصور الثلاثة التى أرخنا لهـــا بوجه عام ، والعصر العثمانى منها بوجه خاص .

وثانيها كتاب فى فن الشعر ، أوضحت فيه أولا كيف كان من ولاة العصر الأيوبى وحكامه علماء وشعراء . وفى هذا ما فيه من تشجيع للحركة الأدبية والعلمية . ثم وصفت حركة الشعر فى عهد صلاح الدين وخلفائه من بعده ، وذلك فى أثناء الحروب الصليبية . ثم انتقلت من ذلك إلى الكلام عن الشعر الصوفى بعد الفراغ من الشعر السياسى . وأخيرا تعرضت لأساليب الشعر المصرى ذاته ، وفرقت فى ذلك بين مذهبين من مذاهبه ، وهما مذهب البديع ويمثله القاضى الفاضل خير تمثيل ، ومذهب المعانى ويمثله البهاء زهير خير تمثيل . ولكل من هذين المذهبين تلاميذ وأتباع فى كل عصر من العصور الثلاثة التى أرخنا لها ، أشدنا بهم ، ونقدنا شعرهم ، وكونا لأنفسنا رأيا فى نتاجهم الشعرى .

ثالثها كتاب فى فن الكتابة ، وهى أنواع : أولها الكتابة الديوانية ، وفيها كان البديع هو الغالب على جميع الرسائل . وجاء القاضى الفاضل فغرقت على يديه الكتابة الديوانية فى هذا البديع إلى أذنيها ، وتبعه جميع الكتاب الديوانيين فى هذه الطريقة . ثم الكتابة الهزلية وهى الكتابة التى اصطنع فيها الكتاب شيئا من اللغة العامية ، كما اتضح لنا

ذلك فى كتاب (الفاشوس فى حكم قراقوش) فى العصر الأيوبى ، وكتاب (هز القحوف) فى العصر العثمانى . ثم الكتابة التاريخية وفيها تتبعنا حركة المؤرخين الذين ظهروا فى تلك العصور ، ووصفنا جهودهم ووازنا بينها ما وسعتنا الموازنة . وأخيرا كتبنا فصلا مستقلا عن الأدب الشعبى فى مصر معتمدين فى ذلك على قصص ألف ليلة وليلة وقصص الهلالية وسيرة الظاهر بيبرس .

(وبعد) ، فأحب أن أنبه القارئ هنا إلى ثلاثة أمور :

أولها : أننى عنيت بالكتابة عن الأدب المصرى على أساس من دراسة الشخصية المصرية ، وتتبع آثارها فى تلك العصور حتى تم نضوجها وتبلورت فى عصر المماليك . كما أومأت إلى آثار هذه الشخصية المصرية فى المجال السياسى ، والمجال العلمى ، وفى المجالات الأدبية على اختلافها ، وفى التصوف ، وفى الأدب الشعبى آخر الأمر .

ثانيها : أننى حرصت فى أثناء ذلك كل الحرص على أن أحتفظ لكل عصر من العصور الثلاثة التى أرخت لها بالطابع الذى يميزه . والاساليب الشائعة فيه ، والأخبار الدالة عليه . خذ لذلك مثلين هما : أولهما — الفصول التى تتعلق فى هذا الكتاب بالحروب الصليبية . وفيها وصف الصليبيين بأنهم كفار ملعونون . وثانيهما — العبارات التى وصف بها المصريون غيرهم من الشعوب .

فى المثل الأول وصف قد يؤذى نفوس المسيحيين ، كما تتأذى نفوس المسلمين بما يقرءونه عن أسلافهم فى كتب الصليبيين . وفى المثل

الثانى وصف للمغاربة بأوصاف لا يرضى عنها أحد فى العصر الحديث . ونحن نعرف عن هؤلاء المغاربة أنهم كانوا محل تقدير كبير يوم كانت الخلافة الفاطمية هى صاحبة السلطان والنفوذ . فلما جاءت السلطنة الأيوبية تغير الحال عن ذلك .

فى هذه الحالات وأمثالها ليس بد للقارئ من أن يحمل هذه العبارات على ظروف زمانها ، ويفهم مرماها فى الأجواء التى أحاطت بها .

ثالثها : أننى أوجزت القول إيجازا فى وصف الحياة العلمية نظراً إلى أنه سبق لى أن وضعت كتاباً بعنوان « الحركة الفكريه فى مصر فى العصرين ، الأيوبى والمملوكى ». وهو كتاب كبير يقع فى نحو أربعمائة صفحة ، ومن أجل ذلك عنيت عناية خاصة فى الكتاب الذى بين يديك بالعصر العثمانى من الناحية العلمية عناية تعوض بعض النقص فى الكتاب الذى أشرت إليه .

والله نسأل أن يحقق لنا كل ما نتمناه للوطن العربى كله من عز ورفعة ومجد ورفاهية . والله تعالى ولى التوفيق .

عبد اللطيف حمزه

الكتاب الأول

فى الحياة السياسية والعلمية والروحية

فى مصر

من قيام الدولة الأيوبية الى مجيء الحملة الفرنسية

الفصل الأول

الشخصية السياسية

تمهيد

كانت مصر فى القرنين الأول والثانى للهجرة باهتة اللون غامضة الشخصية. وليس فى هذا شىء من الغرابة. فقد كانت هذه البلاد العريقة فى الحضارة، القديمة فى الديانة حديثة عهد بالإسلام، تابعة تبعية مباشرة للخلافة: كانت تابعة لعمر بن الخطاب فى المدينة، ثم لبنى أمية فى دمشق ثم لبنى العباس فى بغداد. وكانت بغداد هذه تستمد قوتها من الخلفاء العباسيين الذين لم يألوا جهدا فى تشجيع العلم والحضارة. حتى خلقوا منها مركزا له مكانة ممتازة فى جميع العالم الإسلامى. وطغى هذا المركز على كافة المراكز الإسلامية المعروفة. ثم جاء دور هذه المراكز المعروفة التى أعقبت بغداد فى الظهور. وكان من أهمها مصر وقرطبة. نعم، أتى على كل منهما دور التفوق فى العلم والحضارة، إلا أنه قبل مجىء هذا الدور كان من العسير على الباحثين فى الواقع أن يكشفوا عن الشخصية الإقليمية لمصر أو الأندلس، كل على حدة.

غير أنه منذ منتصف القرن الثالث الهجرى تقريبا استطاعت دول جديدة أن تحكم مصر حكما مستقلا عن الخلافة. وتعاقبت هذه الدول

على الحكم وأتاحت لمصر فرصة لإظهار شخصيتها . فظهرت الدولة الطولونية ، فالأخشيدية ثم الخلافة الفاطمية . فالسلطنة الأيوبية ، فدولة المماليك البحرية ، فدولة المماليك البرجية ، وهذه الأخيرة هى التى غلب عليها الأتراك العثمانيون . وهؤلاء هم الذين أضاعوا استقلال البلاد المصرية ، وجعلوها تابعة تبعية مباشرة للدولة العثمانية . فإذا كانت الدولة الطولونية قد حكمت مصر منذ سنة ٢٥٤ للهجرة ، وكان الفتح العثمانى قد وقع فى عام ٩٢٣ للهجرة ، فمعنى ذلك أن مصر تمتعت باستقلالها نحواً من سبعة قرون . وهى مسافة زمنية كبيرة ، أتاحت لمصر فرصه كافية لتلعب دورا هاما على مسرح الحياة الإسلامية الجديدة ، وأثبتت للعالم الإسلامى أنها ذات شخصية عظيمة لا تقل فى عظمتها عن شخصية مصر فى عهد الفراعنة ، بشرط أن يحسب التاريخ حسابا كبيرا لهذا الدين الجديد ؛ وهو الإسلام ، كما يحسب التاريخ حسابا لهذا العنصر الجديد الذى امتزج بالمصريين ؛ وهو العرب .

أما الإسلام فقد جاء يدعو إلى (أخوة إسلامية) لا تعرف التفرقة بين الأقطار التى انضوت تحت رايتها . ومن ثم كان من العبث أن نحاول فهم التاريخ الوسيط لمصر وغيرها من الأقطار الإسلامية على ضوء الوطنية أو الإقليمية ، أو القومية العربية . إذ من الخير لنا وللتاريخ أن ننظر إلى المصريين وغيرهم من الشعوب الإسلامية نظرة تتفق وهذه الأخوة التى دعا إليها هذا الدين ، وجعلها أساسا روحيا وسياسيا للعالم الإسلامى من أوله إلى آخره .

ولكن ما الأثر الذى تركه هذا الروح الإسلامى الجديد فى الحكم المصرى والعقل المصرى ؟

أما أثره فى الحكم المصرى فواضح من أن مصر كانت لاتعترض على الحاكم الأجنبى متى كان هذا الحاكم يعتنق الديانة الإسلامية . ومن أجل هذا لم يجد المصريون غضاضة على أنفسهم فى قبول الطولونيين ، فالأخشيديين فالفاطميين فالأكراد من بنى أيوب ، ثم المماليك .

وأما أثره فى العقل المصرى فواضح من أن مصر بحكم مركزها من العالم الإسلامى أولا ، وبحكم مركزها الجغرافى ثانيا أصبحت محطا للكثيرين من علماء المسلمين على اختلاف أقطارهم ، بحيث كانت الرحلة إلى مصر فى طلب المال أو العلم أكثر من الرحلة إلى غيرها من البلاد الإسلامية الأخرى لمثل هذه الأغراض .

من أجل ذلك نستعرض تراجم الرجال فى العصور الوسطى فنرى فلانا المصرى المقدسى ، وفلانا المغربى الإسكندرى ، وفلانا الشامى المصرى وهكذا ، وقل أن نعثر فى هذه التراجم على رجل يكتفى بوصف أنه مغربى ، أو عراقى أو شامى ، أو مصرى ، أو مقدسى أو حجازى .

لا شك إذن أنه كان لهذه الأخوة الإسلامية التى يمكن تسميتها « بالقومية الإسلامية » كما كان للموقع الجغرافى الذى امتازت به البلاد المصرية أثر لا سبيل إلى إنكاره فى العقل وفى الذوق معاً . من أجل ذلك نجد أن مصر قد لعبت فى الإسلام نفس الدور الذى كانت تلعبه فى عهود اليونان والرومان ، مع فارق واحد لا مناص من ذكره ؛ وهو

أن مصر فى العهدين اليونانى والرومانى لم تكن مستقلة ، وأنها كانت فى العهود الإسلامية التى أشرنا إليها دولة ذات سيادة وزعامة صحيحة على العالم الإسلامى كله . وإن كانت قد دفعت الثمن غالياً للحصول على هذه الزعامة الأخيرة . وذلك بما ضحت فى محاربة الصليبيين ، وبما صدت من هجمات المغول المعتدين ، وبما قامت به من إحياء الخلافة العباسية بالقاهرة . وإن كان الخليفة إذ ذاك شخصا ليس له من الخلافة غير الاسم .

هكذا كان فيضان الشخصية المصرية على ما جاورها من الأقاليم الإسلامية . فمصر كلما أحست شيئا من القوة الفعلية ، اتجهت بأنظارها إلى ما جاورها من الأقطار الإسلامية فبسطت عليها شيئا من النفوذ السياسى أو الروحى أو الثقافى . وقد كان ذلك يتم فى العصور الوسطى بطريق القهر أو العنف ، ولكن ذلك أصبح يتم فى العصور الحديثة بطريقة أخرى ؛ هى طريقة الوحدة أو الألفة . والنتيجة واحدة فى الحالتين ؛ وهى أن مصر كانت لا تشعر بكيانها ، ولا تثق بوجودها ، ولا تستكمل مقوماتها ، إلا إذا انضمت إليها هذه الأقطار العربية المجاورة . بل إن هذه الأقطار المجاورة كانت هى الأخرى تستشعر القوة الحقيقية والوجود الحقيقى بانضمامها لأختها الكبرى مصر . وبذلك تأمن هذه الأقطار المجاورة جميع الأخطار التى تتعرض لها من العدو الأجنبى . ومصر فى أثناء ذلك كله تدرك بأن عليها واجبا لا يمكنها أن تتخلى عنه بحال ما . وهذا الواجب هو حماية العالم الإسلامى من الأخطار التى تتهدده . وهذا الواجب أيضا هو المشاركة القوية فى بناء

الحضارة الإسلامية بجميع مقوماتها من علم وفن ، وأدب ودين وخلق. وهذا الواجب مرة ثالثة هو القيام بدور « الوسيط الثقافى » بين العصور المختلفة : والشعوب المختلفة . وهل لقطر آخر ما لهذا القطر المصرى من موقع جغرافى يساعده على القيام بهذه الوساطة ؟ ولكن :

* * *

بم قويت مصر الأيوبية ومصر المملوكية ؟

استقامت لمصر فى الفترة التى تؤرخ شخصية سياسية فى منتهى القوة : وكانت لذلك أسباب كثيره أشرنا إلى بعضها . ولا بأس من تلخيصها فيما يلى :

أولا — قيام دولة فتية هى الدولة الأيوبية قضت على الخلافة الفاطمية التى بلغت من الضعف حدا أصبحت به عاجزة عن القيام بهذه المهمة الدينية السياسية الخطيرة — وهى طرد الصليبيين ، وإعادة الإمارات الصليبية إلى الراية الإسلامية .

ثانياً : — ضعف الخلافة العباسية فى بغداد ، وتعرض الحضارة الإسلامية بسبب ذلك للضياع .

ثالثاً : — نجاح الدولة الأيوبية فى زحزحة الصليبيين ، وإجبارهم على ترك الدول اللاتينية الصغيرة التى سبق لهم أن أقاموها فى الشرق ، وكانت بمثابة رقعة سوداء فى ثوب ناصع البياض كان لابد للشرق العربى من أن يتخلص منها .

رابعا : — نجاح المماليك فى صد تيار المغول الذين قوضوا بغداد ، وعرضوا الحضارة الإسلامية كلها — كما قلنا — للضياع . كل ذلك فضلا عن كون المماليك وفقوا توفيقاً عظيما فى مكافحة الصليبيين ، وطردوا البقية الباقية منهم نهائياً من الساحل .

خامساً : — محاولة المماليك إحياء الخلافة العباسية فى القاهرة وجلبهم الخلفاء العباسيين إليها للإقامة بها . وبذلك اكتسب السلاطين المماليك صفة شرعية كبيرة خلقت لهم منزلة لا يصبو إليها غيرهم من ملوك الإسلام فى ذلك الزمان . كما خلقت لمدينة القاهرة صورة فى أذهان الناس أزرت — أو كادت تزرى — يومئذ بصورة بغداد وبغيرها من العواصم الإسلامية الأخرى .

تأثر الأدب المصرى بكل سبب من هذه الأسباب . فسقوط دولة وقيام أخرى ، ونجاح المسلمين فى حروبهم ضد الصليبيين ، وضد المغول وإنقاذ الحضارة الإسلامية من هذا الخطر العظيم ، وإحياء الخلافة العباسية بالقاهرة بعد أن كادت تزول من الوجود بفعل أولئك المغول . كل هذه الأمور كانت أحداثاً جساماً فى تاريخ العرب والإسلام وتاريخ مصر بوجه خاص ، بل كانت أعظم الأحداث على الإطلاق فى تاريخ الشعوب الإسلامية فى العصور الوسطى . فكان من الطبيعى أن يترك كل واحد منها ظله واضحاً فى الأدب الإسلامى عامة ، والأدب المصرى بنوع أخص .

لم ضعفت مصر العثمانية ؟

بقى المجد السياسى والمجد الأدبى لمصر على هذا النحو طوال الدولتين يوبية والمملوكية ، حتى آن لشمس هذا المجد أن تغرب ، ولنارها تخمد . وذلك على أيدى الأتراك العثمانيين الذين ملكوا الديار المصرية عام ٩٢٣ هجرية ، والعثمانيون جيل من الأجيال التركية المتشعبة الجنس المغولى . ومعنى ذلك أن هذه النكبة التى نجت منها البلاد سلامية على أيدى المماليك ، عادت فأصابت هذه البلاد الإسلامية من يد بوقوعها فريسة لشعبة من تلك الأجناس المغولية ، وهم العثمانيون ن غلبوا المماليك ، وبدءوا بذلك عهداً من عهود الظلام دام فى هذه د الإسلامية نحو ثلاثة قرون ، لم تستيقظ منه مصر إلا على أصوات ة الفرنسية ، وهى الحملة التى شنها القائد الفرنسى بونابرت على مصر ، ثت بها صفحة جديدة من صفحات هذا الشرق .

لكن ما الأسباب التى أفضت بمصر إلى هذا الضعف باستثناء ب الرئيسى منها ، وهو ضياع استقلالها وزوال سيادتها على يد ك ؟

هنا يحدثنا التاريخ عن أمور كثيرة اصطلحت كلها على إصابة مصر الضعف الذى ترك أسوأ الأثر فى بقاء شخصيتها على ما كانت عليه القوة والفيض .

بدأ الحكم العثمانى فى عام ٩٢٣ هـ ، واستمر إلى عام ١٢١٣ هـ .

أى أنه دام ثلاثة قرون تقريباً خضعت مصر فيها لنظام جديد من نظم الحكم وضعه السلطان سليم الأول . وكان هذا النظام يتألف من سلطات ثلاث وهى :

(سلطة الوالى) ويقوم على تنفيذ أوامر السلطان العثمانى كما رسمها له .

(وسلطة الجيش) وقد تركه السلطان لحماية البلاد وبقائها تحت سيطرة الدولة العثمانية فى كل وقت .

(وسلطة المماليك) وقد نصبهم السلطان حكاماً على المديريات أو « السناجق » وأطلق عليهم اسم « البيكوات » .

غير أن الفتن والمشاحنات ظلت قائمة بين هذه السلطات الثلاث . وكان ذلك أول سبب من أسباب الانهيار الذى أصاب الشخصية السياسية لمصر إذ ذاك .

وأما ثانى الأسباب المؤدية إلى هذا الانهيار ، فهو بقاء المماليك أنفسهم بمعزل عن الشعب المصرى ، ومغالاتهم فى ابتزاز الأموال الطائلة من جيوب الفلاحين المساكين الذين ظلوا يعانون كثيراً من ثقل الضرائب المشروعة حينا ، وغير المشروعة حينا ، حتى أفلسوا ودخل عليهم الفقر والعوز من أبواب متفرقة ، وأصبحوا فى حالة سيئة .

أجل ، كان من المماليك قوم أسخياء يمنحون الفلاحين وغيرهم من

أفراد الشعب الجائع شيئاً من الرعاية . ولكن هذه الحال لم تزد المماليك أنفسهم إلا شعوراً بأنهم السادة . كما لم تزد المصريين أنفسهم إلا شعوراً بأنهم « العبيد » . وتلك حالة نفسية لا تورث الشعب إلا ضعفاً في الشخصية ، ونفوراً من الاشتراك في بناء الوطن المصرى بنصيب ما — قل أو كثر .

وليت الأمر وقف عند هذا الحد . بل وجدنا أن أول عمل بدأ به السلطان (سليم الأول) حكمه إذ ذاك أنه جمع أمهر الصناع في ربوع مصر — وكان عددهم يربى على الألف — وبعث بهم جميعاً إلى تركيا لينهضوا هناك بشتى الصنائع التى حرم منها المصريين بالقوة .

على أن الكساد الصناعى سار معه جنباً إلى جنب كساد آخر في شئون الزراعة والتجارة . وزاد الطين بلة وقوع الأوبئة والمجاعات التى توالت على مصر سنين عديدة . نخص بالذكر منها سنوات ١٦٠٣ ، ١٦١٩ ، ١٦٢١ ، ١٦٢٥ ، ١٦٤٥ للميلاد . وفى الوباء الأخير بنوع خاص خربت من القرى المصرية أكثر من مائتى قرية بادت كلها عن آخرها ، وزالت زوالا من رقعة مصر كأن لم تغن بالأمس !

ومع هذا وذاك فقد كانت تلك الكوارث الشداد مما يمكن احتماله بشكل من الأشكال لولا أن مصر منيت فى ذلك العصر بكارثة الكوارث ومصيبة المصائب ، ونعنى بها تحويل التجارة الهندية من مصر والشام والبحر الأبيض المتوسط إلى طريق المحيط الأطلنطى وجنوب أفريقيا . حدث ذلك على أيدى البرتغال أواخر العهد المملوكى الثانى — أعنى

فى أيام السلطان الغورى — ولكن آثاره السيئة ظهرت بجلاء تحت الحكم العثمانى الذى شاءت المقادير أن يكون مقرونا بكل هذه المحن التى أشرنا إليها .

كل ذلك والجنود الذين تتألف منهم الحامية التركية يشغبون على الوالى مرة ، وعلى المماليك الذين عينهم السلطان حكاماً على السناجق مرة أخرى .

وبقى هؤلاء الجند يشتغلون بجمع السلطة فى أيديهم حتى جعلوا من الولاة ألعوبة لهم . وصارت كل طائفة من الجند تستولى على جملة من التجار أو المزارعين أو الفلاحين ، وغيرهم من طبقات العمال فيقتسمون معهم الأرباح . وفى نظير ذلك يحمونهم من أداء الحقوق التى عليهم للحكومة !

على هذا النحو بقيت مصر كرة تتلقفها السلطات الثلاث يضرب بعضها بعضا ، ويأتمر بعضها ببعض .

فمرة تشتبك الحامية بالمماليك ، ويفيد من ذلك الوالى . وأخرى تشغب الحامية على الوالى ، وينتفع بذلك المماليك وهكذا . أما الشعب نفسه فهو هذه الكرة التى تتقاذفها السلطات الثلاث ! !

وبقى الأمر على هذا النحو حتى قوى شأن مملوك كبير من المماليك المصريين . هو « على بك الكبير » . وكان قد سعى بذكائه وجرأته حتى أصبح يلقب « بشيخ البلد » وهو اسم لزعيم المماليك وحاكم القاهرة فى وقت معا .

واستطاع على بك الكبير أن يثير فى نفوس المماليك شعورا بالنخوة المصرية ، وأن يذكرهم بمجد المماليك البحرية والمماليك البرجية . وبهذه الطريقة نفرهم من الباب العالى ومن الأتراك . فاجتمع رأيهم على خلع الباشا أو الوالى ، وطرده من مصر ، وإعلان استقلال البلاد عن الدولة العثمانية .

كان ذلك سنة ١١٨٣ هـ - ١٧٦٩ م والدولة العثمانية يومئذ فى حرب ضد روسيا . فانتهز على بك الكبير هذه الفرصة أيضا وفتح بلاد الحجاز والشام وضمهما إلى مصر .

غير أن هذا الانتعاش البسيط على يد هذا المملوك لم يدم إلا ريثما استقرت الأمور فى اثنين آخرين من المماليك هما « مراد بك » و « ابراهيم بك » . وكانا قد اتفقا على أن يقتسما بينهما سياخة البلد . ثم عادا إلى خلافهما القديم وهو الخلاف الذى لفت إليهما أنظار الأوروبيين ، ومن أجله أتى القائد الفرنسى (بونابرت) فى حملته المشهورة على مصر .

الفصل الثاني

الشخصية العلمية

دخل الفاطميون مصر ومعهم دعوة جديدة حرصوا على نشرها في البلاد المصرية ، وهي الدعوة الفاطمية التي أطلقوا عليها اسم « الدعوة الهادية » و « دعوة الحق » .

وكان من مراكز هذه الدعوة إذ ذاك قصر الخلافة من جهة ، والجوامع الكبرى التي من أهمها « الجامع الأزهر » من جهة ثانية .

وكان للفاطميين ـ فضلا ـ عن كل ذلك عناية كبيرة (بالمكتبات) يلحقونها بقصر الخلافة نفسه ، ويلحقون بهذه المكتبات مجامع علمية كالمجمع الذي أنشأه الوزير يعقوب ابن كلس ، وجعل نفقته ألف دينار في كل شهر .

وأخيرا سمعنا « بدار العلم » أو « دار الحكمة » ، وهي الدار التي أسسها الحاكم بأمر الله سنة ٣٩٥ الهجرة . فأزرت هذه الدار بشهرة المراكز العلمية التي سبق ذكرها ، وغطت شهرتها على شهرة تلك المراكز ، ووصل الخليفة بها مكتبة ذات ردهة كبيرة للمطالعة . وكان بالمكتبة حجرة كبيرة للاجتماعات والمباحثات . وقد ترك أمر هذه الدار وملحقاتها لرعاية رجل من أكبر رجالات الدولة ـ هو داعي الدعاة ـ

الذى كان عليه أن يلقى دروسه فى دار الحكمة يومى الإثنين والخميس
ن كل أسبوع ، ويأتى لسماعه العلماء والدعاة . وكان للنساء فى هذه
لحلقات العلمية مكان خاص بهن .

ويبدو أن الأغراض التى أنشئت من أجلها دار الحكمة ثلاثة
، جملتها :

الأول : استيعاب الكتب والمطالعات والمحاضرات .

والثانى : تثقيف القضاة بعد أن يتموا دراستهم فى الجامع الأزهر .

والثالث : تعليم الدعاة الذين كان عليهم أن يتلقوا دروس النحو
المنطق والفلسفة والنجوم فى الجامع الأزهر . ثم يغادرونه بعد ذلك
، دار الحكمة ليتموا تعليمهم هناك .

* * *

وبينما كانت (دار الحكمة) وغيرها من المراكز العلمية العامة
وم بعملها فى العهد الفاطمى على هذا النحو إذا بمؤسسة أخرى كانت
، نمت وترعرعت فى الأوساط السنية فى الشرق الإسلامى . وهذه
ؤسسة الجديدة هى (المدرسة) .

والمدرسة بناء فى وسطه صحن كبير مربع الشكل . وفى كل جانب
الجوانب الأربعة لهذا الصحن إيوان مقبب . ويراعى فى بناء المدرسة
ما أن تكون على سمت القبلة . ولكل مدرسة محراب . ومن هنا
خرج المدرسة فى الواقع عن كونها مسجدا أو جامعا .

بل أصبح من الصعب التفرقة فيما بعد بين الجامع والمدرسة . ورسم
رسة العام على شكل صليب . ولكنها تبدو من قريب أنها على

شكل مربع . وذلك لأن مساكن الأساتذة والطلبة تملأ فراغ المثلثات الأربعة التى يحدثها الشكل المصلب .

وفى النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى انتشرت المدارس المنسوبة إلى الوزير (نظام الملك) فى كل من بغداد ونيسابور والموصل والبصرة .

ثم فى القرن السادس الهجرى تحمس لبناء المدارس السلطان صلاح الدين الأيوبى ، بناها بمصر وكان قد سبقه إلى بنائها نور الدين محمود بدمشق .

والمهم هنا أن إنشاء المدارس والإكثار منها كان جزءا من الخطة التى وضعها صلاح الدين لإزالة الدولة الفاطمية ، ولإثارة الشعور الدينى ضد الأوربيين فى الحروب الصليبية .

ومعنى ذلك أنه بينما كانت الجنود تقاتل الفرنج فى الميدان إذا بالعلماء والفقهاء يهيئون النفوس ويغزون الأذهان ويفتحون البلاد المصرية فتحا مذهبيا لإحلال المذهب السنى محل المذهب الشيعى ، ولبث الروح الدينى الذى كان لابد منه لدفع الخطر الصليبى :

وهكذا كان العمل الذى تقوم به المدرسة عملا ذا شقين : أحدهما يتجه إلى داخل البلاد لإعادتها إلى المذهب السنى الذى أراد القضاء عليه رجال الدولة الفاطمية . والآخر يتجه إلى ميدان القتال لتقوية الروح المعنويه التى لا بد منها للمسلمين فى محنة الحروب الصليبية .

(البيئات العلمية فى العصرين الأيوبى والمملوكى)

إن نظرة واحدة إلى تلك المدارس التى ظهرت بمصر منذ أواخر العصر الفاطمى ترينا أن هذه المدارس توزعت على بيئات ثلاث هى :

(بيئة الإسكندرية) ومن مدارسها مدرسة ابن السلار . وابن السلار هذا وزير كردى سنى كان يعمل فى خدمة الدولة الفاطمية . وقد نشأت مودة قوية بينه وبين نور الدين محمود صاحب دمشق ، وصاحب اليد الطولى فى مقاومة الفرنج . أنشئت هذه المدرسة عام ٥٤٦ هـ . وكان يقوم على إدارتها إمام عظيم من أئمة المسلمين وعالم كبير من علماء الحديث ؛ هو الحافظ السلفى (بكسر السين وفتح اللام) وقد أدركه صلاح الدين وكان يسعى إليه لسماعه واغتنام فرصة حياته على حد تعبيره إذ ذاك .

بيئة القاهرة) ومن أشهر المدارس التى أنشأها صلاح الدين فى تلك البيئه مدرسة للشافعية بجوار الجامع العتيق عرفت بأسماء شتى : منها المدرسة الناصرية (نسبة إلى الملك الناصر صلاح الدين) . ومنها مدرسة ابن زين التجار (نسبة إلى العالم الشافعى الذى طالت مدته بهذه المدرسة ، ومنها المدرسة الشريفية وهكذا .

كما بنى صلاح الدين بالقاهرة مدرسة للمالكية هى المدرسة القمحية (نسبة إلى القمح الذى كانت تحصل عليه من ضيعه تزرعه بجهة الفيوم وقفها صلاح الدين على هذه المدرسة التى عرفت كذلك بدار الغزل) .

وبعد موت الخليفة العاضد وزوال الدولة الفاطمية نشط صلاح الدين فى بناء طائفة أخرى من المدارس ومنها : مدرسة للفقهاء الحنفية

هى المدرسة السيوفيه . ومدرسة بجوار الإمام الشافعى . وأخرى بجوار المشهد الحسينى. وأحصى المؤرخون مجموعة المدارس التى بنيت بالقاهرة وضواحيها فى العهد الأيوبى فإذا بها خمس وعشرون مدرسة كان من أهمها جميعا :

المدرسة الكاملية :

وكانت تسمى دار الحديث . وهى المدرسة التى أنشأها السلطان الملك الكامل محمد من أعظم سلاطين بنى أيوب وقد فرغ من إنشائها عام ٦٦٢ ه . وتعتبر الدار الثانية فى الترتيب بين الدور التى تخصصت فى الشرق الإسلامى لدراسة الحديث . أما الدار الأولى فهى التى بناها نور الدين محمود بدمشق . وقد كان من أشهر تلك المدارس أيضا :

المدرسة الصالحية :

بناها الملك الصالح نجم الدين أيوب عام ٦٣٩ ه . وكانت أشبه شىء بجامعة كبرى ذات كليات أربع تختص كل واحدة منها بمذهب من المذاهب الأربعة المعروفة. وهى الحنفى والمالكى والشافعى والحنبلى .

ثم المدرسة الفاضلية :

نسبة إلى القاضى الفاضل . بناها عام ٥٨٠ ه . ولهذه المدرسة شهرة فى التاريخ . ومرجع ذلك إلى المكتبة العظيمة التى ألحقها القاضى الفاضل بهذه المدرسة وجمع فيها من كتب العصر الفاطمى وحده مائة ألف مجلد !

(بيئة قوص) . وأما البيئة الثالثة فيما عدا بيئة الإسكندرية و بيئة القاهرة فهى بيئة قوص . ومن أشهر مدن هذه البيئة (أسنا) و (إدفو)

و (قنا) . وقد أحصى بعض العلماء مجموع المدارس التى أنشئت بهذا الإقليم فإذا بها ست عشرة مدرسة بذلت كلها جهودا مضنية فى تخليص البلاد المصرية من المذهب الذى أتت به الدولة الفاطمية والعودة بالبلاد إلى المذهب السنى الذى تحمست له الدولتان الأيوبية والمملوكية .

* * *

ومضى سلاطين المماليك فى هذه السياسة التعليمة التى سبقهم إليها سلاطين بنى أيوب . فنافس بعضهم بعضا فى بناء المدارس ، ومن أشهرها يومئذ على سبيل المثال :

مدرسة الظاهر بيبرس :

أسسها عام ٦٦٠ هـ ، بجهة يقال لها (بين القصرين) بالقاهرة ، وزودها بمكتبة هائلة ، وجعلها تعنى بسائر العلوم ، ووقف عليها أوقافا عظيمة : ولما فرغ من بنائها سنة ٦٦٢ هـ دعا العلماء والفقهاء والقراء للاجتماع بها . فجلس أتباع المذهب الشافعى بالإيوان القبلى ، والحنفية بالإيوان البحرى وأهل الحديث بالإيوان الشرقى ، والقراء بالإيوان الغربى . وعين لكل فريق منهم مدرسا خاصا . وعندما اكتمل جمعهم تناظروا فى شتى المسائل ، ثم مدت لهم الأسمطة . وقام بعض الشعراء فأنشدوا شعراً أشادوا فيه بهذه المدرسة . ولما فرغوا من مجلسهم وهبهم السلطان الظاهر بيبرس كثيرا من المنح . وقد أسس الظاهر مدرسته هذه على نمط المدارس الأيوبية . ولم يكتف بيبرس بهذه المدرسة ، بل بنى بجوارها « مكتبا » يتعلم فيه الأيتام من أبناء المسلمين القراءة

والكتابة، ويحفظون فيه القرآن الكريم . وقرر لمن فيه الخبز كل يوم ، والكساء فى فصلى الشتاء والصيف .

ولم تقف همة الظاهر بيبرس عند هذا الحد بل تعداه إلى العناية بالجامع الأزهر نفسه ، فجدد فى بنائه ، ورده إلى الحال التى كان عليها زمن الفاطميين ، وجعل منه مثابة للعلماء والفقهاء والمدرسين والباحثين . وقصده الطلاب من جميع أنحاء العالم الإسلامى . وبذلك تمت للقاهرة مكانتها العلمية والأدبية ، ونبغ كثيرون من الكتاب والأدباء والعلماء ومن جملتهم محي الدين بن عبد الظاهر صاحب كتاب « السيرة الظاهرية » وابن خلكان صاحب كتاب « وفيات الأعيان » ؛ وابن واصل صاحب « مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب » وغيرهم .

ثم أتت أسرة قلاوون بعد أسرة بيبرس فسارت على هذا النهج وأكثرت من بناء المدارس والجوامع والبيمارستانات وما إليها . فأنشأ السلطان المنصور قلاوون فى سنة ٦٨٨ هـ مدرسة وقبة ومارستانا فى مكان واحد ، هو المعروف فى وقتنا هذا « بمستشفى قلاوون » . وقيل فى سبب بناء المارستان المذكور إن قلاوون لما ذهب لغزو الروم سنة ٦٧٥ هـ — وذلك فى عهد السلطان الظاهر بيبرس — أصابه وهو بدمشق مرض شديد فعالجه الأطباء هناك بأدوية جلبوها له من مارستان الملك نور الدين محمود ، فلما شفى قلاوون ذهب بنفسه لمشاهدة المارستان ، ونذر إن هو اعتلى عرش مصر ليبنين مارستانا مثل مارستان نور الدين محمود !

وتوفى السلطان المنصور قلاوون وخلفه على عرش مصر ابنه السلطان الملك الناصر محمد ، فجرى على نسق أبيه فى إنشاء المدارس . وبنى المدرسة الناصرية ومكانها الآن شارع النحاسين . وعين بها المدرسين

للمذاهب الأربعة . والحق بها مكتبة حافلة . وجدد الناصر بعد ذلك بناء المارستان الكبير الذى بناه أبوه الملك المنصور قلاوون .

ثم أتت دولة المماليك البرجية فسارت على هذه السنة . وبنى كل من السلطان برقوق والسلطان قايتباى والسلطان الغورى ، مدارس ومساجد امتلأت بالأساتذة والمدرسين ، وزودت بالكتب الكثيرة من شتى العلوم . وسارت النهضة العلمية فى طريقها حتى نهاية عصر المماليك .

الميول العلمية لسلاطين الدولتين الأيوبية والمملوكية

لابد من الإشارة بعد ذلك إلى بعض الميول العلمية لسلاطين الدولتين الأيوبيه والمملوكية ، ثم إلى الطريقة التى رعوا بها الحركة العلمية . وإن كنا لا نستطيع الإفاضة فى هذا الموضوع خوف الإطالة . ولذا سنكتفى بأمثلة من هذا التشجيع توضح فى الوقت نفسه بعض هذه الميول .

ولنبدأ بالعصر الأيوبى وهنا لا نصادف ملكا من ملوك هذه الدولة الأيوبية أو أميراً من أمرائها قليل العناية بالعلم والاحتفاء بالأدب . بل أوشك أن يكون كل واحد من هؤلاء إما شاعرا ، وإما فقيها ، أو محدثا ، أو نحويا ، أو رجلا ذا تصانيف علمية أدبية . لا نكاد نستثنى من ملوك الأيوبية غير الملك الصالح نجم الدين أيوب الذى وصفه المؤرخون بأنه كان ذا طبيعة عسكرية لم تساعده كثيرا على أن يكون ذا ميل إلى العلم أو الأدب . ومع هذا وذاك فإن هذا الرجل لم تمنعه طبيعته هذه من بناء المدارس ، والإكثار من أماكن العلم على النحو الذى سبقت الإشارة إليه .

أما السلطان صلاح الدين مؤسس الدولة الأيوبية ، والذى أفنى حياته فى محاربة الصليبيين فلم تمنعه هذه الشواغل الكثيرة عن العناية بعلوم الدين . والسعى لتحصيلها بنفسه . فكان يذهب لسماع الدروس الدينية من الأئمة المشهورين كالحافظ السلفى والشيخ أبى طاهر ابن عوف . ولقد سمع صلاح الدين على هذا الأخير كتاب الموطأ لابن مالك . كما قرأ عليه الشيخ تاج الدين المسعودى دروساً كثيرة فى الحديث وهكذا .

وأما الملك العادل أبو بكر أيوب أخو السلطان صلاح الدين فكان شديد الحب للعلماء والاهتمام بهم ، حتى قيل إن الإمام فخر الدين الرازى صنف له كتاباً سماه (تأسيس التقديس) كان الملك العادل كثير النظر فيه والرجوع إليه .

أما الملك الكامل محمد ابن الملك العادل أبى بكر بن أيوب فمما حكى عنه أنه كان يعظم أهل السنة ، ويسعى إلى الاجتماع بالعلماء . وكانت عنده مسائل غريبة من فقه ونحو يختبرهم بها . فمن أجاب قدم وحظى عنده بالمنزلة الكبرى . وكانت تبيت عنده بالقلعة جماعة من أهل العلم ينصب لهم أسرة ينامون عليها بجانب سريره ليسامروه ويحدثوه فى العلم والأدب .

وكان الملك عيسى من أولاد الكامل محمد ملكا على الشام . وكان مع شغله بالملك نحويا كبيراً ولغويا عظيما وفقيهاً مشهوراً . وانفرد بالمذهب الحنفى من دون . ملوك الأيوبية الذين يميلون إلى المذهب الشافعى فقرب إليه علماء المذهب الحنفى وشجعهم على التأليف فيه .

وأما سلاطين المماليك فهم تلاميذ بنى أيوب فى تحمسهم للدين وتشجيعهم العلوم . كما كانوا تلاميذهم فى السياسة والحروب مع فارق واحد فقط لا مناص من ذكره والتنبيه إليه . وخلاصة هذا الفرق أن ملوك بنى أيوب كان أكثرهم يشاركون مشاركة فعلية فى الأدب والعلم ويصنفون فيهما كتباً كثيرة ؛ على حين أن سلاطين المماليك اكتفوا بتشجيع العلم وبالإغداق على أهله من المال والعطاء ما يضمن لهم البقاء .

الحياة العلمية فى العصر العثمانى

غير أنه بزوال العصر المملوكى بدولتيه البحرية والبرجية ومجىء الدولة العثمانية تغير وجه الحياة المصرية وتعطل سير العمل بهذه السنة الحميدة وهى بناء المدرسة . وأصبح العلم محصوراً فى مكان واحد فقط على وجه التقريب وهو :

الأزهر :

ونحن نعلم أن الذى بنى هذا المسجد أو الجامعة هو جوهر الصقلى بعد عام واحد من الفتح الفاطمى . وفتح هذا الجامع للصلاة عام ٣٦١ للهجرة . ثم زاد كثير من الخلفاء الفاطميين فى بناء الأزهر شيئاً فشيئاً حتى جاء عهد العزيز بالله الفاطمى فجعل منه معهداً علمياً ضخماً . ثم جاء عهد الحاكم بأمر الله « ٣٨٦ — ٤٦١ هـ » فزاد أيضاً فى بناء هذا المسجد ، وحبس عليه أوقافاً كثيرة أخرى .

وزالت الدولة الفاطمية وتلتها الدولة الأيوبية . وكانت تخالفها فى المذهب كما قلنا فلم يلق الأزهر من عناية الدولة الأيوبية ما لقيه من عناية الدولة الفاطمية . وانقضى نحو قرن من الزمان قبل أن يستعيد الجامع الأزهر عطف الولاة والحكام .

ثم جاء عهد الملك الظاهر بيبرس من سلاطين المماليك فزاد فى بناء الأزهر ، وشجع التعليم به ، وأعاد الخطبة فيه . وحذا حذوه كثير من أمراء المماليك .

ثم فوجىء الشرق الإسلامى كله بغزوات المغول . وأصاب الإسلام من هذا الخطر شىء عظيم . وتعرضت الحضارة الإسلامية نفسها للزوال من هذا الوجود . فزاد عطف المماليك على الجامع الأزهر . واستطاعت هذه الجامعة الإسلامية الكبيرة اذ ذاك أن تحتفظ بالتراث الإسلامى بكل عناصره بعيداً عن خطر المغول . وأعانتها أحوال مصر السياسية والمالية والجغرافية على تأدية هذه المهمة .

وسقطت منارة الأزهر فى عهد السلطان برقوق فأقامها من ماله الخاص . . وأنشأ للجامع صهريجاً للمياه ، وأقام له ميضأة .

ثم كان السلطان قايتباى أكثر الناس بعد ذلك رعاية للجامع الأزهر وأتى بعده قانصوه الغورى آخر سلاطين المماليك فشيد فيه المئذنة ذات البرجين .

ثم فى العهد العثمانى جاء السلطان سليم الأول لزيارة الأزهر وللصلاة فيه ، وتصدق على فقراء المجاورين . وسار سلاطين آل عثمان هذه

السيرة . ولقى الجامع الأزهر منهم قدراً لا بأس به من الرعاية . ومن ذلك أنه أقيمت به زاوية خاصة بالمكفوفين سميت « بزاوية العميان » بناها (عثمان كتخدا) عام ١١٤٨ هـ .

ثم جاء عبد الرحمن كتخدا بعد ذلك فكان من أكثر الناس إحساناً إلى الأزهر . بنى به مقصورة ومنبراً للخطابة . وأنشأ به مدرسة لتعليم الأيتام مبادىء القراءة والكتابة . وعمل به صهريجاً للمياه ، وشيد له قبراً دفن فيه فى النهاية .

مشيخة الأزهر :

ولم يكن للأزهر رئيس علمى إلا فى عهد الدولة العثمانية . أى أن الولاة العثمانيين هم الذين خلقوا هذه الوظيفة المهمة ، وهى وظيفة « شيخ الأزهر » . وبها يعتبر رئيساً لشيوخ الأقسام الكثيرة التى تنقسم إليها هذه الجامعة .

وقد حفظ لنا الجبرتى فى تاريخه ثبتاً بأسماء شيوخ الأزهر لأكثر من قرنين من الزمان ، ابتداء من عام ١١٠٠ للهجرة . وأظهر لنا أن رعاية الوالى التركى كان لها أكبر الأثر دائماً فى انتخاب شيوخ الأزهر . وهم على التتالى : —

— محمد بن عبد الله الخرشى المالكى المتوفى سنة ١١٠١ هـ

— محمد النشرتى المالكى — المتوفى ١١٢٠ هـ

— احمد النفراوى (لا نعلم سنة وفاته)

ــ عبد الباقى القلينى .

وقد اختلف الشيخان الأخيران اختلافاً وقع بسببه شجار ء
بين الطلبة سقط فيه بعضهم جرحى وقتلى !

ــ محمد شنن المالكى المتوفى سنة ١١٣٣ هـ .

ــ ابراهيم بن موسى الفيومى المالكى المتوفى سنة ١١٣٧ هـ

ــ عبد الله الشبراوى الشافعى المتوفى سنة ١١٧١ هـ

ــ محمد بن سالم الحلوتى الشافعى المتوفى سنة ١١٨١ هـ

ــ احمد بن عبد المنعم الدمنهورى المتوفى سنة ١١٩٠ هـ

ــ عبد الرحمن بن محمد العريشى الحنفى المتوفى سنة ١٢٠٨ هـ

ــ عبد الله الشرقاوى الشافعى المتوفى سنة ١٢٢٧ هـ

وفى أيام هذا الأخير جاءت الحملة الفرنسية ، وارتاع لها المصر
جميعاً على النحو الذى شرحه الجبرتى .

وهؤلاء جميعاً تعلموا فى الأزهر . ثم تولوا التدريس بأنفسهم
وصلوا إلى هذه الدرجة .

السمات العلمية لكل عصر من هذه العصور التار

كان لكل عصر من العصور الثلاثة التى تؤرخ لها سمات علمية :
عن سمات الآخر . ومن الخير أن تتعرف على هذه السمات حتى
إدراكنا لهذه الفترات التاريخية التى مرت بالبلاد :

سمات العصر الايوبى

أما العصر الأيوبى فهو امتداد للعصرين الطولونى والأخشيدى : وذلك من حيث العلوم التى نهض بها المصريون فى هذين العصرين السابقين . وهى علوم الحديث والتفسير ، والقراءات والنحو والبلاغة . والنتيجة التى يصل الباحث إليها هى أن العصر الأيوبى أحرز فى كل علم من تلك العلوم تقدماً ملموساً ، وأن هذا التقدم تم على أيدى علماء كان لهم شأنهم وشهرتهم ومؤلفاتهم . (١)

وقد أعانهم على ذلك ما سبق أن ذكرناه من أن ملوك الأيوبية كانوا يميلون بطبعهم إلى العلم . بل كان منهم الفقيه والنحوى والكاتب والشاعر والمؤرخ . ولولا ذلك لما استطاع العصر الأيوبى أن يسير بالنهضة العلمية هذه السيرة ، أو يقطع فى ميدان العلم مثل هذه المسافة .

وبايجاز شديد كان العصر الأيوبى إرهاصاً لعصر جديد ، هو العصر المملوكى . وفى هذا الأخير مضى العلم أشواطاً أخرى ، وجاء حادث المغول وهجومهم على العراق فزاد العلماء أنفسهم تحمساً للعلم ، ورغبة فى حفظه من

---

(١) سبق أن ذكرنا فى مقدمة الكتاب أننا تعمدنا الايجاز فى وصف الحركة العلمية فى العصرين الأيوبى والمملوكى خاصة اعتمادا منا على كتاب آخر وضعناه منذ سنوات وذلك بعنوان :

(الحركة الفكرية فى مصر فى العصرين الأيوبى والمملوكى الأول)

وهو كتاب يقع فى ٣٨٨ صفحة . وقد تتبعنا فيه حركة العلماء المصريين فى كل علم من العلوم السابقة على حدة

يد غوائل الدهر . ومن ثم ظهرت الموسوعات التى من أجلها أطلق على:

العصر المملوكى عصر الموسوعات :

وكما حمت مصر بسيوفها بلاد الإسلام من خطر المغول الذى أشرنا إليه ، فكذلك حمت مصر بأقلامها تراث الإسلام من هذا الخطر الذى أوشك أن يقضى عليه .

ذلك أن مصر بعد هذه الكارثة فتحت أبوابها للاجئين إليها من العلماء والأدباء الفارين من وجه الخطر المغولى . وفى مصر أمن أولئك العلماء على نفوسهم ، وشجعهم سلاطين المماليك على القيام بواجبهم . فقاموا بجمع المواد التى تتألف منها الثقافة الإسلامية ، وذلك فى كتب كبيرة على شكل « موسوعات » أو « دوائر معارف إسلامية » . ومنها على سبيل المثال :

لسان العرب لابن منظور :

وهو معجم واسع المادة ، عظيم القدر ، جمع فيه مؤلفه بين كتب ستة وهى :

التهذيب للأزهرى ، والصحاح للجوهرى ، وحواشى ابن برى على هذا الأخير ، والمحكم لابن سيده ، والمخصص له أيضاً ، والنهاية لابن الأثير .

وبلغت مواد هذا المعجم اللغوى الكبير ثمانين ألف مادة ، وبذلك أصبح معجمه من أكبر المعاجم التى وصلت إلينا .

وأصبحت المادة التى تملأ صفحة واحدة فى القاموس المحيط تملأ أربع صفحات فى اللسان . ولذا بلغ هذا الكتاب عشرين جزءاً .

واستطرد ابن منظور فى شرح المادة اللغوية على عادة أصحاب الموسوعات فى زمانه . ومن ثم جاء كتابه فى الحقيقة كتاب لغة ونحو وصرف وفقه وأدب وأخبار وأحاديث وتفسير فى وقت معاً .

ثم من تلك الموسوعات على سبيل المثال أيضاً :

نهاية الأرب للنويرى :

وهو شهاب الدين النويرى . نسبة إلى نويرة إحدى قرى بنى سويف . ولد بها سنة ٦٧٧ هـ . ثم سافر إلى قوص وسمع من العلماء وكان ناظراً لديوان الجيش فى عهد السلطان محمد بن قلاوون . وألف كتابه (نهاية الأرب) فى ثلاثين جزءاً جعلها فى ستة فنون :

الأول — فى السماء والآثار العلوية
والثانى — فى الإنسان وما يتعلق به
والثالث — فى الحيوان الصامت
والرابع — فى النبات
والخامس — فى التاريخ
والسادس — فى نظم الحكومة

ثم من الموسوعات التى ظهرت فى عصر المماليك موسوعة بعنوان :

مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار:

وصاحبها ابن فضل الله العمرى . جعـــل موسوعته جغرافية فى أكثرها . وهى فى أربعة عشر جزءاً . وموضوعها « وصف الأرض وما اشتملت عليه براً وبحراً » . وهى قسمان :

أولهما — فى الأرض

وثانيهما — فى سكان هذه الأرض

والقسم الأول منهما نوعان .

أولهما — المسالك .

وثانيهما — الممالك .

ثم من تلك الموسوعات التى شهدها العصر المملوكى .

كتاب صبح الأعشى:

ومؤلفه القلقشندى نسبة إلى قلقشندة من أعمال قليوب بالديار المصرية . وهو من أهم الكتب التى تعرضت لصناعة الإنشاء . وقد رتبه مؤلفه على مقدمة وعشر مقالات وخاتمة .

فنى المقدمة ذكر فضل الكتابة والكتاب ، ووضح الفرق بين كاتب الإنشاء وكاتب المال ، وتكلم عن صفات الكتاب وآدابهم .

وفى المقالة الأولى تحدث فيما يحتاج إليه الكاتب من النحو والصرف والبديع والبيان .

وفى المقالة الثانية — تحدث عن ثقافة الكاتب الجغرافية والتاريخية

وفى المقالة الثالثة — تحدث عن الورق وأنواعه وما يناسب كل نوع منها من الأقلام .

وفى المقالة الرابعة — تحـــدث عن البلاغة فى اللفظ والمعنى وعن الشعر ونحو ذلك .

وفى المقالة الخامسة — تحدث عن الولايات كالخلافة والسلطنة وأرباب الوظائف الإدارية والدينية .

وفى الخاتمة ذكر أموراً تتعلق بديوان الانشاء كالبريد والحمام الزاجل ومراكب الثلج والمنارات .

ومات القلقشندى عام ٨٢١ هـ وعمره خمس وستون سنة .

العصر العثمانى عصر الشروح والحواشى

وفى العصر العثمانى طوت مصر صفحة التفوق فى الأدب وفى العلم — أوكادت تطوى هذه الصفحة العظيمة من حياتها . فقد عاش الدارسون فى هذا العصر العثمانى على ما ورثوه من كتب العصرين المملوكى والأيوبى . وحصروا همهم — كما قلنا — فى شرح هذه الكتب القديمة . ثم تلتهم طبقة أخرى ركزت جهودها فى شرح هذه الشروح التى وضعت لتيسير هذه الكتب القديمة . ثم جاءت طبقة ثالثة كتبت الحواشى والتقارير عن هذه الشروح وشروح الشروح وهكذا .

ولقد دعا ذلك عالماً من علماء العصر العثمانى — واسمه ساجقى زادة —

المتوفى سنة ١١٥٤ هـ إلى وضع كتاب عنوانه « ترتيب العلوم » قال فى مقدمته ما يلى :

« إنه نظراً لتكاثر الشروح وشرح الشروح والحواشي وحواشى الحواشى ، وتفرع العلوم وكثرتها أصبح أمرها عقبة فى طريق طلاب العلم . إذ يلتبس عليهم فهم القضايا ، لأنهم يقرأون الحاشية أو الشرح قبل المتن . فألفت هذا الكتاب لترتيب العلوم ، بحيث يعرف الأصل من الفرع ... الخ » .

معنى ذلك أن مجال البحث العلمى فى العصر العثمانى بقى محصوراً فى الحدود التى رسمها العلماء الذين عاشوا فى ذلك العصر . ونعنى بهذه الحدود الشروح وشروح الشروح وما إلى هذه المواد من الحواشى والتقارير ، أما التأليف العلمى البحت ، أو التصنيف البحت ، أو الإنشاء والابتكار البحت فلم يكن له وجود فى العصر العثمانى . لا نكاد نستثنى من هذه القاعدة غير طائفة يسيرة من العلماء يتحتم علينا هنا أن نضرب المثل بأحدهم وهو :

السيد مرتضى الزبيدى :

وبه نختم الكلام عن الحركة العلمية . وقد كان الزبيدى حسنة من حسنات العصر العثمانى. أو كان فلتة من فلتاته فى الحقيقة . والزبيدى هذا هو أبو الفيض محمد بن محمد بن عبد الرازق الشهير بمرتضى الحسينى الزبيدى.

ولد (بزبيد) فى اليمن سنة خمس وأربعين ومائة وألف . ونشأ بها . وارتحل فى طلب العلم . فوصل إلى مكة والطائف . ولقى فيهما العلماء والفضلاء والأمراء . وأكرمه هؤلاء جميعاً بدون استثناء .

ثم دخل مصر سنة سبع وستين ومائة وألف . وهو يومئذ فى الثانية والعشرين من عمره . وسكن حياً من أحياء القاهرة يقال له « حى الصاغة » .

وحضر فى مصر على شيوخ الوقت . ثم راج أمره ، وسار ذكره وعرف عند الخاص والعام . وسافر إلى الصعيد ثلاث مرات ، واجتمع هنالك بالأعيان والكبراء والعلماء والأدباء . ثم قام برحلة أخرى إلى الوجه البحرى . فمر بمدن دمياط ورشيد والمنصورة وغيرها . واستقبله الناس فى كل مدينة بمثل مااستقبل به فى مدن الصعيد . وكتب الزبيدى فى هذه الرحلات بعض محاضرات ومدائح قال عنها الجبرتى أنها لو جمعت فى كتاب لكانت مجلداً ضخما .

الزبيدى صاحب تاج العروس :

غير أن أعظم عمل قام به الزبيدى وخلد ذكره فى التاريخ هو شرحه القاموس المحيط للفيروزبادى فى أربعة عشر مجلداً أطلق عليها اسم (تاج العروس فى شرح القاموس) . ونحن نعلم أن القاموس المحيط هذا عبارة عن أربعة مجلدات فقط فإذا جاء كتاب (تاج العروس) فى أربعة عشر مجلدا فهو أشبه ما يكون بدائرة معارف فى اللغة تشبه من قريب (لسان العرب) لابن منظور .

ولما أكمل الزبيدى كتابه هذا أولم وليمة حافلة جمع فيها طلبة العلم وشيوخ الوقت . وكان ذلك سنة إحدى وثمانين ومائة وألف . ثم أطلعهم على كتابه ، فاغتبطوا به ، وشهدوا بفضله ورسوخه فى اللغة إلى

هذا الحد . وكتبوا عليه تقاريظهم نثراً ونظماً . ومنها قول أحدهم :

شرح الشريف المرتضى القاموسا وأضاف ما قد فاته قاموسا
فغدت صحاح الجوهرى وغيرها سحر المدائن حين ألقى موسى
فهو الفريد فلا يثنى جمعه إذ لا يحاك كمثله تدليسا
ولسان نظمى عاجز عن مدحه فالله ينثر نظمه تقديسا
ويديم مولاى الشريف لعصرنا فى كل قطر للهداة رئيسا

وممن نظموا فى (تاج العروس) والد الجبرتى نفسه وكان قد حضر الاحتفال الذى قرئت فيه هذه التقاريظ .

ولما أنشأ (محمد بك أبو الذهب) جامعه المعروف بالقرب من الأزهر عمل فيه خزانة كتب . واشترى جملة من الكتب وضعها بها . وأخبره العلماء بتاج العروس ، وعرفوه بقدره ، فطلبه من مؤلفه ، وعوضه عنه مائة ألف درهم فضة ، وجعله من كتب الخزانة .

كان المرتضى الزبيدى — فيما يقول الجبرتى — بحراً فى جميع الفنون التى عرفها عصره . وكان حجة فى علم الأنساب والأسانيد وتخريج الحديث . وألف كتباً ورسائل ومنظومات وأراجيز فى كل ذلك .

وانتقل الزبيدى إلى منزل بسويقة اللالىء تجاه جامع محرم افندى سنة ١١٨٩ هـ . وكانت تلك الخطة عامرة بالأكابر والأعيان . فأحدقوا به ، وتحببوا إليه ، وهادوه وهو يظهر لهم الغنى والتعفف . ويعظهم

ويفيدهم فوائد شتى . وكان يعرف اللغة التركية ، واللغة الفارسية وبعض لسان الكرج ، ثم شرع فى إملاء الحديث على طريقة السلف فى ذكر الأسانيد والرواية . ومن ذلك الوقت وهو يكثر من إعطاء الدروس وإقامة المجالس فى شتى المساجد . وكان يحضر لسماعه مئات العلماء والأمراء والطلبة وغيرهم . وأقبلت عليه الدنيا ، وملأها علماً ومعرفة .

تآليف أخرى للزبيدى :

قام الزبيدى بتأليف كتب أخرى — عدا كتاب تاج العروس — كان من أهمها كتاب له فى شرح (إحياء علوم الدين) للغزالى . وطار صيت هذا الكتاب الأخير حتى طلبه العلماء والفضلاء فى كل مكان . وكاد يبلغ فى شهرته كتاب تاج العروس .

ولم يكتف الزبيدى بهذين الكتابين السابقين حتى أضاف إليهما كتباً كثيرة أخرى من أهمها ما يلى :

١ — كتاب الجواهر المنيفة فى شرح أصول مذهب أبى حنيفة .

٢ — كتاب حكمة الاشراق إلى كتاب الآفاق .

٣ — كتاب شرح الصدر فى أسماء أهل بدر .

وهكذا استطاع هذا العالم اليمنى الأصل المصرى الاقامة ألا يجعل من العصر العثمانى عصراً خالياً من العلم . وإن كان علماً فى الإطار الذى وصفناه من قبل . وهو إطار الشروح ، وشرح الشروح ونحو ذلك .

ولكن مهما قيل فى هذه الشروح والحواشى فانها دلت عند بعض العلماء كالزبيدى والصبان (١) وغيرهما على علم غزير ، وحفظ كثير ، واستيعاب دقيق قل أن يكون له نظير فى العصر الحديث .

وماتت زوجة الزبيدى سنة ١١٩٦ هـ — فحزن عليها حزناً عظيما ، ونظم فى رثائها مقطوعات شعرية كثيرة . كلها رقيقة . ومنها قوله :

سأبكى عليها ماحييت وإن أمت
ستبكى عظامى والأضالع فى القبر
ولست بها مستبقياً فيض عبرة
ولا طالباً بالصبر عاقبة الصبر

ومن هذه المقطوعات :

خليلى ماللأنس أضحى مقطعاً
وما لفؤادى مايزال مروّعا
أمن غِيَرَ الدهر المُشتّ وحادث
ألمّ برحلى أم تذكرت مصرعا
والا فراق من اليفة مهجتى
زبيدة ذات الحسن والعقل أجمعاً

(١) هو أبو العرفان الشيخ محمد بن على الصبان أحصى له الجبرتى أكثر من عشرين شرحا وحاشية . كلها فى الفقه والنحو والتفسير والقراءات . وما زال طلبة الأزهر الى أيامنا هذه يحفظون طرفا منها . وخاصة حاشية فى النحو على ابن عقيل .

مضت فقضت عنى بها كل لذة
تقر بها عيناى فانقطعا معا
فمن مبلغ عنى بمكة أننى
بكيت فلم أترك لعينى مدمعاً .

ومن هذه المقطوعات :

أعاذل من يرزأ كرزئى لم يزل
كئيبا ويزهد بعده فى العواقب
أصابت يد البين المشت شمائلى
وحاقت نظامى عاديات النوائب
فتاة الندى والجود والعلم والحيا
ولا يكشف الأخلاق غير التجارب

الفصل الثالث

الحيــاة الروحية

نقصد بالحياة الروحية لأمة من الأمم نوع العقيدة المذهبية التى تختارها هذه الأمة فى فترة من فترات تاريخها ، وما يمكن أن تتركه عقيدتها المذهبية من أثر فى الحياتين العامة والخاصة . ونحن نعرف أن الفواطم كانوا شيعة ، وأن بنى أيوب والمماليك والعثمانيين كانوا سنة ، وأن الفرق عظيم بين المذهبين ، وقد زاد من سعة هذا الفرق بينهما غلو الفاطميين فى عقائدهم التى منها القول (بالعلم الباطن) ومنها القول (بعصمة الأئمة) ونحو ذلك من الأقوال . أما السنة فمذهبهم بسيط ومعروف ، وهو أدنى . فى الواقع إلى الدين الصحيح على الصورة التى أوحى بها إلى صاحب الشريعة محمد صلوات الله عليه وسلامه .

على أن هذه العقيدة الساذجة التى أوصى بها صاحب الرسالة تعرضت لألوان من التغيير والتبديل بعدت به هذه العقيدة نفسها عن سذاجتها الأولى ، ودخلت عليها الفلسفة من كل باب ، فعقدتها وجعلت منها شيئاً غريباً كل الغرابة على العقل السنى .

ونقرأ تاريخ مصر السياسى والاقتصادى من القرن السادس إلى القرن العاشر . فإذا مصر مجهدة من الحروب الصليبية التى أفقدتها كثيراً من

المال والرجال» وردتها إلى لون من الحياة فيه شعور بالفقر، وإن كان فيه شعور بالكرامة والفخر . ولقد ضاعف شعور المصريين بالفاقة يومئذ مامنيت به بلادهم من المجاعات الشديدة التى أشرنا إلى شىء منها . ومن شأن هذه الحالة الاقتصادية وأمثالها أن تخلق فى الناس خشوعاً فى حياتهم، واستعداداً للخضوع لدينهم ، وأملافى نعيم الآخرة بدلا من نعيم الآجلة .

فى هذه الأجواء الشعورية التى تشير إليها قوى ميل المصريين إلى (التصوف) . وشجعهم الولاة والحكام على هذا الميل . ووجدوا فى تشجيعهم عليه تقرباً إلى الله تعالى من جهة، وتقوية للروح المعنوى الذى لابد منه فى محاربة المسلمين لأعدائهم من الصليبيين والمغول من جهة أخرى .

ولقد قيل فى التصوف أنه محاولة الوصول إلى الذات الإلهية بطريق القلب لا العقل . والمتصوفة يطلقون على هذا الطريق اسم «سفر» وعلى المسافر اسم «سالك» وعلى المراحل التى يمر بها «مقامات» وهى عندهم سبع مراحل تلى بعضها بعضاً ، منها التوبة ، فالورع ، فالزهد فالفقر «بحيث لاتملك شيئاً ولا يملكك شىء» الخ .

ومصدر التصوف عند الباحثين هو ثورة الضمير لما يصيب الناس من مظالم لاتقتصر غالباً على مايصدر عن الآخرين، وإنما تنصب أولا على ظلم الإنسان نفسه . وتقترن هذه الثورة برغبة فى الوصول إلى الله عن طريق تصفية القلب من كل شاغل مادى فى هذه الحياة الدنيا .

الخانقاه فى مصر

وكما اشتهرت الدولتان الأيوبية والمملوكية ببناء المدارس لتعليم الفقه والحديث ، ولإذكاء الحماسة الدينية اللازمة للحروب ، فكذلك اشتهرت هاتان الدولتان ببناء أماكن للعبادة يقضى فيها المتصوفة كل أوقاتهم وتنفق الدولة عليهم فى أثناء إقامتهم بهذه الأماكن ، واسمها « الخوانق » جمع خانقاه .

وكان من عمل الخانقاه إيواء الغرباء من المسلمين ، والسماح لهم ولأسرهم بالإقامة فيها . أما الصلاة فإنهم يؤدونها فى قاعة عامة تسمى « بيت الجماعة » . أما صلاة الجمعة بنوع خاص فانها لا تقام بالخوانق . ومن ثم كان على المتصوفة أن يغادروها فى كل جمعة إلى أحد مساجد المدينة . وكان لخروجهم يوم الجمعة مشهد رائع يغرى الناس جميعاً بالنظر اليهم ، والتبرك بهم فى طريقهم إلى المسجد .

قلنا إنه كان لهذه الخوانق جزء خاص من ميزانية الدولة ، وإن الدولة رأت فى هذا العمل تقرباً من الله وزلفى . وكانت لا تسمح لنفسها بأن تأخذ من مال الخانقاه شيئاً ولو لمصلحة أخرى من المصالح العليا . لذلك أثر عن نور الدين محمود ملك دمشق أن أصحابه قالوا له يوماً : إن لك فى بلادك إدارات كثيرة للفقهاء والفقراء والصوفية . فلو استعنت الآن بها لكان أمثل . فغضب نور الدين وقال : والله إنى لا أرجو النصر إلا بأولئك . فانما ترزقون وتنصرون بضعفائكم . كيف أقطع صلات

قوم يقاتلون عنى وأنا نائم فى فراشى بسهام لاتخطىء وأصرفها إلى من لا يقاتل عنى إلا إذا رآنى بسهام قد تخطىء وقد تصيب ؟

وبهذا المبدأ عمل صلاح الدين أسوة بأستاذه نور الدين . وجرى العمل على ذلك فى جميع العصور التى نؤرخ لها حتى مجيء الحملة الفرنسية .

والثابت فى التاريخ أن صلاح الدين أول من أحدث الخوانق بمصر . فبنى خانقاه « سعيد السعداء » وبنى سلاطين المماليك من بعده جملة من هذه الخوانق . ومنها :

الخانقاه البيبرسية :

بناها الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير سنة ٧٠٩هـ. يقول المقريزى وهى أجمل خانقاه بالقاهرة بنياناً وأوسعها مقداراً ، وأتقنها صنعة . والشباك الكبير الذى بها هو شباك دار الخلافة ببغداد وكانت الخلفاء تجلس فيه .

خانقاه سرياقوس :

بناها الملك الناصر محمد ابن قلاوون وكانت فى أيامه من أجمل ضواحى القاهرة . وقيل فى سبب إنشائها إن الناصر ركب كعادته للصيد ، وبينما هو فى الطريق إذ انتابه ألم شديد كاد يقضى عليه . ثم نزل عن فرسه ، ولكن الألم تزايد عليه فنذر إن عافاه الله أن يبنى فى هذا الموضع مكاناً يتعبد فيه الناس لله تعالى .

خانقاه قوصون :

بنيت سنة ٧٣٦ هـ . وأول من ولى مشيختها هو الإمام شمس الدين محمود الأصفهانى المشهور بتصانيفه الكثيرة .

خانقاه شيخو :

بناها الأمير شيخو سنة ٧٥٧ هـ . ورتب فيها أربعة دروس على المذاهب الأربعة ، ثم درساً للحديث ، ودرساً للقراءات . وشرط الأمير فى شيخ الخانقاه أن يكون عارفاً بالتفسير والأصول وألا يكون قاضياً . وجعل هذا الشرط عاماً فى جميع أرباب الوظائف بالخانقاه . والسبب فى ذلك أن أتقياء المسلمين كانوا يتحرجون من وظائف القضاء ويتنافسون على وظائف التعليم .

المتصوفة فى مصر

إن الناظر فى أحوال المتصوفة الذين ظهروا بمصر فى العصور التى نؤرخ لها يستطيع أن يميز فيهم بين طبقات ثلاث :

الأولى : — طبقة المتصوفة الفلاسفة . وعمر بن الفارض مثال واضح لرجال هذه الطبقة . ولذا سنتحدث عنه فى فصل من فصول الكتاب عنوانه « الشعر الصوفى » .

الثانية : — طبقة المتصوفة الفقهاء . وهم على جانب عظيم من العلم ومن الهيبة فى نفوس الخاصة والعامة . ومن الأمثلة على هذه الطبقة السيد عبد الرحيم القنائى (نسبة إلى قنا) وتلميذه أبو الحسن الصباغ .

والثالثة : — طبقة المتصوفة الدراويش . وحظ هذه الطبقة من العلم قليل ومن الفلسفة الدينية أقل . بل إن الفرق بين الدراويش ورجال الطبقة الأولى يأتى من أن التصوف يعتبر عند رجال الطبقة الأولى نزعة فلسفية . ويعتبر عند رجال الطبقة الثالثه دروشة أو عبادة عملية .

والمعروف أن لكل فرقة من فرق الدراويش طريقة خاصة بها . غير أن هذه الطرق تعددت حتى أحصى الباحثون منها ستاً وثلاثين طريقة . منها الطريقة الرفاعية ، والطريقة القادرية ، والطريقة البكتاشية ، والطريقة السنوسية ، وهكذا .

ورجال هذه الطبقة من الدراويش ينظرون إلى علوم الشريعة على أنها قشور ، وإلى طريقتهم على أنها اللباب . وذلك فضلا عن أنهم يؤمنون بالأولياء ، وبكرامات الأولياء ، وبخوارق العادات وببعض الخرافات . والعبادة عندهم أذكار يقومون بها ويؤدونها بنظام خاص . ومن أوضح الأمثلة على الدراويش فى مصر :

السيد أحمد البدوى (٥٩٦ هـ — ٦٧٥ هـ) :

وفد على مصر من بلاد المغرب . وحدث له فى الثلاثين من عمره ماقيل إنه غير مجرى حياته رأساً على عقب . ذلك أنه قرأ القرآن ، ودرس شيئاً من الفقه الشافعى . ثم عكف على العبادة واعتزل الناس وعاش فى صمت وامتنع عن الزواج . وفى عام ٦٣٤ هـ رأى رؤيا فى المنام أوحت إليه السفر إلى مصر . واختار لنفسه مدينة طنطا وبقى بهذه المدينة إحدى وأربعين سنة . ومات بها فى الثامن عشر من

شهر ربيع الأول . والغريب أن هذا هو نفس التاريخ الذى مات فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم .

على أن حياة السيد أحمد البدوي فى مصر كانت كلها مثاراً للعجب والدهشة من نواح شتى : منها أن الرجل كان يصعد إلى السطح كل يوم ، ويتجه ببصره إلى الشمس ويحدق فيها مدة طويلة حتى تحمر عيناه وتصبح كل واحدة منهما كالجمرة المشتعلة . ومنها أنه كان يمسك عن الطعام والشراب أربعين يوماً متوالية . وكان السيد أحمد البدوى يلبس ثوباً من الصوف الأحمر لا يبدله بثوب آخر حتى يبلى . وكان يضع على رأسه عمامة حمراء لا يغيرها حتى تبلى هى الأخرى .

وامتد سلطان هذا الدرويش فى مصر حتى عمها من أولها إلى آخرها . وزاد فى إيمان الناس به إذ ذاك طائفة من الكرامات يطول شرحها . ومن ثم فتنت العامة به فتنة عظيمة حتى إنه لو جمعهم على الخروج على ولى الأمر لفعلوا .

وتوارث الناس تقديس هذا الدرويش حتى كان عهدهم بدرويش آخر ظهر فى العصر العثمانى وهو :

الشعرانى . (المتوفى سنة ٩٧٣ هـ) .

وبالغ الناس فى احترام هذا الدرويش الأخير إلى درجة لا يقبلها العقل السليم ، وقد لا تتفق وكرامة علماء الدين . وشغل الشعرانى نفسه مدة كبيرة بالكتابة عن السيد أحمد البدوى وفضائله وتعريف الأجيال اللاحقة به .

ولد الشعرانى بقرية من قرى المنوفية . وعاش بمدينة الفسطاط حياته الصوفية . وأصبح له شأن عظيم حسده عليه معاصروه . وانتصر له جماعة من الوجهاء وذوى النفوذ . وأنشأ لنفسه مدرسة توافد عليها الطلاب من كل صوب . وكثر مريدوه كثرة عظيمة . وكتب فى شرح طريقته أكثر من خمسين كتابا أهمها وأعظمها كتابه المسمى « اليواقيت والجواهر فى بيان عقائد الأكابر » .

* * *

على أن كل طريقة من الطرق التى أشرنا إليها كانت صالحة فى وقتها . وعلى الأخص فى بداية ظهورها . ولكنها لاتلبث بعد ذلك أن تتعرض للفساد والعطن . وبنوع خاص بعد أن يمضى عليها وعلى زعمائها من الوقت ما يسمح للخالف بعد السلف بالانحراف عن الطريق السوى ، وبالعبث بعقول العامة . وذلك ما قد حدث للأسف بالطبقة الثالثة من طبقات المتصوفة ، وهى طبقة الدراويش التى قلنا إن حظها من العلم قليل ومن التفكير أقل .

أتى على هؤلاء الدراويش حين من الدهر تركوا فيه تعاليم الدين وابتدعوا لأنفسهم طريقة جديدة خالية من التقيد بقيد من قيود الدين . حتى أصبحت هذه الطريقة الجديدة عبارة عن أذكار يجتمع لها العامة يرقصون ويطربون ويأكلون ويشربون ويضيقون فى الوقت نفسه باقامة شعيرة واحدة من شعائر الدين ، لا لشىء إلا لأنهم أصبحوا يفهمون هذا الدين فهما غريبا لا يتصل بمذهب من المذاهب المعروفة

فى الإسلام من قريب أو بعيد . لقد كان التصوف بطرائقه المعروفة سبيلا إلى تقويم النفوس ،وتصفية القلوب ، وتغذية الأرواح ، وتنوير الأذهان ، والسمو بالفرد والجماعة إلى أرقى مراتب الإنسان . فأصبح التصوف أو الدروشة فى العصور المتأخرة على النقيض من ذلك طريقا إلى الفساد والانحراف ، وبابا تدخل منه جميع البدع والخرافات .

وهكذا وجدنا التصوف فى مصر يضمحل منذ أوائل القرن التاسع الهجرى ، أو قبله بقليل . واستشرى الفساد فى أواخر ذلك القرن وأوائل القرن العاشر . واقترن ذلك باضمحلال دولة المماليك وبداية عصر العثمانيين حتى كان كبار المتصوفة فى ذلك الحين لا يقيمون الصلاة بدعوى أنهم إنما يقيمونها فى الأماكن المقدسة من حيث لا يراهم الناس . !

الكِتَابُ الثَّانِي

فِي فَنِّ الشِّعر

الفصل الأول

دواعي النهضة الأدبية في مصر

مر الأدب المصرى بأزهى عصوره أيام الحكم الفاطمى ، وهو الحكم الذى قضى عليه السلطان صلاح الدين الأيوبى . وكان لازدهار الأدب الفاطمى أسباب كثيرة من أهمها تشجيع الخلفاء المصريين ووزرائهم الأدب والأدباء بالمال فى وقت عجزت فيه الخلافة العباسية بعد أن شاخت كل العجز عن شىء من ذلك .

ومن تلك الأسباب الأعياد التى كان يعنى بها الفاطميون سواء منها الأعياد الإسلامية والأعياد المسيحية . وقد زادت هذه الأعياد فى مباهج الشعب المصرى وأشعرته بكرم الخلافة الفاطمية .

ومنها — أى من تلك الأسباب — الدعوة الدينية التى أتت بها الدولة الفاطمية . فكما اعتمدت هذه الدولة فى تثبيت قواعدها على العلم ، فكذلك اعتمدت على تشجيع الشعراء والكتاب وأصحاب الأقلام وأرباب الألسن .

فلما كانت الدولة الأيوبية فدولة المماليك وجدنا لازدهار الأدب المصرى أسباباً شبيهة فى جملتها بالأسباب السابقة . ومنها :

أولا — التحمس الدينى الذى اقترن بالحروب الصليبية ، ومن

أجله مما لون قوى من ألوان الشعر العربى هو الشعر السياسى أو شعر القومية الإسلامية .

ثانيا — التشجيع الذى لقيه الأدب والعلم من ملوك بنى أيوب وسلاطين المماليك ، واشتراك الكثيرين من أمراء الدولتين فى الحركتين الأدبية والعلمية ، وتنافسهم فى تشجيع الأدباء والعلماء وحثهم جميعا على العمل بشتى الوسائل .

وسنعرض لشعر الحماسة فى فصل مستقل باسم الشعر السياسى . وسنرى فيه كيفساير الشعر المصرى جميع الأحداث التى وقعت فى داخل مصر وخارجها .

أما الآن فنريد أن نذكر بعض مظاهر التشجيع الذى لقيه الأدب على أيدى سلاطين الدولتين الأيوبية والمملوكية . ونكتفى بأمثلة قليلة من ذلك .

والذى نراه أن أول ما شجع الأدب فى مصر تلك الميول الأدبية الواضحة التى بدت من جانب الملوك الأيوبية . وبنوع خاص من جانب المؤسس الأول لهذه الدولة وهو السلطان صلاح الدين الأيوبى .

ذكر التاريخ عن هذا الرجل العظيم « أنه كان يميل إلى الفضائل ويستحسن الأشعار الجيدة ، ويكثر من ترديدها فى مجالسة . ومن ذلك أنه كان كثيرا ما ينشد قول أبى المنصور محمد بن الحسن الحميرى :

وزارنى طيف من أهوى على حذر

من الوشــــاة ونور الصبح قد هتفا

فكدت أوقظ من حولى به فرحا
وكاد يهتك ستر الحب بى شغفا
ثم انتبهت وآمالى تخيل لى
نَيْلَ المنى فاستحالت غبطتى أسفا

وكان يعجبه قول الشاعر المعروف بابن المنجم وهو :

وما خضب الناس البياض لقبحه
وأقبح منه حين يظهر ناصله
ولكنه مات الشباب فسودت
على الرسم من حزن عليه منازله

فكان إذا قال « ولكنه مات الشباب » يمسك بكريمته (يريد لحيته) وينظر إليها ويقول : أى والله مات الشباب !

بل إن صلاح الدين كان له فوق حبه للشعر ورغبته فى حفظه قدرة كذلك على تذوقه ونقده . قيل إن العماد الأصفهانى عرض عليه يوما ما بضع أبيات فى وصف المشمش منها قوله :

بدت بين أوراق الغصون كأنها
كرات نضار فى لجين مطرق

فقال له السلطان : تشبيه الورق باللجين غير موفق ؛ لأن الورق نفسه أخضر . قال العماد : كرات نضار بالزمرد محدق . فقال لا بأس .

وعلى هذا النحو كنت تجد فى كل بيئة من البيئات العربية التابعة

للدولة الأيوبية أو الدولة المملوكية أميرا ذا نزعة أدبية أو علمية واضحة كل الوضوح . وحول هذا الأمير كنت تجد جوا علميا أدبيا ينشط فيه العلماء والشعراء والكتاب والوعاظ والفقهاء . وكان الأمير نفسه كثيرا ما يشارك مشاركة قوية فى هذا النشاط ويجعل له نصيبا كبيرا منه :

فهذه (حلب) كانت فى يد الملك الظاهر بن السلطان الملك الناصر صلاح الدين . ثم فى أيدى أولاد الظاهر من بعده . وكان الشعراء والعلماء ملتفين حول كل ملك منهم ـ وهم ثلاثة فى العصر الأيوبى خاصة .

أولهم — الظاهر غازى الملقب غياث الدين .

وثانيهم — العزيز محمد بن الظاهر غازى .

وثالثهم — الناصر يوسف بن العزيز .

فعن الملك الظاهر غياث الدين يقول المؤرخون « إنه كان مهيبا ذا سياسة وفطنة ، ودولة معمورة بالفضلاء والعلماء والأكابر . وكان فى دولته من أرباب العلم القاضى بهاء الدين بن شداد » .

وكان الظاهر نفسه شاعرا ومن شعره :

ولما التقينا بعد بُعد تحدرت
دموعى إلى أن كدت بالدمع أغرق
فقلت لها يا عين هذا لقاؤنا
فقالت ألسنا بعده نتفرق ؟

وهذه (دمشق) كانت فى يد الملك العادل أخى السلطان صلاح الدين ـ ثم فى أيدى أبناء العادل من بعده وأولهم الملك المعظم عيسى . وكان هذا

الأخير نحويا لغويا فقيها شاعرا فى وقت معا . وكان حنفى المذهب . وبذلك انفرد من بين ملوك بنى أيوب الذين كانوا جميعا على مذهب الشافعى .

وقد أمر الفقهاء بأن يجردوا له مذهب أبى حنيفة دون المذاهب الأخرى المعروفة . فجردوه له فى عشر مجلدات وسموه « التذكرة » فكان هذا الكتاب لا يفارقه سفراً ولا حضراً . وسأله بعض الأئمة فى ذلك وقال له : إن أكبر مدرس فى الشام لا يمكنه أن يحفظ أكثر من كتاب القدورى فى الفقه وأنت مع شغلك بالملك تحفظ عشر مجلدات . وأنا أخشى أن يأخذ الناس عليك ذلك ويستبعدوه منك . فقال عيسى : ليس الاعتناء بالألفاظ . إنما الاعتناء بالمعانى . ولك أن تسألنى عن جميع ما فى هذه المجلدات من المسائل ، فإن قصرت كان الصواب لكم . وإلا فسلموا لى .

واشتهر المعظم فوق هذا بالشعر . وكان يصدر فيه عن طبيعة سهلة ، لا تكلف فيها . وعرف المعظم بهذه السهولة حتى كان الإنسان فى زمانه إذا فعل فعلا لا تكلف فيه قيل (إنه كان يفعل فعلا معظميا) !

ثم هذه (حماه) كانت فى يد المظفر عمر بن شاهنشاه ـ وهو ابن أخى السلطان صلاح الدين ـ ثم آلت إلى ولده المنصور محمد . وكان المنصور هذا شجاعا عالما يحب العلماء . وكان فى خدمته أكثر من مائتى معمم . ووضع كتبا منها كتاب « طبقات الشعراء » وكان ينظم الشعر الجيد .

وهذه (بعلبك) كانت فى يد فروخشاه ، ثم فى يد ابنه إبراهيم من بعده . وكان إبراهيم هذا أديبا فاضلا شاعرا محسنا . ويقال إنه أشعر بنى أيوب ، وله ديوان شعر !

وندع بجميع هذه البيئات ونأتى إلى (مصر) . فنجد فيها السلطان صلاح الدين مؤسس هذه الدولة . ثم ولده الأفضل وكان شاعرا له فضله فى الشعر . وكان فى صحبته الوزير الجزرى المعروف ضياء الدين بن الأثير صاحب كتاب (المثل السائر) .

ثم غلب على حكم مصر (الملك العادل) عم الأفضل . وكان محبا للشعراء ومن أشهر شعرائه (ابن عنين) . وخلف العادل فى حكم مصر ولده (الملك الكامل) ـ وقد حكم مصر كما قلنا زهاء أربعين سنة ـ قضاها فى تشجيع العلم والأدب . ورويت عنه فى ذلك أخبار أعادت إلى الأذهان أخبار الرشيد والمأمون وغيرهما من خلفاء بنى العباس . « وكانت تبيت عنده بالقلعة فى كل ليلة جماعة من أهل العلم ، فينصب لهم أسرة ينامون عليها بجانب سريره ليسامروه . فنفقت العلوم والآداب عنده . وقصده أرباب الفضائل » .

ونوادر الملك الكامل الأدبية أكثر من أن تحصى ، منها ـ على سبيل المثال ـ أن الكامل كان فى ليلة من الليالى جالسا فدخل عليه شاعر من الشعراء اسمه (مظفر) فقال له الكامل : اجز يامظفر : قد بلغ الشوق منتهاه .

قال مظفر :

وما درى العاذلون ما هو

فقال الكامل :

ولى حبيب رأى هوانى

فقال مظفر :

وما تغيرت عن هواه

فقال الكامل :

رياضة النفس فى احتمال

فقال مظفر :

وروضة الحسن من حلاه

فقال الكامل :

أسمر لدن القوام ألمى

فقال مظفر :

يعشقه كل من يراه

فقال الكامل :

وريقه كله مدام

فقال مظفر :

ختامها المسك من لماه

فقال الكامل :

ليلته كلها رقاد

فقال مظفر :

وليلتى كلها انتباه

فقال الكامل :

وما يرى أن أكون عبدا

فقام مظفر على قدميه وقال :

بالملك الكامل احتماه

العالم العامل الذى   فى كل صلاتنا نراه[1]

ليث وغيث وبدر تمٌّ   ومنصب جل مرتقاه

***

وما دمنا بصدد الكلام عن الميول الأدبية التى بدت من بعض ملوك الأيوبية ، فلا غنى لنا كذلك عن الإشادة بذكر واحد منهم هو (تاج الملوك بورى) وهو الأخ الأصغر للسلطان صلاح الدين الأيوبى . وقد وصفه ابن خلكان بالفصاحة والشعر ، وذكر أن له ديوانا ومنه قوله :

آه من ورد على خديك بالمسك منقط

بين أجفانك سلطان على ضعفى مسلط

قد تصبرت وإن برح بى الشوق وأفرط

فلعل الدهر يوما بالتلاقى منك يغلط !

ومن شعره يهتف بحب مصر :

شربت من الفرات ونيل مصر

أحب إلى من ماء الفرات

(١) هكذا جاء بالأصل والوزن فى رأينا غير مستقم (المؤلف)

ولى فى مصر من أصبو إليه
ومن فى قربه أبداً حياتى
فقلت وقد ذكرت زمان وصل
تمادى بعده روح الحياة
أرى ما أشتهيه يفر منى
وما لا أشتهيه إلى يأتى !

* * *

هذه أمثلة قليلة من حب السلاطين والملوك والأمراء للأدب والأدباء . وعلى نهجها سار الكثيرون من القادة والوزراء والعظماء فى الدولتين الأيوبية والمملوكية . حتى لكأن الأدب أصبح سمة من سمات العظيم فى تلك العصور ، أو كأنه المتعة الفنية الوحيدة التى كان الناس يستروحون بها من عناء الحياة فى عصور لم تعرف من الحياة إلا معانى الحرب والقتال ، وفكرة الجهاد فى سبيل الله بطريقة أو بأخرى .

أما التحامق أو المجون فكان قليل الظهور فى تلك العصور التى خيم عليها كابوس الحرب الصليبية ، فضلا عن شرور أشد منها كالأوبئة والمجاعات وغيرها من المحن الأخرى .

الفصل الثانى

الشعر السياسى

أخذت الدولة الفاطمية فى الضعف فى الوقت الذى كانت فيه دولة ناشئة بالشام — هى دولة الأتابكة الذين منهم نور الدين محمود — تزداد قوتها شيئاً فشيئا . وكانت الإمارات اللاتينية التى أقامها الصليبيون فى الشرق تحيط بدولة نور الدين ، وتهدد سلامة هذه الدولة الفتية التى ملأت الغيرة الدينية قلوب حكامها ، وأشعلت الحماسة نفوسهم ، فباتوا ولا أمل لهم فى حياتهم إلا التخلص من الصليبيين ، وطردهم نهائياً من ساحل البحر الأبيض المتوسط .

كل ذلك والوزراء المصريون فى الدولة الفاطميـة يخاصم بعضهم بعضاً فى سبيل النفوذ والسلطان ، ويستعين بعضهم على بعض بنور الدين محمود تارة وبالصليبيين المجاورين له مرة أخرى . وكأن أولئك الوزراء المصريين لم يجدوا من العار لهم ولشرفهم ولدينهم أن يستعينوا فى سبيل أغراضهم الشخصية بالفرنج الذين عبروا إليهم البحر وأخذوا منهم القدس !

ذلك كله ما يظهر بجلاء من سيرة رجل من أولئك الوزراء لا يذكر إلا ويذكر معه سقوط الدولة الفاطمية . وهذا الوزير المصرى هو

(شاور) . وقد لعب هذا الرجل على مسرح السياسة المصرية دوراً فى منتهى الخطورة . وكان فى هذا كاللاعب بالنار أو الرجل الذى يمسك بيده سيفاً ذا حدين ولابد أن يصيب أحد هذين الحدين منه مقتلا فى يوم ما .

وذلك ما قد حدث بالفعل . فقد دعا هذا الوزير كلا من الفرنج ونور الدين محمود للتدخل العاجل فى شئون مصر . وكان كل منهما على أحر من الجمر فى انتظار هـــذا الأمر حتى يسرع بالهجوم على مصر — فى الظاهر — بحجة الدفاع عن شاور . وفى الحقيقة والباطن بحجة امتلاك هذه البلاد الغنية ذات الموقع الممتاز من الناحية الحربية .

وقد شاءت الأقدار المواتية لنورالدين محمود أن تكتب له التوفيق فى هذا التدخل المنشود . وانتهى الأمر بالقائد الذى أرسله إلى مصر وهو أسد الدين شيركوه أن ظفر هذا القائد لمصر بالوزارة المصرية من يد الخليفة العاضد . وكان نور الدين محمود قد بعث بهذا القائد الجرىء فى حملات حربية متعاقبة على مصر . وكان بصحبته ابن أخيه يوسف صلاح الدين فى كل مرة .

وشاع نبأ الوزارة الأسدية ، وكان له صدى كبير فى دمشق وغيرها من المراكز الإسلامية ، فقد طرب الناس لهذه الأنباء طربا يفوق الوصف . وابتسم الدهر يومئذ لنور الدين محمود عن هذين الأملين الكبيرين وهما :

زوال الدولة الفاطمية ، وطـــرد الصليبيين جملة من الأراضى الإسلامية .

وتأثر الشعر تأثراً بعيد المدى بهـــذه الحادثة . ومن ذلك ما بعث به الشاعر الـكاتب عمـــاد الدين الأصفهانى — كاتب نور الدين محمود إلى أسـد الدين شيركوه بمصر يهنئه بالوزارة وهو قوله :

بالجد أدركت ما أدركت لا اللعب
كم راحـة جنيت من دوحـة التعب
فتحت مصر وأرجو أن تصير بها
ميسرا فتحَ بيت القدس عن كَثَبَ
أنت الذى هو فرد فى بسالته
والدين من عزمه فى جحفل لجب
من شر شاور أنقذت البلاد فكم
وكم قضيت لحزب الله من أرب
هو الذى أطمع الإفرنج فى بلد
الإسلام حتى سعوا للقصد والطلب
وإن ذلك عنـــد الله محتسب
فى الحشر من أفضل الطاعات والقرب
وما غضبت لدين الله منتقما
إلا لنيـــل رضى الرحمن بالغضب

وفى نهاية هذه القصيدة يتعجل العماد الأصفهانى الحوادث ، ويحرض أسد الدين شيركوه على الوثوب على الخلافة الفاطمية ، وأماتتها فى أسرع وقت ممكن . وذلك حيث يقول :

رد الخلافة عباسية ودع الد
عيّ فيها يصادف شر منقلب
لا تقطعن ذنب الأفعى وترسلها
فالحزم عندى قطع الرأس والذنب

والحق لقد كان فى نية أسد الدين شيركوه أن يفعل ذلك لولا أن عاجله القدر المحتوم ، فلم تدم وزارته أكثر من شهرين ، حتى مات وخلفه فى الوزارة المصرية ابن أخيه صلاح الدين الأيوبى . ومنذ وزر صلاح الدين للخليفة العاضد اتخذ لنفسه كاتباً واسع العلم ذكى الفؤاد هو عبد الرحيم بن على البيسانى المعروف فى التاريخ باسم (القاضى الفاضل). ففكر الرجلان معاً فى إبطال الخطبة الفاطمية لتحل محلها الخطبة لبنى العباس . وكتب لهما النجاح فى ذلك . ثم سرعان ما كتب القاضى الفاضل (بشارة) إلى نور الدين محمود . ونظم العماد الأصفهانى شعراً فى ذلك له منه قوله :

قد خطبنا للمستضىء بمصر
نائب المصطفى إمام العصر
وأشعنا بها شعار بنى العب
اس فاستبشرت وجوه النصر

وتركنا الدعى يدعو ثبورا
وهو بالذل تحت حجر وحصر
وتباهت منابر الدين بالخطـ
ـبة للهاشمى فى أرض مصر
واغتدى الدين ثابت الركن فى مصـ
ـر محوط الحمى مصون الثغر
عرف الحق أهل مصر وكانوا
قبله بين منكر ومقر
ما يقام الإمام إلا بحق
ما تحاز الحسناء إلا بمهر
خلفاء الهدى سَرَاة بنى العبـ
ـاس والطيبون أهل الطهر
بهم الدين ظاهر مستقيم
ظاهر قوةً قوىُّ الظهر
دام نـ ـر الهدى بملك بنى العبـ
ـاس حتى يقوم يوم الحشر

وهكذا انتهت أيام الدولة الفاطمية . غير أن زوالها ترك فى نفوس المصريين والمنتفعين بها أسفاً وحسرة . (ولعُمارة اليمنى) لامية فى رثاء الدولة الفاطمية لا نكاد نعرف فى رثاء الدول أشد منها وقعاً ، ولا أبلغ لفظاً ومعنى . ومنها :

رميت يا دهر كف المجد بالشلل
وجيده بعد حسن الحلى بالعطـــل
جـدعت مارنك الأقنى فأنفك لا
ينفك ما بين قرع السن والخجـل
لهفى ولهف بنى الآمال قاطبـــة
على لجيعتها فى أكرم الدول
يا عاذلى فى هوى أبناء فاطمـة
لك الملامة إن قصرت فى عذلى
بالله زر ساحة القصرين وابك معى
عليهما لا على صفـــين والجمل
وقل لأهليهما والله ما التحمت
فيكم قروحى ولا جرحى بمندمل

* * *

مررت بالقصر والأركان خاليـــة
من الوفود، وكانت قبـــلة القبل
فملت عنها بوجهى خوف منتقـد
من الأعادى ووجـه الود لم يمل
والله ما فاز يوم الحشر مبغضكم
ولا نجـا من عذاب الله غيرُ ولى
ولا رأى جنة الله التى خلقت
من خان عهد الإمام العاضد بن على

أئمتى وهداتى والذخــيرة لى
إذا ارتهنت بما قدمت من عملى
والله ما زُلتُ عن حبي لهم أبداً
ما أخر الله لى من مدة الأجــل

* * *

ولم يكد الأمر يتم لصلاح الدين فى مصر حتى فكر جدياً فى الطريقة التى يتغلب بها على الفرنج المنبثين فى الشرق . ولـكن يظهر أن الوقت لم يكن قد حان بعد للقيام بهذا العمل . فقد كان على صلاح الدين أن يبدأ بتوحيد البلاد الإسلامية المحيطة بالصليبيين ، ومنها بلاد الشام التى مات عنها نور الدين محمود، وتركها لغلام صغير التف حوله طائفة من الأمراء الطامعين كانوا قد أوقعوا بينه وبين صلاح الدين . ولـكن السلطـان صلاح الدين ما زال بهؤلاء الأمراء الطامعين حتى عزم على قصـدهم والتخلص منهم فى نهاية الأمر . فلما علموا بذلك فروا من وجهـه ، وتركوا له دمشق فدخلها بغير عناء ، ثم عاد إلى مصر ، فاستقبله الشعراء ومنهم شاعر أتى من الموصل لهذه الغاية . وهذا الشاعر هو (الحسن بن سعيد الشاتانى) . أنشد السلطان أبياتاً منها :

غدا النصر معقودا برايتك الصفرا
فقم واملك الدنيا فأنت بهـا أحرى
يمينك فيها اليمن واليسر فى اليسرى
فبشرى لمن يرجو الندى، منهما بشرى

ومن أولئك الشعراء العماد الأصفهانى . وكان قد انتقل من خدمة نور الدين إلى خدمة صلاح الدين . فكان لا يمضى عليه يوم إلا نظم فيه شعراً أو كتب نثراً . ومما قاله يومئذ يمدح السلطان ، ويحثه على مواصلة الجهاد .

فديتك من ظالم منصف ... وناهيك من باخل مسرف
أيُبْلِغُ دهرىَ قصدى وقد ... قصدت بمصر ذرى يوسف
ويوسف مصر بغير التقى ... وبذل الصنائع لم يوصف
فسرْ وافتح القدس واسفك به ... دماء متى تجرها ينظف
وأهد إلى (الاسبتار)[1] البتار ... وهد السقوف على الأسقف
وخلص من الكفر تلك البلا ... د يخلصك الله فى الموقف !!

وفى أثناء ذلك كان على صلاح الدين أن يصطدم بالصليبيين من حين إلى حين . والتقى بهم مرة على غير استعداد للقتال . فهزموه فى جهة (الرملة) واعتذر عنه الشعر عن هزيمته ومن ذلك .

قل للفرنجة الخذلى رويدكمو
بالثأر أو تخرج الشعرى من الحمل
ترقبوها من (الفــوّار) طالعة
خوارق الأرض تمحو رونق الأصل

---

(١) يريد فرقة من أقوى فرق الفدائيين الصليبيين يقال لها (الاسبتارية) معروفة لنا فى تاريخ الحروب الصليبية كمعرفتنا بفرقة أخرى إسمها (الداوية) . والبتار السيوف القاطعة . والجناس واضح فى هذا البيت

حسب العـدا يا صلاح الدين حسبهم
أن يقرفوك بجرح غير منـــدمل
وهل يخاف لسان النحل ملتمس
مرت على إصبعيه لذة العســـل ؟

والمعنى فى هذه الأبيات أن الشاعر يقول للفرنج — خذلهم الله — رويدكم أيها الفرنج فإن صلاح الدين سيثأر منكم عما قريب ولكم أن ترقبوا جيوشه فى جهة الفوّار وهى تخرق الأرض وتملأ الجو بالغبار . ثم يتجه الشاعر إلى صلاح الدين ويقول له ما أهون الجرح الذى أصبت به من الفرنج إنه أشبه بلسعة النحل لا بد منها للحصول على الشهد . وهو هنا النصر على الفرنج .

غير أن صلاح الدين هزم الفرنج بعد ذلك فى موقعة أخرى كانت أهم من الأولى شأنا وهى موقعة (مرج عيون) فوفد عليه الشعراء من كل مكان يهنئونه بهذا النصر المبين . ومنهم الشاعر العراقى المشهور باسم (التعاويذى) . وقد أنشده قوله :

إن كان دينك فى الصبابة دينى — فقف المطى برملتى يبرين
ليت الضنين على المحب بوصله — لقى السماحة من صلاح الدين
ملك إذا علقت يد بزمامه — علقت بحبل فى الحفاظ متين
كاد الأعادى أن يصيبك كيدها — لو لم تكدك برأيها المأفون
فهوت نجوم سعودهم وقضى لهم — بالنحس طائرهم بمرج عيون

وغادر السلطان مرج عيون . واتجه بجيشه نحو حصن من أقوى حصون الفرقة الصليبية المعروفة بالداوية . وهذا الحصن هو (بيت الأحزان)

ومن أسمائه كذلك (حصن المخاض) . وكان هذا الحصن من أشد ما منى به المسلمون فى ذلك الحين . ولكن صلاح الدين تمكن منه وانتصر عليه وعاد إلى دمشق . وكان الشعراء فى انتظاره كالمعتاد . ومنهم الشاعر: (أبو الحسن بن محمد المعروف بابن الساعاتى) وقد أنشد السلطان قوله :

وقفت على حصن المخاض وإنه
لموقف حق لا يوازيه موقف

وما رجعت أعـــلامك الصفر ساعة
إلى أن غدت أكبادها السود ترجف(١)

كبا من أعاليه صليب وبيعـــة
وشاد به دين حنيفٌ ومصحف

أيسكن أوطان النبيـين عصبة
تمين لدى أيمانها وهى تحلف(٢)

نصحتكمو والنصح فى الدين واجب
ذروا بيت يعقوب فقد جاء يوسف

وبيت يعقوب فى هذه المقطوعة هو (بيت الأحزان) أو (حصن المخاض) . والتورية واضحة فى هذه الأبيات وفيها يقول الشاعر للفرنج من أصحاب هذا الحصن: اتركوا بيت يعقوب لابنه يوسف صلاح الدين وعودوا من حيث أتيتم .

وتيسر للسلطان بعد ذلك فتح مدينة منيعة من مدن الشام هى (حلب) وفرح المسلمون كثيرا بهذا الفتح . وخف من أجله الشاعر المصرى

---

(١) كانت راية الأيوبيين صفراء اللون .

(٢) تمين أى تكذب — والشاعر يشير هنا إلى العهود الكثيرة التى خانها الفرنج

المعروف (ابن سناء الملك) وأنشد بين يدى السلطان قصيدة طويلة منها :

بدولة الترك عزت دولة العرب وبابن أيوب ذلت بيعة الصلب
وفى زمان ابن أيوب غدت حلب
من أرض مصر وصارت مصر من حلب

ومنها فى وصف حلب ذاتها :

جليسة النجم فى أعـلى مراتبه
وطالما غاب عنهـا وهى لم تغب
ومانعتـــه كمعشوق تمنعـــه
أحلى من الشهد أو أشهى من الضرَب(١)

ومنها كذلك :

ومذ رأت صده عن ربعها حلب
ووصْلَه لبـلاد الغير بالحلب
غارت عليه ومدت كف مفتقر
منهـــا إليه وأبدت وجه مكتئب
واستعطفته فأولاهـــا عواطفه
وأكثب الصلح إذ نادته عن كثب
فتح الفتوح بلامـــين وصاحبه
ملك الملوك ومولاها بلا كذب

---

(١) الضرب بفتح الراء هو الشهد

ثم تيسر للسلطان كذلك فتح مدينة (الموصل) وغيرها من المدن والأقطار الإسلامية التى تألفت منها ومن الديار المصرية والشامية تلك الجبهة الحربية التى لابد من تأليفها قبل الالتقاء بالصليبيين فى موقعة فاصلة بينهم و بين المسلمين .

وتأهب السلطان بعد ذلك تأهباً كاملا لملاقاة الفرنج . وذهب بجيشه أولا إلى جهة (طبرية) فأخذها عنوة من يد الفرنج . ولم يكد المسلمون يسمعون أنه فى طريقه إلى (القدس) حتىقصده العلماء والأدباء والفضلاء والصوفية من مصر وغير مصر ؛ بحيث لم يتخلف أحد من المعروفين عن الحضور ليشهد بعينه موقفاً من مواقف هذا البطل الكبير قيل فيه « إن الإيمان كله قد برز للشرك كله » !

ثم ما كاد الظفر يتم لصلاح الدين فى موقعة حطين — وكان ذلك ليلة القدر من سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة للهجرة — حتى تصايح المسلمون الله أكبر الله أكبر .

وجلس السلطان فى خيمته . فتزاحم عليه الشعراء كل يريد أن يسبق صاحبه فى تقديم تهنئته . فكان أولهم فى الترتيب نقيب الأشراف بالديار المصرية وهو (الجوانى) وقد أنشد بين يدى السلطان قصيدة منها :

أترى مناما ما بعينى أنظر ؟
القدس يفتح والفرنجة تكسر !!
(وقمامة[1]) قمت من الرجس الذى
بزواله وزوالها تتطهر

(١) اسم أطلقه المسلمون فى تلك العصور على كنيسة القيامة تحقيرا لها مدفوعين فى ذلك بالحماسة الدينية الذى كان لابد من وجودها عند الفريقين فى أثناء الحروب الصليبية .

ومليكهم فى القيد مصفود ولم
يُرَ قبل ذاك لهم مليك يؤسر

قد جاء نصر الله والفتح الذى
وعد الرسول فسبحوا واستغفروا

فُتِح الشآمُ وطُهِّر القدس الذى
هو فى القيامة للأنام المحشر

من كان هذا فتحه لمحمد
ماذا يقال له وماذا يذكر ؟

يا يوسف الصديق أنت بفتحها
فاروقها عمر الإمام الأطهر

ثم تقدم ابن سناء الملك فألقى قصيدته التى منها :

لست أدرى بأى فتح تهنّا
يا مُنيل الإسلام ماقد تمنى

أنهنيك إذ تملكت شاماً
أم نهنيك إذ تملكت عدنا ؟

قد ملكت الجنان قصراً فقصراً
إذ فتحت الشآم حصنا فحصنا

ومنها فى وصف ملوك الفرنج وهم وقوف بين يدى صلاح الدين وفى أيديهم وأرجلهم القيد :

وتصيدتهم بحلقة صيد
تجمع الليث والغزال الأغنا
وجرت منهم الدماء بحارا
فجرت فوقها الجزائر سفنا
صنعت منهمو وليمة عرس
رقص المشرفىّ فيها وغنى
وحوى الأسر كل ملك يظن الد
هرَ يفنى وملكه ليس يفنى
كم تمنى اللقاء حتى رآه
فتمنى لو أنه ما تمنى

ومنها :

لا يخص الشآم منك التهانى
كل قطر وكل صقع يهنا
قد ملكت البلاد شرقاً وغرباً
وحوَيتَ الآفاقَ سهلا وحزنا
واغتدى الوصف فى علاك حسيراً
أىّ لفظ يُقال أو أى معنى ؟

وهكذا تنافس الشعراء فى وصف هذا اليوم العظيم الذى هو يوم حطين . وتكاثرت القصائد على صلاح الدين وهى تفد عليه من جميع البلاد الإسلامية. وأصبحت هذه القصائد البليغة التى قيلت فى ذلك اليوم

تعرف فى تاريخ الأدب العربى باسم (القدسيات) . والقصائد المتقدمة تعتبر نموذجاً منها ،

الشعر السياسى وخلفاء صلاح الدين

توفى صلاح الدين وترك ملكا عريضاً لأولاده من بعده . وكانت مصر من نصيب ابنه (العزيز) . والشام من نصيب ابنه (الأفضل) .

غير أنه كان لصلاح الدين أخ داهية هو (الملك العادل) لم يزل يعلو نجمه ويعظم أمره حتى أصبح فى حقيقة الأمر الوارث الحقيقى لهذا الملك العظيم . وخلفه أولاده من بعده فى هذه التركة. فكانت مصر من نصيب ولده (الكامل محمد) الذى ملك البلاد نحواً من أربعين سنة . عشرين منها وهو نائب عن أبيه . وعشرين أخرى كان فيها مستقلا بمصر .

وكان الفرنج فى حكم الملك العادل قد استولوا على برج السلسلة الذى يعتبر مفتاح الثغر الذى هو أعظم ثغور الإسلام إذ ذاك ، وهو ثغر دمياط ، فلما علم العادل بذلك مرض لساعته ومات. وتولى مكانه ابنه (الكامل محمد) . فاستنجد الكامل هذا بإخوته من ملوك الأيوبية لاستنقاذ دمياط . وكان مما كتبه إلى أخيه (الملك الأشرف) صاحب مملكة (خلاط) يستحثه على سرعة المجىء إليه :

يامسعدى إن كنت حقا مسعفى
فانهض بغير تلبث وتوقف
واطو المنازل ما استطعت ولا تنخ
إلا على باب المليك الأشرف

وأقرا السلام عليه من عبد له
متوقع لقدومه متشـــوف
وإذا وصلت إلى حماه فقل له
عنى بحسن توسل وتلطف
إن تأت عبدك عن قليل تلقه
ما بين كل مهند ومثقف
أو تبط عن إنجاده فلقاؤه
يوم القيامة فى عراص الموقف !

وجلس الملك الكامل ينتظر الرد من إخوته وإذا الفرنج يفلحون فى حصار دمياط ويضيقون الخناق على أهلها وجنودها ، وإذا بسهم نشاب يلقى بين يدى الكامل ، وفيه رسالة من الأمير جمال الدين الكنانى من أهل دمياط وفيها يقول :

يامالكى : دمياط ثغر هدمت
شرفاته ، كادت تُجَثُّ أصوله
يقريك من أزكى السلام تحية
كالمســـك طاب دقيقُهُ وجليله
ويقول عن بعد وإنك سامع
حتى كأنك جاره ونزيـــله
يا أيها الملك الذى ما إن يرى
بين الملوك شبيهه وعديله

هذا كتاب موضح من حالتى
ما ليس يمكننى لديك أقوله
أشكو إليك عدو سوء أحدقت
بجميعه فرسانه وخيوله
فالبر قد منعت إليه طريقه
والبحر عز لنصره أسطوله
لخضوعه باد على أبراجه
وحنينه وبكاؤه وعويله
ولو استطاع لأمَّ بابك لائذا
لكنه سُدَّت عليه سبيله
والله أعطاك الكثير بفضله
ورضاه عن هذا الكثير قليله
والثغر ناظره إليك محدق
ما أن يمل من الدموع هطوله
ولئن قعدت عن القيام بنصره
جَفَّت نضارته وبان ذبوله
ووهت قوى القرآن فيه وعلقت
صلبانه وتُلِى به إنجيله
وعلا صدى الناقوس فى أرجائه
وخفى على سمع الورى تهليله

هذا وحقك وصف صورة حاله
حقا وجملته وذا تفصيله
وكفاك يا ابن الأكرمين بأنه
أضحى عليك من الورى تعويله
فاذخر ليوم البعث فعلا صالحا
الله ضامن أجره وكفيله

ولم يكد الملك الكامل ينتهى من قراءة هذه الرسالة حتى نادى فى القاهرة بالنفير العام (أى الجهاد) . ثم لجأ الملك الكامل إلى حيلة أخرى تفوت على الفرنج قصدهم . وهى أنه فتح جميع السدود التى على النيل، وترك الماء يحيط بالفرنج من كل جانب ، حتى أيقنوا أنهم معزولون ومقتولون بأيدى المسلمين . ففت ذلك فى عضدهم ، وبادروا إلى طلب الصلح من الملك الكامل . فأجابهم إليه وعادوا إلى بلادهم سراعا يحمدون الله على السلامة والعافية .

فانظر إلى صنع الله بالمسلمين فى مصر ، وكيف وقف النيل نفسه إلى جانب المصريين يصد عنهم هجوم المعتدين ، ويبطل كيد الكائدين ؟

وجلس الملك الكامل محمد وإخوته بعد رحيل الفرنج عن دمياط مجلس أنس . وكان ذلك بمدينة المنصورة فأمر الملك الأشرف موسى من إخوة الملك الكامل محمد جارية له يقال لها (ست الفخر) فغنت على عودها هذه الأبيات : —

ولما طغا فرعون عكا ببغيه وجاء إلى مصر ليفسد فى الأرض
أتى نحوهم موسى وفى يده العصا فأغرقهم فى اليم بعضا على بعض

فطرب الأشرف طربا عظيما وقال لها « كررى » فشق ذلك على الملك الكامل، وأمرها فسكتت وقال لجاريته هو « غنيه أنت » . فغنت على العود :

أيا أهل دين الكفر قوموا لتنظروا
لما قد جرى فى وقتنا وتجددا
أعباد عيسى ، إن عيسى وقومه
وموسى جميعا ينصرون محمدا

فطرب الملك الكامل وأمر لها بخمسمائة دينار ولجاريه أخيه الأشرف بخمسمائة مثلها . والأبيات الأخيرة من قصيدة لقاضى غزة — هبة الله بن محاسن — وكان حاضرا المجلس . وقد أنشد يومئذ بين يدى الملك الكامل محمد :

هنيئا فإن السعد راح مخلدا
وقد أنجز الرحمن بالنصر موعدا
حبانا إله الخلق فتحا لنا بدا
مبينا وإنعاما وعزا مخلّدا
تهلل وجه الدهر بعد قطوبه
وأصبح وجه الشرك بالظلم مسودا
ولما طغا البحر الخضم بأهله الط
غاة وأضحى بالمراكب مزبدا
أقام لهذا الدين من سلّ عزمه
صقيلا كما سل الحسام مجردا

ونادى لسان الكون فى الأرض رافعا
عقيرته فى الخافقين ومنشدا
أعبّاد عيسى إن عيسى وقومه
وموسى جميعا ينصرون محمدا !

ولا شك أن التورية فى هذا البيت واضحة متى عرفنا أن اسم الملك الكامل (محمد) واسم أخيه الملك الأشرف (موسى) واسم أخيه الآخر الملك المعظم (عيسى) .

وكان من الشعراء الذين بعثوا بقصائدهم إلى ملوك الأيوبية فى مجتمعهم بالمنصورة (شرف الدين بن عنين) وقصيدته هذه تعتبر من عيون الأدب العربى فى باب الحماسة ومنها قوله :

سلوا صهوات الخيل يوم الوغى عنا
إذا جهلت آباءنا والقنا اللدنا
غداة التقينا دون دمياط جحفلا
من الروم لا يحصى يقينا ولا ظنا
قد اجتمعوا رأيا ودينا وهمة
وعزما وإن كانوا قد اختلفوا سنا
تداعوا بأنصار الصليب وأقبلت
جموع كأن الموج كان لهم سفنا
وأطمعهم فينا غرور فأرقلوا
إلينا سراعا للجهاد وأرقلنا

فما برحت سمر الرماح تنوشهم
بأطرافها حتى استجاروا بنا منا
سقيناهمو كأسا نفت عنهم الكرى
وكيف ينام الليل من عدم الأمنا
لقد صبروا صبرا جميلا ودافعوا
طويلا فما أجدى دفاع ولا أغنى
بدا الموت من زُرْق الأسنة أحمرا
فألقوا بأيديهم إلينا فأحسنا
وما برح الإحسان منا سجية
نورثها من صيد آبائنا الابنا
وقد جربونا قبلها فى وقائع
تعلّم غُمر القوم منا بها الطعنا
أسود وغى لولا وقائع سمرنا
لما لبسوا قيدا ولا سكنوا سجنا
مآثر مجد سودتها سيوفنا
طوال المدى يفنى الزمان ولا تفنى
وقد عرفت أسيافنا ورقابهم
مواقعها منا فإن عاودوا عدنا
منحناهمو منا حياة جديدة
فعاشوا بأعناق مقلدة مَنّا

ولو ملكونا لاستباحوا دماءنا
ولوغا . ولكنا ملكنا فأسجحنا

وكان للملك الأشرف موسى شاعر مصرى يختص به ، هو كمال الدين بن النبيه بعث إليه فى مخيم المنصورة قصيدة طويلة منها :

للذة العيش والأفراح أوقات
فانشر لواء له بالنصر عادات
أمام جيشك أنى سار أربعة
نصل ونصر وأراء ورايات
وتحت غيل القنا آساد معركة
لها ثبات وفى الهيجاء وثبات
أهله فى سماء من مغافرها
لها الكتائب والأفلاك هالات
تهتز أعطافهم يوم الجلاد إذا
غنت لهم من بنات القين(١) قينات
صفائح هى إن دب المنون بها
صحائف كتبت فيها المنيات
إن مس شمس الضحى من لمعها رمد
كحلتها بالعجاج الأعوجيات(٢)

(١) بنات القين : السيوف
(٢) الأعوجيات : الرماح

ومنها :

الويل للروم والإفرنج من ملك
له من النصر والتـأييد عادات

أين النجاة لسرب الروم من ملك
ضارٍ له من رماح الخط رايات

دمياط ثغر ونار الحربِ موقدة
وأنت موسى وهـذا اليوم ميقـات

ألق العصـا تتلقف كل ما صنعوا
ولا تخف ما حبال القوم حيـات

طأهم بجيشك لا تحفل بكثرتهم
فإنهم لبغـاث الطـير أقوات (١)

أصبتهم بسهـام الرأى من حلب
وللمكايد من بعـد إصـابات

فطهر الله ذاك الثغر من قلح(٢)
أصـابه وانجلت تلك الثنيـات

قتلا وسلبا وأسرا وانتهاب ثرى
لله كم حسنت تلك الإساءات

شننتهـا غارة كالنار محرقة
للكـفر وهى على الإسلام جنـات

(١) بغـاث الطير صغـارها
(٢) القلح صفرة فى الأسنان استعيرت هنا لما أصاب الثغر من أذى العدو

لله من ثغر دمياط وبرزخها
فتح له تفتح السبع السموات
شرحت صدر رسول الله وانحسرت
بنصره الدين والدنيا غمامات
يوم على الروم ينشى ريحه سحبا
أمطـــارهن مصيبات مصيبات
رأوا جيوش بنى أيوب يقدمها
ليث له فى جيوش الشرك هجمات
فللرماح كلاهم أو صدورهمو
وللصوارم أعنـــاق وهامات
تخلق البحر ذاك اليوم من دمهم
والموج ترقصه تلك المسرات
الله أكبر أن تمسى مزامرهم
تتلى وتنسى من القرآن آيات
ما كل من طلب العلياء أدركها
ووافقت سعيه فيهـا سعادات

وإن ننس لا ننس شاعرنا المصرى المعروف بالبهاء زهير . وكان لا بد له من أن يسمع صوته فى ذلك اليوم من أيام النصر . من أجل ذلك بعث إلى الملوك الأيوبية وهم بالمنصوره بقصيدة رائعة منها :

بك اهتز عطف الدين فى حلل النصر
وردت على أعقابها ملة الكفر
فقد أصبحت والحمد لله نعمة
تقصر عنها قدره الحمد والشكر
يقل لها بذل النفوس بشارة
ويصغر فيها كل شىء من النثر[1]
ألا فليقل ما شاء من هو قائل
ودونك هذا موضع النظم والنثر

ومنها فى مدح الكامل ملك مصر :

أياديه بيض فى الورى موسوية
ولكنها تسعى على قدم الخضر
ومن أجله أضحى المقطم شامخاً
ينافس حتى طور سيناء فى القدر
فيا ملكا رام الملائك رفعة
من الملأ الأعلى له أطيب الذكر
وما فرحت مصر بذا الفتح وحدها
لقد فرحت بغداد أكثر من مصر
فلو لم يقم بالله حق جهاده
لما سلمت دار السلام من الذعر

(١) النثر هنا هو النثار وهو ما ينثر على العروس من الذهب والفضة

وأقسم لولا همــة كاملية
لخـافت رجال بالمقـام وبالحجر
فمن مبلغ هذا الهنــاء بمكة
ويثرب ينهيه إلى صاحب القبر
فقل لرســول الله إن سميه (١)
حمى بيضة الإسلام من نوبة الدهر
هو الكامل المولى الذى إن ذكرته
فيا طرب الدنيا ويا فرحة الدهر
به ارتُجِعَت دمياط قسراً من العدا
وطهرها بالسيف والملة الطهر

ومنهـا :

سددت سبيل البر والبحر عنهمو
بسابحة دهم وسـابغة غمر
أساطيل ليست فى أساطيرِ من مضى
بكل غراب راح أفتك من صقر
وجيش كمثل الليل هولا وهيبة
وإن زانه ما فيه من أنجم زهر
ورويت منهم ظامئ البيض والقنا
وأشبعت منهم طاوى الذئب والنسر

(١) يقول (سميه) لأنه من أسماء الملك الكامل محمد

وجاء ملوك الأرض نحوك خُضَّعاً
تجرر أذيال المهانة والصغر
كفى الله دمياط المكاره إنها
لمن قبلة الإسلام فى موضع النحر
وما طاب ماء النيل إلا لأنه
يحل محل الريق من ذلك الثغر (١)
فلله يوم الفتح يوم دخولها
وقد طارت الأعلام منها على وكر
وقد فاق أيام الزمان بأسرها
وأنسى حديثاً عن حنين وعن بدر

* * *

حملة صليبية كبرى من أوربا تسترجع بيت المقدس

انزعجت أوروبا من هذه الأخبار أيما انزعاج . ولم تلبث جموعهم أن أتت إلى الشرق فى حملة صليبية كبيرة بقيادة الإمبرطور فردريك إمبراطور الدولة الرومانية . وفى خطوب كثيرة وقع الاتفاق بينهم وبين الملك الكامل على أن يأخذ الإمبراطور القدس بشرط أن يبقى هذا القدس خرابا لا تتجدد أسوازه ولا تشيد حصونه ، وأن تكون قرى المسلمين حوله لهم لايزعجهم أو يزاحمهم فيها الفرنج . وأما الحرم

(١) فى هذا البيت صنعة شعرية فائقة ــ لاتخفى على القارىء

والصخرة المقدسة والمسجد الأقصى فتظل فى أيدى المسلمين لا يدخلها الفرنج إلا للزيارة فقط .

وهكذا اضطر المسلمون إلى التسليم فى القدس . فاشتد بكاؤهم عليه منذ ذلك الوقت ، وانقلبوا على الملك الكامل يذمونه ويشنعون عليه ، وأذنوا عليه كذلك فى غير أوقات الآذان إمعانا فى إيذائه والنيل منه . ولم يقف الأمر عند ذلك الحد بل عقد الكثيرون منهم اجتماعات حافلة هنا وهناك ، وخطب فيهم الأئمة والوعاظ ، وذكروهم بفضائل القدس وضاعفوا من حزنهم عليه . وأنشد الإمام الحافظ شمس الدين سبط بن الجوزى فى بعض هذه المحافل قصيدة مؤثرة منها قوله :

أعينى لا ترق من العبرات
صلى فى البكا الآصال بالبكرات
لعل سيول الدمع يطفىء فيضها
توقد ما فى القلب من جمرات
ويافم نح بالشجو منك لعله
يروّح ما ألقى من الكربات
على المسجد الأقصى الذى جل قدره
على موطن الإخبات والصلوات
على منزل الأملاك والوحى والهدى
على مشهد الأبدال والبدلات(١)
على سلم المعراج والصخرة التى
أنافت بما فى الأرض من صخرات

(١) الأبدال والبدلات درجات عالية من درجات التصوف .

على القبلة الأولى التى اتجهت لها
صلاة البرايا فى اختلاف جهات

على خير معمور وأكرم عامر
وأشرف مبنىً لخـــير بنـاة

عفا المسجد الأقصى المبارك حوله
رفيعَ عمـاد عالىَ الشرفات

عفا بعد ما قد كان للخير موسما
وللبر والإحسان والقربات

خلا من صلاة لا يمل مقيمها
يوشح بالآيات والســـورات

لتبك على ما حل بالقدس (طيبة)[١]
وتشرحه فى أكـرم الحجرات

لتبك عليها (مكة) فهى أختها
وتشكو الذى لاقت إلى عرفات

ومنها :

أما علمت أبنـاء أيوب أنهم
بمسعاته عدوا من السروات

وأن افتتاح القدس زهرة ملكهم
وهل ثمر إلا من الزهرات ؟

فمن لى بنواح ينحن على الذى
شجانى بأصوات لهن شجاتى

(١) طيبة اسم من أسماء المدينة .

يرددن بيتا للخزاعي قاله يؤبن فيـــه خيرة الخيرات
(مدارس آيات خلت من تلاوة ومنزل وحي مقفر العرصات[١])

وقد كان على الفرنج المقيمين بالشرق أن يحترموا المعاهدة التي عقدها الإمبراطور فردريك هذا مع الملك الكامل . وفيها تعهد الإمبراطور بأن لا يقيم أسوار بيت المقدس . ولكن الفرنج أقاموا هذه الأسوار . فلما بلغ ذلك الملك الناصر داود صاحب دمشق ـ وذلك بعد وفاة الملك الكامل بمدة من الزمن ـ ذهب بنفسه إلى القدس وهدم الأسوار التي بناها الفرنج . واسترد بيت المقدس ، وفرح المسلمون باسترداده فرحا عظيما . وفي ذلك يقول شاعرنا المصرى جمال الدين بن مطروح :

المسجد الأقصى له عادة سارت فصارت مثلا سائرا
إذا غدا بالكفر مستوطناً أن يبعث الله له ناصراً
(فناصر) طهره أولا (وناصر) طهره آخراً

وانزعج الأوربيون مرة أخرى لهذه الأخبار ، وعزموا على المجيء إلى الشرق في حملة صليبية كبرى كذلك . وكان على رأس هذه الحملة الصليبية الأخيرة الملك لويس التاسع ملك فرنسا .

وكان الملك الصالح نجم الدين أيوب إذ ذاك مريضاً بدمشق ، فخرج في محفة وجيء به إلى مصر ليشرف بنفسه على إعداد الأسطول والجيش . وبينما هو على هذه الحال إذا بالملك لويس التاسع يبعث إليه بكتاب شديد اللهجة كان بمثابة إنذار ، قرأه السلطان فاغرورقت عيناه بالدموع وقال « إنا لله وإنا إليه راجعون » . ثم أمر بهاء الدين زهيراً فكتب

---

(١) هذا البيت من شعر دعبل الخزاعي . وهو شاعر شيعي معروف في العصر العباسي

جوابا له أشد منه لهجة . ثم مات الملك نجم الدين أيوب . فقوى ذلك من عزم الصليبيين . وشاءت الظروف أن يحاربهم المصريون وأن يقف (النيل) العظيم للمرة الثانية إلى جانبهم . فأحاط هذا النيل بالعدو من كل ناحية . وانتهت الموقعة بهزيمة الفرنج ووقوع ملكهم لويس التاسع نفسه فى الأسر . فقيده المسلمون بقيد من حديد واعتقلوه بدار ابن لقمان بالمنصوره ووكلوا به أحد الطواشى واسمه « صبيح »

وبقى الملك لويس سجيناً ومعه قواده وأمراؤه حتى عرض على المسلمين أن يطلقوه بفدية قدرها أربعمائة ألف دينار . وكان المسلمون فى حاجة إذ ذاك للمال فأطلقوه وتركوه يفر إلى (عكا) . وسمع المصريون أنه جدد العزم على العودة إلى مصر ، فسخروا منه ، ونظم جمال الدين بن مطروح فى هذا المعنى شعرا منه قوله :

قل للفرنسيس إذا جئته ... مقال نصح من قئول نصيح
أتيت مصر تبتغى ملكها ... تحسب أن الزمر ياطبل ريح
فساقك الحين إلى أدهم ... ضاق به عن ناظريك الفسيح
وكل أصحابك أودعتهم ... بحسن تدبيرك بطن الضريح
سبعون ألفاً لايرى منهمو ... إلا قتيل أو أسير أو جريح
ألهمك الله إلى مثلها ... لعلّ عيسى منكمو يستريح
إن يكن البابا بذا راضياً ... فرب غش قد أتى من نصيح
فقل لهم إن أزمعوا عودة ... لأخذ ثار أو لفعل قبيح
دار ابن لقمان على حالها ... والقيد باق والطواشى صبيح !!

الفصل الثالث

الشعر الصوفى

قلنا إن الشعب المصرى منذ القديم يميل بطبعه إلى الدين ، ويستجيب لكل دعوة تقوم على أساسه أو تمت إليه بصله أو بأخرى . ولا موضع للشك فى أن الميول الدينية متأصلة فى هذا الشعب منذ وجد إلى اليوم .

ومن ثم كانت البيئة المصرية تربة صالحة لنمو التصوف ولذا كانت مصر مهداً للرهبانية المسيحية قبل الإسلام ، ثم مهداً للتصوف بعده . وقد ظهر التصوف الإسلامى فى مصر أول ماظهر فى القرن الثانى للهجرة . وظهر من المتصوفة فى مصر فى القرن الثالث الهجرى شاعر يقال له (ذو النون المصرى) المتوفى سنة ٢٤٥ ه . وفى العصر الفاطمى عرف من أهل مصر متصوف مشهور يقال له (ابن الكيزانى) . ثم فى العصر الأيوبى ظهر إمام المتصوفة فى مصر (عمر بن الفارض) . وفى العصر المملوكى ظهر الشاعر الصوفى الذائع الصيت المعروف (بالبوصيرى) ، وفى العصر العثمانى اشتهر بالتصوف شيخ كبير هو (الشعرانى) .

وربما كان أول معنى من معانى التصوف فى مصر ، أعنى منذ ظهوره بها فى القرن الثانى للهجرة ، هو الزهد والانصراف عن الدنيا والوقوف ضد

السلطان ومعارضته فى الأمور التى يرى الشعب أنه تجاوز فيها حد الشرع ، أو أهدر بها مصلحة من مصالح الرعية . وباختصار كان من معانى التصوف إذ ذاك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

ثم أصبحت للتصوف بعد ذلك معان أخرى زيدت عليه شيئاً فشيئاً ، وتطورت هذه المعانى بتطور الظروف والأحوال . ومصر فى كل حالة منها خاضعة خضوعا تاما لهذا التطور الذى حدث :

فهذا هو (ذو النون المصرى) وقد طلع على الناس بمذهب جديد فى التصوف ، أو نزعة جديدة من نزعاته اتجه فيها الى ما يسمى (بالحب الإلهى) . والظاهر أن هذه النزعة كانت غريبة أول الأمر على أذهان المصريين فتركوها ومضوا فى نزعتهم الأولى — وهى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والحض على الزهد والانصراف عن الدنيا . وبقى الحال على ذلك حتى ظهر (ابن الكيزانى) فى العصر الفاطمى ، فعاد إلى القول (بالحب الإلهى) ، وعبر عن نزعته هذه بأشعار رقيقة صريحة ، وليست غامضة فى الوقت نفسه كما سنجد ذلك عند رجل كابن الفارض . ومن أشعار ابن الكيزانى هذا على سبيل المثال :

اصرفوا عنى طبيبى	ودعونى وحبيبى
عللوا قلبى بذكرا	ه فقد زاد لهيبى
طاب هتكى فى هواه	بين واش ورقيب
ليس من لام وإن	أطنب فيه بمصيب

جســــدى راض بسقمى　　　وجفــــونى بنحــــيبى

والحبيب فى هذه الأشعار وأمثالها هو الذات الإلهية . والشاعر هنا يستعذب فى حب الله كل شىء حتى إنه لايشعر بالمرض الذى يصيب جسمه ، كما لا يحس بلوم اللائمين وعذل العاذلين فى سبيل ذلك . فهو إذن ليس بحاجة إلى طبيب يداويه ، ولا ناصح ينصحه بالعدول عن هذا الحب .

بقى التصوف المصرى واضحاً على هذا النحو لايحتاج الناس إلى عناء كبير فى فهمه ، ولا عناء أكبر فى فهم الأشعار التى تعبر عنه إلى أن كان عهدنا بالشاعر الكبير :

عمر بن الفارض :

وهو أبو حفص عمر بن أبى الحسن . ولد بمصر فى عام ٥٧٦ للهجرة . وتوفى بها عام ٦٣٢هـ . وأدرك هذا الشاعر من ملوك بنى أيوب أربعة . وهم صلاح الدين ، وابنه العزيز ، ثم العادل وابنه الكامل .

ونشأ ابن الفارض فى كنف أبيه فى عفاف وصيانة وعبادة وديانة وزهد وقناعة . واشتغل بفقه الشافعى . ودرس الحديث . ثم حبب إليه الخلاء وسلك طريق التصوف فتزهد وتجرد عن نعيم الدنيا .

وبدأ سلوكه بالسياحة عند (وادى المستضعفين) بجبل المقطم . وأخذ يروض نفسه ، ويأخذها برياضة شاقة . وكان يترك الطعام والشراب مدة تصل إلى عشرة أيام فى أكثر الأحيان . وبقى مكباً على هذه الرياضة الروحية الشاقة مدة طويلة . ثم فكر الشاعر فى الرحيل إلى

الحجاز . وحول رحلته هذه قصص كثيره يعرفها المعنيون بهذهالسيرة .
وهناك بالحجاز بقى الشاعر خمسة عشر عاما كاملة رجع بعدها إلى مصر ونفسه تسيل حسرات . على ما مضى من أيام (الفتح الالهى) بتلك البقعة الطاهرة المقدسة . وفى الحنين إلى مكة المكرمة يقول شاعرنا الصوفى على طريقته المعروفة :

لعل أصيحابى بمكة يُبْرِدوا
بذكر سُلَيْمى ما تُجِنُّ الأضالع
وعلّ الليلات التى قد تصرمت
تعود لنا يوما فيظفر طامع
ويفرح محزون ويحيا متيم
ويأنس مشتاق ويلتذ سامع(١)

ولابن الفارض ديوان شعر شرح فيه مذهبه فى التصوف ، وهو المذهب الذى يدور حول (الحب الإلهى) . وفى هذا الديوان قصيدة تسمى (التائية الكبرى) عدد أبياتها يربو على سبعمائة بيت أودعها الشاعر كل أفكاره فى التصوف ، وكشف فيها عن مذهبه فيه .

ويحدثنا التاريخ أن ابن الفارض تأثر فى مذهبه هذا بالفيلسوف الصوفى المعروف (محي الدين بن عربى) الأندلسى المتوفى سنة ٦٣٨ ﻫ .

---

(١) ابن الفارض شديد الكلف فى شعره بصيغ التصغير كما نرى فى تصغير (صاحب) ، (وليله) الخ .

وخلاصة القول فى مذهب ابن عربى أنه من المؤمنين بما سمى عند المتصوفة (بوحدة الوجود) . والقائلون بهذه الفكرة ينظرون إلى الخالق والمخلوق على أنهما أسمان لشىء واحد لا يتعدد . وتطبيق ذلك على ابن الفارض أنه فى حالة (الوجد) كان يرى نفسه والذات الآلهية شيئا واحدا لا شيئين متمايزين ، وابن الفارض لا يصل إلى هذه الحالة من الاندماج والفناء فى الذات الالهية عن طريق عقله ، ولكن عن طريق قلبه ، ولا يتم له الشعور بهذه الحالة إلا فى غيبوبة عن نفسه وعقله ؛ بحيث إذا عاد إليه عقله ونفسه فهنا فقط يشعر بوجوده الذاتى الذى يستقل به عن وجود الذات الإلهية .

غير أن أشعار بن الفارض المعبرة عن حالات وجده التى شرحنا بعضها الآن أشعار تتسف بالغموض الشديد . فلا يكاد يسهل على القارىء العادى أن يفهم شيئا منها إلا بكد ذهن ، وإعمال فكر .

ومن الأفكار التى قال بها ابن الفارض وكان لها كذلك أثر واضح فى شعره الفكرة القائلة (بالنور المحمدى) وانتقال هذا النور منذ بدء الخليقة عبر الأجيال المتعاقبة ، وعبر الأنبياء والرسل الذين تبع بعضهم بعضا من لدن آدم عليه السلام إلى عهد محمد صلى الله عليه وسلم . ولهذه الفكرة أثر كبير فى أشعار المصريين من المتصوفة الذين استمسكوا بحقيقة النور المحمدى ؛ وذلك من عهد عمر بن الفارض إلى أواخر العصر العثمانى وربما إلى اليوم .

ومن شعر ابن الفارض فى معنى (النور المحمدى) قوله :

أنتم فروضى ونفلى أنتم حديثى وشغلى
ياقبلتى فى صلاتى إذا وقفت أصلى
جمالكم نصب عينى إليه وجهت كلى
آنست فى الحى نارا ليلا فبشرت أهلى
قلت امكثوا فلعلى أرى هداى لعلى
دنوت منها فكانت نور المكلم قبلى
وصرت موسى زمانى مذ صار بعضى كلى

بهذه الطريقة الشعرية الجميلة أخذ ابن الفارض يصور لنا انتقال النور المحمدى بين الأنبياء عليهم الصلاة والسلام إلى أن ظهر منهم موسى وعيسى ومحمد .

ومن صوفية مصر فى ذلك العصر :

ابراهيم الدسوقى :

نذكره هنا لا شيء إلا أنه يتفق مع ابن الفارض فى كثير من آرائه وأفكاره ونزعاته ومذاهبه . فهو مثله فى القول (بوحدة الوجود) . وهو مثله كذلك فى القول (بالحب الإلهى) ولكن شعر الدسوقى فى التعبير عن هذه المعانى أسهل من شعر ابن الفارض فى ذلك . وهذا نموذج من هذا الشعر فى الحب الإلهى . قال الدسوقى :

سقانى محبوبى بكأس المحبة فتهت عن العشاق سكرا بخلوتى
ولاح لنا نور الجلالة لو أضا لِصُمِّ الجبال الراسيات لدُكَّتِ

وكنت أنا الساقى لمن كان حاضرا ... أطوف عليهم كرة بعد كرة
ونادمنى سرا بسر وحكمة ... وإن رسول الله شيخى وقرتى

ثم قال فى (وحدة الوجود) :

تجلى لى المحبوب فى كل وجهة ... فشاهدته فى كل معنى وصورة
وخاطبنى منى بكشف سرائرى ... فقال: أتدرى من أنا؟ قلت منيتى
فأنت حياتى بل أنا أنت دائما ... إذا كنت أنت اليوم عين حقيقتى
فأوصلت ذاتى باتحادى بذاته ... بغير حلول بل بتحقيق نسبتى
فصرت فناء فى بقاء مؤبد ... لذات بديمومية سرمدية
وغيبنى عنى فأصبحت سائلا ... لذاتى عن ذاتى لشغلى بغيبتى

والشاعر فى البيت الرابع يفرق بين مذهبين من مذاهب التصوف :.

أحدهما — المذهب القائل بوحدة الوجود . وقد سبق شرحه

وثانيها — المذهب القائل بالحلول وأصحابه ينظرون إلى الخالق والمخلوق على أنهما شيئان متمايزان يحل أحدهما فى الآخر كما يحل الماء فى الخمر . وهذا ما ينزه الشاعر نفسه عنه فى هذا الشعر . فهو ليس من القائلين (بالحلول) . وإنما هو من القائلين (بوحدة الوجود) . فتأمل أيها القارى ذلك جيدا عند قراءة هذا الشعر .

وقد آثرنا الإتيان بنماذج من شعر الدسوقى فى (وحدة الوجود) لأن الدسوقى أوضح من ابن الفارض فى هذا الشعر . ولو قد فعلنا عكس ذلك لوجد القارىء شيئا من المشقة فى فهم ابن الفارض عندما يعبر عن هذه الفكرة من أفكار المتصوفة .

* * *

ونترك العصر الفاطمى والعصر الأيوبى إلى عصر المماليك فنلتقى بشاعر صوفى كبير هو : —

البوصيرى :

وهو شرف الدين أبو عبدالله محمد بن سعيد البوصيرى . قيل إنه ينتمى إلى فرع من قبيلة صنهاجة ببلاد المغرب . فهو إذن من أصل مغربى . وأما (بوصير) التى سمى بها هذا الشاعر فقرية مصرية تقع بين الفيوم وبنى سويف . وفيها قتل مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أميه ، وبها عاش الشاعر فى كنف أسرته .

أقبل البوصيرى على التصوف فدرسه فى أول أمره على (أبى العباس المرسى) . وهو الذى خلف أبا الحسن الشاذلى فى طريقته الصوفية . غير أنه من الحق أن يقال إن البوصيرى لم ينجح كل النجاح فى أن يكون متصوفا بالمعنى المفهوم من هذه الكلمة فى عصره . ومع هذا أو ذاك فالبوصيرى يعتبر من خيرة الشعراء الذين مدحوا رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولأن هذا المدح فى ذاته ضرب من ضروب التصوف ، فقد بناه الشاعر على فكرة هامة من أفكار الصوفية ، وهى الفكرة المعروفة (بالحقيقة المحمدية) أو (النور المحمدى) الذى انتقل عبر الأجيال منذ بدء الخليقة إلى عهدها بمحمد صلى الله عليه وسلم .

ولعل أهم المدائح النبوية التى نظمها البوصيرى وهى كثيرة قصيدتان : —

(إحداهما) الهمزية وقد سماها (أم القرى فى مدح خير الورى) . وعدد أبياتها أربعمائه وستة وخمسون بيتا ومطلعها :

كيف ترقى رُقِيَّكَ الأنبياء　　　يا سماء ما طاولتها سماء

(والثانية) ، الميمية . وهى المسماة (بالبردة) أو (البرأة) ؛فقد قيل إن البوصيرى وفد بها على قبر النبي صلى الله عليه وسلم وهو مريض فعوفى من ساعته . وعـــدد أبياتها مائة وواحد وستون بيتا ومطلعها قوله :

أمن تذكر جيران بذى سلم مزجت دمعا جرى من مقلة بدم

ونظرة شاملة فى هذه المدائح النبوية التى نظمها البوصيرى تدلنادلالة قاطعة على أنه نفى عن محمد صلى الله عليه وسلم صفة الربوبيه فقط ، ثم مدحه بكل صفة من الصفات فيما وراء ذلك . وانظر هنا إلى قوله :ـ

دع ما ادّعته النصارى فى نبيهم
واحكم بما شئت مدحا فيه واحتكم
فإن فضل رسول الله ليس له
حد فيعرب عنه ناطق بفم
وانسب إلى ذاته ماشئت من شرف
وانسب إلى قدره ما شئت من عظم
أعيا الورى فهم معناه فليس يرى
فى القرب والبعد فيه غير منفحم
كالشمس تظهر للعينين من بُعُد
صغيرةً وتكلُّ الطرف من أمم
وكيف يدرك فى الدنيا حقيقته
قوم نيام تسلوا عنه بالحلم

فمبلغ العلم فيه أنه بشر
وأنه خير خلق الله كلهم
وكل آى أتى الرسل الكرام بها
فإنما اتصلت من نوره بهم

وفى البيت الأخير إشارة إلى النور المحمدى الذى سبق ذكره . وعن هذه الفكرة صدر البوصيرى فى أكثر مدائحه النبوية ومنها الهمزية وفيها يقول :

أنت مصباح كل فضل فما تصد ر إلا عن ضوئك الأضواء
لك ذات العلوم من عالم الغيب ب ومنها لآدم الأسماء
لم تزل فى ضمائر الكون تختا ر لك الأمهات والآباء
ما مضت فترة من الرسل إلا بشرت قومها بك الأنبياء
الخ . . .

الفصل الرابع

أساليب الشعر المصرى فى تلك الفترة

منذ القدم والشعر العربى قسمان لا ثالث لهما : شعر المناسبات ، والشعر الشخصى أو الشعر الذاتى . فالأول — يقصد به إلى الشعر الذى يوجه إلى الجماعة والى الطبقة الحاكمة ، ويشتمل على المدح والرثاء ونحو ذلك من الفنون الشعرية . والثانى — يقصد به إلى الشعر الذى يعبر فيه الشاعر عن مشاعره الذاتية بغضّ النظر عن الجماعة . ويشتمل على الفكاهة والمجون ووصف مجالس الشراب ، وما يعرض للناس فى حياتهم اليومية أو الخاصة .

فى الأول جزالة فى اللفظ ، وتصنع وتكلف فى المعنى ، وتقيّد بالفن فى أعلى مراتبه . وفى الثانى ميل إلى البساطة وتحلل من قيود الصنعة اللفظية إلا ما أتى منها عفو الخاطر .

الأول — وهو شعر المناسبات يتأثر تأثرا قويا بحياة الحكام والدواوين . ولا مفر له من ذلك

والثانى — وهو الشعر الشخصى — يتأثر بالحياة التى تحياها الناس فى البيئات المختلفة ؛ أو يتأثر بالمشاعر التى تختلج بها قلوبهم فى الحالات المتباينة . وفى كل بيئة من هذه البيئات نجد شعراء يمثلون المذهب

الأول من مذاهب الشعر ، وإلى جانبهم شعراء يمثلون المذهب الثانى منها . وأكثر من ذلك أننا نجد ديوان الشاعر الواحد ينقسم إلى هذين القسمين معا ؛ على تفاوت بين الشعراء أنفسهم فى هذه القسمة . وهو تفاوت يحدد لنا الميل الغالب على هذا الشاعر أو ذاك ، فنعرف نحن بسهولة تامة ما إذا كان شاعراً من شعراء القسم الأول ، أو شاعرا من شعراء القسم الثانى .

ومهما يكن من شىء فنحن حين ندرس الشعر المصرى فى تلك الحقبة الطويلة التى نعنى بها فى هذا الكتاب نستطيع أن نفرق بين مذهبين على الأقل من مذاهبه أولهما — (مذهب البديع) — أو مذهب الكتاب . ومن المؤرخين من درج على تسميته كذلك (بالمذهب الفاضلى) نسبة إلى القاضى الفاضل وزير السلطان صلاح الدين الأيوبى ، وزعيم الحركة الأدبية فى زمانه . وإن كان المذهب البديعى فى ذاته قد ولد ونما قبل مجىء الفاضل بخمسة قرون على أكثر تقدير . إذ المعروف أنه نشأ منذ أواخر القرن الثانى للهجرة غير . أن الفاضل ـ وهو من أدباء القرن السادس ـ استطاع أن يضيف إلى البديع ألوانا جديدة جعلت من السهل علينا تمييز الأدب المصرى من الأدب العربى فى الأقاليم الإسلامية الأخرى . وسنشير إلى هذه الألوان التى استحدثها الفاضل فيما بعد .

وثانيهما — (مذهب المعانى) . وهو أكثر ظهورا فى الشعر الشعبى . وفى هذا الضرب من الشعر احتفال ظاهر بالأفكار ، وعناية تامة بتصوير العواطف والمشاعر التى ينفعل بها الناس انفعالا لا تكلف فيه

ولا دافع له من خوف الحاكم ، أو طمع فى ذهبه ، أو أخذ شيء من السلطة التي فى يده .

ومذهب البديع يضم إليه نخبة صالحة من شعراء العصرين الأيوبى والمملوكى . وله أتباع كذلك فى العصر العثمانى . فمن تلاميذ هذا المذهب على سبيل المثال : القاضى الفاضل — وهو زعيم هذه المدرسة بلا منازع ، والعماد الأصفهانى ، وابن سناء الملك ، وكمال الدين ابن النبيه ، وابن الساعاتى (وهم من شعراء العصر الأيوبى) . وجمال الدين ابن نباته (من شعراء العصر المملوكى) .

والمذهب الثانى — وهو مذهب المعانى — يضم إليه شعراء آخرين منهم البهاء زهير ، وجمال الدين ابن مطروح ، وأبو الحسين الجزار ، والسراج الوراق ، وأيدمر المحيوى ، وشعراء آخرون ظهروا بمدينة الفسطاط ، وكان لهم طابع خاص . وكلهم تلامذة الشاعر المشهور باسم أبى الحسن ابن حيدرة العقيلى نزيل مدينة الفسطاط وزعيم الأشراف العلويين فى زمانه .

على أن هذا المذهب الأخير من مذاهب الشعر المصرى — وهو مذهب المعانى — يضم إليه طائفة ثالثة من طوائف الشعراء عرفت بميلها إلى المجون والتحامق ، واشتهر منها كثيرون منهم أبو حامد الأنطاكى المعروف « بأبى الرقعمق » وصريع الدلاء ، وصالح بن يونس والشاعر المعروف بابن مكنسة وغيرهم .

عالج شعراء المعانى فنون الشعر على اختلافه . واهتموا فيه بالتعبير

عن العواطف بطريقة أدنى إلى ذوق العامة لا الخاصة ، وإن لم ينسوا فى هذه الطريقة أن يلائموا بينها وبين الزى الأدبى العام لمصر فى ذلك العصر ، وهو الزى الذى يؤثر البديع ويعنى به عناية جعلت منه طابعا للأدب المصرى ولونا من ألوان الشخصية .

وإذا كانت الشخصية المصرية واضحة فى شعر المعانى — أو يجب أن تكون كذلك — فهل كانت كذلك فى شعر البديع ؟

لم يكن بد لمصر من أن تتأثر بالبديع وألوانه المختلفه فى الأدب . ولم يكن بد لمصر من أن تترك أثرها فى هذا البديع نفسه كذلك . وخاصة بعد أن نعمت بحضارة الفاطميين الزاهية ، ثم حضارة الأيوبيين والمماليك الساطعة .

ولقد عرف المصريون ألوانا جديدة من ألوان البديع تتفق وطبيعتهم ، وتلائم أمزجتهم ، وتساير شخصيتهم التى اشتهروا بها فى التاريخ الوسيط .

ومن هذه الأنواع على سبيل المثال :

نوع يقال له (السهولة) كتلك التى تظهر فى شعر البهاء زهير وابن مطروح . ونوع يقال له (النزاهة) وهى أن ينزه الشاعر شعره من ألفاظ الفحش والمجانة حتى يكون الهجاء نفسه « مما تنشده العذراء فى خدرها فلا يقبح منها » .

ثم نوع يقال له (التهكم أو التندر) — وهو كثير فى الأدب المصرى . وأسبابه معروفة لا تحتاج إلى شرح .

ثم إن المصريين غلب على أدبهم الميل إلى لون من ألوان البديع عرفوا به ، وأكثر منه زعيمهم القاضى الفاضل . وهذا النوع الأخير هو (التورية) ومن أسماء هذه التورية عندهم كذلك (الإيهام) و(التوجيه) و (التخيير) . ولكن اسم (التورية) فى ذاته أقرب هذه الأسماء إلى فهم المقصود من هذا اللون من ألوان البديع . لأنه مصدر من قولهم : وريت الخبر تورية بمعنى سترته ، وأظهرت غيره ، فكأن المتكلم يجعله وراءه بحيث لا يظهر .

والأدب المصرى منذ أواخر العصر الفاطمى إلى نهاية العصر العثمانى يوشك أن يكون تورية من أوله إلى آخره ، والقاضى الفاضل هو الذى نبه الناس إلى التورية — أو كما يقول النقاد — « هو الذى عصر سلافها لأهل عصره ، وتقدم على المتقدمين بما أودع منها فى نظمه ونثره » .

ونريد أن نختم هذا الفصل بإيراد الشواهد القليلة على كل ضرب من أضرب البديع التى ابتدعها المصريون . وسنقف فى الفصول القادمة عند بعض الشخصيات البارزة من الشعراء الذين يمثلون البديع المصرى . وإذ ذاك سنأتى بأمثلة أوضح وشواهد أكثر على هذه الأنواع البديعية التى نتحدث عنها :

فمن الشواهد على (السهولة) قول البهاء زهير :

ملكتمونى رخيصـاً فانحط قدرى لديكم
فأغلق الله باباً دخلت منه إليكم
حتى ولا (كيف أنتم) ولا (السلام عليكم)!

ومن الشواهد على (النزاهة) كثير من شعر الشعراء فى الهجاء أو السخرية والتندر. وهو شعر يوشك أن يكون خالياً من ألفاظ الفحش والبذاءة؛ بحيث تقرؤه العذراء فى خدرها — كما قلنا — فلا يقبح منها. وسنعرض لأمثله كثيرة منه عند الكلام عن البهاء زهير أيضاً. فلهذا الأخير شهرة عظيمة بالأدب المبنى على السهولة فى اللفظ والسهولة فى المعنى أو المبنى. ومن (التورية) قول القاضى الفاضل:

بالله قل للنيل عنى إننى
لم أشف من ماء الفرات غليلا
ياقلب كم خلّفت ثمّ (بثينه)
وأظن صبرك أن يكون (جميلا)

وبعد فيحسن بنا أن ننتقل من ذلك إلى الكلام عن الشعراء أنفسهم وهنا سنضطر إلى أن نختار بعضاً ونترك بعضاً. لأن من العسير علينا أن نلم بهم جميعاً فى حقبة طويلة، كالتى نؤرخ لها. وفى هذا القدر من الشعراء الذين سنختارهم ما يعطينا فكرة صحيحة عن الشعر المصرى لتلك الفترة. وفيه كذلك غنى عن ذكر بقية الشعراء الذين عرفتهم مصر حينذاك.

الفصل الخامس

شعراء البديع

أو مدرسة الكتاب فى الأدب المصرى

فتن الأدباء فى العصور التى نؤرخ لها بالبديع ، وكان إمامهم المتبع فى ذلك هو القاضى الفاضل . وله تلاميذ كثيرون ، منهم العماد الأصفهانى وابن سناء الملك ، وكمال الدين بن النبيه فى العصر الأيوبى ، وجمال الدين ابن نباته ، وصفى الدين الحلى ، وابن الوردى فى العصر المملوكى ، والشهاب الخفاجى ، وابن منجك فى العصر العثمانى .

وسنقف عند ثلاثة فقط من أولئك الشعراء وهم ابن سناء الملك ، وجمال الدين ابن نباته ، والشهاب الخفاجى . ولكن قبل أن نتحدث عنهم يحسن بنا أن نعرض لقصيدة واحده فقط من قصائد القاضى الفاضل — وهو إمام هذه المدرسة التى نحن بصددها — وفيها فن من فنون البديع يوشك أن يكون نوعا من الهندسة اللفظية إذا صح هذا التعبير على النحو التالى :

نظم الفاضل فى مدح « العزيز عثمان » بن السلطان صلاح الدين الأيوبى قصيده مطلعها : ـ

الحسن جاد على الأحباب فازدادوا

لكن أحبابنا بالوصل ما جادوا

ومنها : —

فيهن من شبه الغزلان أربعةٌ	نفر وطيب وأحداق وأجياد
وقد بكت لضَنى العشاق أربعةٌ	صبٌ وفرشٌ وسُمّارٌ وعوادُ
هيهات يصدق منك الظنّ أربعةٌ	عهدٌ وودٌّ وأقوالٌ وميعادُ
له من الغصن الريانِ أربعةٌ	عالٍ وباهٍ وميّال ومياد
ولى من الدهر عما رمتُ أربعةٌ	كدٌّ وصدٌّ وإقصاءٌ وإقصادُ
وللعزيز من الملوك أربعةٌ	قلبٌ ونطقٌ وأخلاقٌ وأجساد
يدبرُ الملكَ من عثمان أربعةٌ	عزم وحزم وأفكار وأرصاد
وفيه من صادقات السحبِ أربعةٌ	فيضٌ وسيلٌ وإبراقٌ وإرعاد
يأوى إلى بابك المفتوح أربعةٌ	ضعفى ولهفى ووُرّادٌ ورُوّادُ

وبهذه الطريقة نظم الفاضل أربعة وأربعين بيتا ؛ فى نهاية الشطر الأول من كل بيت منها لفظ « أربعة » . وفى الشطر الثانى بيان لهذه الأربعة . وبذلك تحول الشعر عند الفاضل — كما قلنا — إلى ضرب من ضروب الهندسة.أو ضرب من ضروب العبث اللفظى الذى اشتهر به الأدباء منذ بداية القرن الخامس الهجرى ، وهوالقرن الذى شهد أبا العلاء المعرى . ثم هو القرن الذى شهد أنواعا أخرى من العبث اللفظى : كالرسائل التى تقرأ من اليمين إلى اليسار ، كما تقرأ من أسفل إلى أعلى . وترى تطبيق ذلك فى النكتة الأدبية التالية : —

اجتمع العماد الأصفهانى بالقاضى الفاضل فى مجلس فقال الأول للثانى :

« سر فلا كبا بك الفرس »

فأجابه الثانى بقوله :

« دام علا العماد »

والنكتة هنا فى أنك تستطيع أن تقرأ كلا من هاتين العبارتين من اليمين إلى اليسار ، كما تستطيع أن تقرأها من اليسار إلى اليمين فلا يتغير المعنى .

* * *

نستطيع بعد هذا التمهيد أن نقف كما قلنا عند طائفة من شعراء البديع ومنهم :

أولا — القاضى السعيد هبة الله بن سناء الملك

من أظهر شعراء مصر فى العصر الأيوبى ، ولد سنة ٥٥٠ هـ وتوفى عام ٦٠٨ هـ . وكان هو وأبوه يعملان فى ديوان القاضى الفاضل . وكان أبوه ينوب عن الفاضل فى أثناء غيابه بالشام . ومن ثم كان ابنه الشاعر محبوبا من القاضى الفاضل . ويدل لقب جده « ابن سناء الملك » على أنه كان من كبار الموظفين فى الدولة الفاطمية . فقد خلع هذا اللقب أيضا على الوزير الفاطمى المعروف « بدر الجمالى » . ولابن سناء الملك ديوان موشحات اسمه « دار الطراز » ، به موشحات من نظمه ومن نظم شعراء من المغرب وشعراء من الأندلس . وله كذلك ديوان شعر يشتمل على أكثر من ثمانين قصيدة اثنتان وثلاثون منها فى مدح القاضى الفاضل وحده ، والقصائد الباقية موزعة على

الملوك والأمراء الذين منهم : الملك الناصر صلاح الدين الأيوبى وأولاده الأفضل ، والعزيز ، والظاهر .

معنى ذلك أن الشاعر الذى نقف أمامه الآن نبغ فى فن المدح . وإذا قلنا إنه نبغ فى المدح فمعنى ذلك أنه نبغ كذلك فى فنى الغزل والفخر ، لما نعلمه من أن قصيدة المدح فى الأدب العربى لا بد أن تشتمل على الغزل الذى يبدأ به الشاعر قصيدته على الطريقة التقليدية المعروفة ، كما لابد لقصيدة المدح أيضا من اشتمالها على الفخر الذى يجد فيه الممدوح راحة نفسية خاصة .

ولابن سناء الملك أن يفتخر بنفسه وبآبائه وبالوطن الذى أكرمه وأكرم آباءه ؛ وهو مصر . ولننظر أولا فى هذه الأبيات التى عبر بها الشاعر عن حبه لمصر وفيها يقول :

أيا بَصَرِى لا تنظرنَّ إلى بصرى
فإنى أرى الأحبابَ فى بلدة أخرى

وما بلدةٌ لم يسكنوها ببلدة
ولو أنها بين السماكين والشعرى

وما القفر بالبيداء قفرٌ وإنما
أرى كل واد لم يكونوا به قفرا

تذكرت أحبابى وإنى لمؤمنٌ
ولكن أرانى ليس تنفعنى الذكرى

أأهبط عن مصر وقِدْماً قد اشتهى
على الله أقوام فقال اهبطوا مصرا ؟

فوالله ما أشرِى الشآم ومكة
وغوطته الخضرا بشبرين من شبرا(١)
فإنْ عدتُ والأيامُ عوجٌ رواجعٌ
لقد أنشأتنِي قبْلهَا نشأةً أخرى

وأما الفخر بنفسه فمنه قوله : —

سواى يخاف الدهر أو يرهبُ الردى
وغيرى يهوى أن يكون مخلدا
ولكننى لا أرهبُ الدهرَ إنْ سطا
ولا أحْذرُ الموتَ الزؤامَ إذا عدا
ولو مدّ نحوى حادثُ الدهر كفّه
لحدثت نفسى أنْ أمدّ له يَدَ
توقدُ عزم يترك الماء جمرةً
وحلية حلم تترك السيف أبردَا
وأظمأ إن أبدَى لِىَ الماءُ منةً
ولوْ كان لى نهرُ المجّرة موْردا
ولى قلمٌ فِى أنملى إنْ هززْتُهُ
فما ضرّنِى ألا أهزّ المهندا

---

(١) المعنى أن الشاعر لا يشترى بلاد الشام كلها بما فيها المكان الجميل المسمى (الغوطة) بمساحة صغيرة قدرها شبران فقط من جهة شبرا وهي إحدى جهات القاهرة.

إذا سَالَ فوقَ الطرس وقعُ صريرِه
فإن صليل المرهفات له صدى

ومن قوله فى الفخر أيضا :

أيدفعنى الدهر عن مطلبى ويكثر من لؤمه المَطلَ بى(١)
ولم يدر أنى كبير الإباء وأن الرشيد المرجَّى أبى
وأنى لو شئت من فضله لأنعلت رجلى بالكوكب
ولو شئت كان لدىَّ الهلال بنهر المجرَّةِ كالمركب

ومن شعر ابن سناء الملك فى مدح الملك العزيز ابن صلاح الدين قوله :

من منصفى من حاكم جائر أبلجَ مِثلِ القمر الزاهر
قد كسّر الجفن فطار الحشا ما أفتك الكاسر بالطائر
(ياهاجرى) ليت ندائى إذا ناديته كان (بيا زائرى)
قم نزجر الهم بكأسِ الطِلا ليلة لاناهٍ ولا زاجر(٢)
وهاتها واشرب على مدح من لم أنس من إنعامه ذاكرى

---

(١) بين (مطلبى) و (المطل بى) جناس تام .

(٢) الشطر الثانى من هذا البيت مقتبس من شاعر قديم هو وضاح اليمن والبيت كالآتى :

فاسقط علينا كسقوط الندى ليلة لا ناه ولا زاجر

ما كنت لولا الصدق فى مدحه ألصقُ باسمى سِمَةَ الشاعرِ
وكلُّ شعر قلت فى غيره فإنه تجربةُ الخاطر
الملكُ البرّ العزيزُ الذى عرفتُ فى إنعامه الماطر
يهدم مالاً حين يبقى علاً ياعجبا للهادم العامر
أنا الذى جئتك لا للجَدَا بل للهوى فى فضلك الباهر

وقال فى مدح القاضى الفاضل وبالغ فى المدح :

خير الأنام ومولاهم وفاضلهم عبد الرحيم ولا تستثن لى أحدا
تأتى الملوك على أبوابه زمرا ويدخلون على أبوابه سُجُدا
قد آنسوا نار موسى من بديهته فما يجيئون إلا يقبسون هدى
أغنى الملوك بكُتبٍ عن كتائبهم فما يَرَى قلماً إلاَّ غزا بلداً
الخ ...

ومن أمثلة (الغزل) الذى كان يأتى به الشاعر فى مستهل قصائده هذا الغزل الذى قدم به لقصيدة نظمها كذلك فى مدح القاضى الفاضل . ومنه قوله :

فراق قضى للهم والقلب بالجمع
وهجرٌ تَولّى صُلحَ عينى مع الدمع
وربع لذات الخال خال وربما
شُغِلتُ بِهَمى عن مسائلة الربع
فسبحان ربى قد ممت همة النوى
وطالت إلى أن فرقت ساكنى جمع

وفى الحىّ من صيَّـرتُـها نصب خاطرى
فما أذنت فى نازل الشوق بالرفع (١)
من العربياتِ المصونات بالذى
أثارتْهُ خيلُ الغائرين من النقع
تَتيه بفرع منـــه أصْلُ بليتى
ولم أرَ أصلاً قط يُعْـزَى إلى فرع
فكم تركت فى ذلك الحى ميِّتا
وكم حُمِلَتْ فيها الضلوع على ضلع
سقى الله أيام الوصال مدامعى
عليها وإن أسرفن فى الهطل والنبع
زماناً تقود اللهوَ فيه يدُ المنى
ويرى التراضى صحةَ الصدّ بالصدع
ولا نائلُ الحسناءِ نزْرٌ ولا النوى
تُجاهر فينا دولةَ الوصلِ بالخلْعِ

ثانياً : ابن نباتة المصرى

قال عن نفسه إنه ولد بمصر فى ربيع الأول سنة ست وثمانين وستمائة للهجرة بجهة يقال لها (زقاق القناديل) .

وقد كان زقاق القناديل هذا مقام أشراف الناس وأعيانهم فى زمانه

---

(١) فى البيت طباق بين (نازل) ورافع ، وفيه كذلك استخدام لألفاظ من النحو على سبيل التوجيه وهو نوع من أنواع البديع المعروفة فى ذلك العصر .

وعاش ابن نباتة ما عاش وهو لا ينسى حلاوة الأيام التى قضاها فى شبابه ولهوه وفراغه . وفى ذلك يقول :

واهاً لأيامى التى سلفتْ ... ما بين ذاك النعيم والفرح
لا يُنزِلُ الدهر من يدى قدحاً ... كأننى صورةٌ على قدح !!

وأبوه (شمس الدين بن نباتة) كان من أشياخ الحديث بدمشق . وترجم حياته صلاح الدين الصفدى فى كتابه المعروف (بالوافى بالوفيات) . وتوفى سنة ٧٥٠ هـ . ومن أجداد هذا الشاعر عبد الرحيم ابن نباتة الخطيب المتوفى سنة ٣٤٧ هجرية . وكان مقدماً فى علوم الأدب ويقال إن خطبه لم يعمل مثلها فى موضوعها . وكان خطيب حلب وخدم سيف الدولة الحمدانى . وكان هذا البطل كثير الغزوات . فأكثر ابن نباتة من خطب الجهاد فى سبيل الله . وكان لهذه الخطب فعل الإذاعة والدعاية فى أيامنا هذه .

ومن هنا كان شاعرنا كثير الفخر بآبائه وأجداده . وهو محق فى فخره هذا . وانظر إليه حين يقول :

ورثتُ اللفظ عن سَلَفى وأكرمْ ... بآلِ نباتةَ العزُّ السَراةُ
فلا عَجَبٌ للفظى حين يحلو ... فهذا القطر من ذاك النبات !

وانظر إليه حين قال فى ختام قصيدة مدح بها علاء الدين ابن الفضل :ـ

خذها منظمة الأسلاك معجزة ... بالجوهر الفرد فيها كل نظّام
مصرية من بيوت الفضل ما عرفت ... فيها بنسبة جزار وحمامى

يريد أن يقول أنه بيت عريق وإنه ليس كأبي الحسن الجزار أو نصير الدين الحمامى وغيرهما من الشعراء الذين لا نسب لهم ولا حسب .

ولد ابن نباتة فى عهد الملك المنصور قلاوون. ومات فى عهد السلطان الأشرف شعبان . أى أنه عاش فى عصر كثير الفتن والأحداث . أو عصر انقسم فيه أمراء المماليك على أنفسهم ، وكثرت الدسائس والمؤامرات ، كما كثر اعتقال الكبراء ومصادرة أموالهم وقتلهم ونحو ذلك .

ثم لا ننسى التتار وخطر التتار . فقد كان هذا الخطر يهدد البلاد ، ويدعها فى حالة سيئة من الخوف والجزع والتوتر .

وجاءت المجاعة التى منيت بها مصر إذ ذاك فكانت ثالثة الأثافى التى احترقت بنارها البلاد المصرية فى تلك الفترة .

من أجل هذا رقت نفس ابن نباتة واضطربت أعصابه ، واحتد مزاجه ، وأصبح رجلا أدنى إلى الخوف والجبن منه إلى الشجاعة ورباطة الجأش .

وقد كان لكل هذه العوامل أثرها الواضح فى شعره . فقدم لنا هذا الشعر صورة رجل يحب الدعة ويؤثر السلامة ، ولا يهاجم أحداً من الناس ولو هاجمه ، ولا ينقض عملا من الأعمال حتى ولو كان فيه ما يتعارض والصالح العام . خلا ديوان هذا الشاعر خلواً تاماً من الهجاء ومن الحماسة . وخلا حتى من العتاب إلا ما كان رقيقاً أقرب إلى المدح منه إلى الذم . وانظر إلى قوله يعتب على صديق له :

لئن ضاع مثلى عنـــد مثلك إننى
لعمر المعالى عنــد غيرك أضيع
متى تنجع الشكوى إذا أنا لم أجد
لديك اعتناء غـــير أنك تسمع
وما كان صعباً لو مننت بلفظة
ترد بهـــا عنى الخطوب وتردع
وقلت امرؤ للشكر والأجر قابل
وللبر فيــه والصنيعة موضعُ
ومغـــترب من قومه ودياره
أساعـده والله يُعطى ويمنع

هكذا عاش ابن نباتة حياته متطامن النفس ، أدنى إلى الاستسلام الاستكانة منه إلى الجرأة على الحياة والأحياء . مع من أن القدر فر له كثيراً من الفرص التى كان يستطيع بها منافسة النظراء ، بل زاحمة الكبراء بالمناكب . وليس أدل على استكانة ابن نباتة من قوله صف نفسه :

قل عونى على الزمان فأصبحـ ـت صبوراً على مراد الزمان
حابس اللفظ واليراع عن النا س فلا من يدى ولا من لسانى

وما زال هذا التعبير الأخير (لا من يدى ولا من لسانى) من التعبيرات الشعبية التى يوصف بها الضعيف المؤثر للسلامة إلى يومنا هذا .

وكان ابن نباتة في شبابه على شيء من اليسر والغنى. فاستمتع بالحياة في مصر كما ينبغي أو أكثر مما كان ينبغي . فلما نفد ما معه من المال ، ونبت به الأوطان فكر في الرحيل عن مصر إلى الشام ، وأخذ يتنقل من مكان إلى مكان . فمرة يلتحق بالملك المؤيد صاحب حماه ، ومرة يتصل بابنه الأفضل وهكذا ، ورؤى في إحدى المرات يعمل تحت رياسة شهاب الدين ابن فضل الله بدمشق .

على أن الشاعر في أثناء هذا كله كان لا يفتأ يذكر مصر ، ويحن إليها حنينا عظيما كما ترى في قوله :

قسما ما حُلْتُ عن عهد الوفاء بعد مصر لا ولا نيلِ بكائى

حبها تحتى وفوقى ويمينى وشمالى وأمامى وورائى !

وهكذا كان حب مصر قد ملك على الشاعر نفسه وأحاط به من جميع جوانبه . فهو لا يجد من هذا الحب مناصا ، ولا من مصر فكاكا . وكان يرى أن مصر بلد الخير والغنى والرى والشبع . وفي هذا يقول :

غاب ذو الفضل في حمى مصر عنا
فهنيئا له حمى النَّعْماءِ
تسقط الطير حيث تلتقط الحـ
ـبَّ وتغشى منازل الكرماء

واسمع إليه يقول :

آها لمصر وروض مصر وكيف لى
بديار مصر مراتعا وملاعبا

حيث الشبيبةُ والحبيبةُ والوفا   فى الأقربين مشاربا وأصاحبا
والدهــرُ سَلِمْتُ كيفما حاولتَهُ
لا مثل دهرى فى دمشقَ مُحارِبا
ويقول :
يا سارى البرق فى آفاق مصر لقد
أذكرتنى من زمان النيل ما عَذُبا
حدِّث عن البحر أو عنى ولا حرجٌ
وانقل عن النار أو قلبى ولا كذبا
واندب على الهرم الغربى لى عُمراً
فحبــذا هرما فارقتــهُ وَصِبا
ويقول :
تذكرت مصراً والأخلاَّءَ والدهرا
سقى اللهُ ذاك السَّفح والناس والعصرا
وقالت ظنونى فى الشآم ادعُ لذةَ
فقالَ لها ماضى الزمانِ : اهبطوا مصرا

وزحف ابن نباتة إلى الشيخوخة . وكان من حقه أن يستشعر فيها شيئا من الراحة . ولكنه لم يحظ بذلك . بل ضاقت به الحال حتى كان يسأل الممدوح خبزا ويسأل الآخر دارا للسكنى !

وانظر إليه إذ يقول :
لقــد أصبحت فى حال   يرقُّ لمثلها الحجــر
مشيبٌ وافتقارٌ يــدٍ   فلا عــينٌ ولا أثرُ

وإذ يقول :

تركت المال والجاه   لأهل القدر والقُدرة
فحسبيَ من حمى كِسْرٌ   وحَسْبي من غِنى كِسْره

وإذ يقول :

لقد أصبحتُ ذا عمر عجيب   أقضِّى فيه بالأنكاد وقتى
من الأولاد خمس حول أم   فواحزناه من خمس وستِ

وإذ يقول :

مولاى إن الحال قد وصلت إلى
سطرين من بيتين قد ضمنتها
لم يبق عندى ما يُباع بدرهم
إلا بقية ماءِ وجهِ صُنتُها

وانظر إليه يقول وقد سئم شعر المدح :

أفى كل يوم أنت حامل مدحة   إلى المجد غاد بالعطا المتواتر
فياليت شعرى والمطامع جمةٌ   إلام يَرَاك المجد فى زى شاعر؟

فن ابن نباتة

إذا نظرت فى شعر هذا الرجل وجدته يزخر بأنواع شتى من البديع . من جناس إلى طباق إلى اكتفاء إلى مراعاة نظير . ولكن أكثر الأنواع البديعية شيوعا فى شعره هى :

التضمين ، والتورية ، والاكتفاء ، والسهولة التى قلنا إنها ضرب من ضروب البديع اشتهر به المصريون . وسنضرب الأمثلة البسيطة على كل نوع من الأنواع المتقدمة :

فن التضمين

ومنه قوله من قصيدة له فى رثاء قاضى القضاة تاج الدين السبكى :

نعاه للفضل والعلياء والنسب
ناعيه للأرض والأفلاك والشهب
بينا وفود الندى منهلة مننآ
إذْ نازلتنا الليالى فيه عن كثب
وأقبلتْ نوب الأيام ثائرة
(إذ كان عونا على الأيام والنوب)
قالت دمشق بدفع النهر واخـبرا
(فزعت فيه بآمالى إلى الكذب)
(حتى إذا لم يَدَعْ لى صدقه أملا)
(شَرِقْتُ بالدمع حتى كاد يشرق بى)
وكلمتنا سيوف الكتبَ قائلة
(والسيفُ أصدق إنباء من الكتب)

وقوله (وفيه مع التضمين تورية) :

ترك الأسى إنسان عينى بعدكم
أبدا يُغادى لوعةً ويراوح
تعبان ذا سنٍ وسح مدامع
(يا أيها الإنسان إنك كادح)(٢)

---

(١) التورية فى قوله (إنسان) فهى بمعنى الإنسان العادى كما تذهب إلى ذلك الآية الشريفة وبمعنى إنسان العين وهو ماعناه الشاعر

وقوله :

قف بالحمى بعد البدور وناد
(أرأيت كيف خبا ضياء النادى)
ومحاملٍ ظعنت ببهجة ناحل
(أرأيت من حملوا على الأعواد)

وقوله فى معرض الرثاء :

وعيشك يايحيي لو انك تفتدى (لهنئت الدنيا بأنك خالد)

وقوله فى معرض المدح :

وأنت الذى قرّت برؤيته العلا
(وهنئت الدنيا بأنك خالد)

ومن التورية

قوله :

قل لوزير الشآم يا من مدَّ يَدَ الجود للأنام
ما سرق المادحون وصفا فيك فلا تقطع الأيادى(١)

وقال وفيه تورية باسمه هو :

يقول رجائى لما دعا نَدَاك لهبّات تلك الهبات
تَنَاسَبَ حال الندا والرجا فهذا الغمام لهذا النبات(٢)

(١) التورية فى قوله (الأيادى) فهي بمعنى الأكف التى يحل قطعها بالسرقة وبمعنى النعم التى ينتظرها الشاعر من الممدوح .

(٢) التورية فى قوله (النبات) وهي واضحة .

وقال يرثى ولده عبد الرحيم :

يا لهف قلبي على عبد الرحيم ويا
شوق إليه ويا شجوي ويا دائى
فى شهر كانونَ وافاه الحمامُ لقد
أحرقتَ بالنار يا كانون أحشائى

وقوله :

يا غائبين تعللنا لغيبتهم
بطيب لهو ولا والله لم يطب
ذكرت والكأس فى كفى لياليكم
فالكأس فى راحة والقلب فى تعب[١]

ومن الاكتفاء

قوله :

فديت بليغا أهّلتنى سطوره
لأجنحةٍ تسمو سمو الأهلّةِ
فأقطف من أوراقه الأدبَ الذى ...
وأسمع من ألفاظه اللغة التى ...[٢]

(١) التورية فى قوله (راحة) فهي بمعنى راحة الكف وهي بمعنى الراحة التى هى ضد التعب .

(٢) تكملة الشطر الثانى من البيت هكذا :

وأسمع من ألفاظه اللغة التى يلذ بها سمعي ولو ضمنت شتمي

وقوله :

في شعر مولانا السنا العالي وفي
إنشائه الأسنى مزاج القهوة
فمتى تقل بيتا فقل إن الذي
ومتى تقل سجعا فقل إن التي(١)

ومن السهولة

وهي كثيرة في شعر ابن نباتة ، على أنها نوع من أنواع البديع كما اتفقنا قوله :

يا قلبُ أنتَ ومُقلتي ... مُتحَاربان كما أرَى
هاتيك تمنعك الهدو ... ء وأنت تمنعها الكرى
وأنا الذي قاسيت بيـ ... نكما العذابَ الأكبرا
كُفَّا المدامعَ والأسى ... فلقد كفى ما قد جرى
لا آخَذَ الرحمن مَن ... مَلكَ الحشا فتجبَّرا
قابلتُ رونق خده ... فصبغت دمعي أحمرا
يا ناعس الأجفان قد ... حكم الهوى أن أسهرا

---

(١) ربما كانت الإشارة في الشطر الأول إلى قول الفرزدق :

إن الذي سمك السماك بنى لنا ... بيتا دعائمه أعز وأطول

وربما كانت الإشارة في الشطر الثاني منه إلى قول جرير :

إن التي زعمت فؤادك ملها ... جعلت هواك كما جعلت هوى لها

ما كان أربحَ عاشقاً لو أن وَصْلكِ يُشترى

وقوله

وتاجر قلت له إذْ رنا رفقا بقلب صَبرُهُ حائر
ومقلة تنهب طيب الكرى منها على عينيك ياتاجر(١)

وقوله :

يامَنْ يُعَلِّنُى بوصل مدامة
عن وصل من همى به يتكاثر
لون المدام كما تراه وإنما
خد الذى أهواه لون آخر

ثالثا — الشهاب الخفاجى

وهو أحمد بن محمد شهاب الدين الخفاجي المصرى . ولد بقرية سرياقوس . وتلقى دروسه بالقاهرة . ثم رحل مع أبيه إلى الحرمين ، ثم إلى الآستانة . ثم عادا معا إلى القاهرة حيث عينه السلطان مراد قاضياً للعسكر بمصر . ثم استقال وسافر إلى دمشق ، ومنها إلى حلب . ومن هذه إلى الآستانة مرة أخرى . وتوفى سنة ١٠٩٦ للهجرة .

كان أديبا عالما شاعرا كاتبا . ومن أشهر مؤلفاته « ريحانة الألباء »

---

(١) السهولة فى هذا البيت آتية من استخدام الشاعر لهذا التعبير الشعبي السائد إلى يومنا هذا ، وهو قولهم « على عينك ياتاجر » .

وهو كتاب اشتمل على تراجم لبعض الأدباء فى زمانه . ومن مؤلفاته كذلك « شفاء الغليل بما فى لغة العرب من الدخيل » جمع فيه طائفة من الألفاظ الدخيلة والمعربة » .

نماذج من شعر الخفاجى

من قوله فى الهتاف بحب مصر والنيل :

إن وَجْدى بمِصر وجد مقيم
وحنينى كما ترَوْنَ حَنينُ
لم يزل فى خيالىَ النيل حتى
زاد عن فكرتى ففاضت عيونى

ومن شعره كذلك (وفيه تضمين) :

يا صاح إن وافيت روضة نرجس
إياك فيها المشى فهو محرم
حاكت عيون معذبى بذبولها
(ولأجل عين ألف عين تكرم)

وقال فى الغزل :

حتَّامَ . يغزونى صدوده والصبر قد كثرت جنوده
لمْ أدرِ : فاترُ جفنه والخصر أسقمُ أم عُهُودُهْ ؟
نشوان يعبث بى كما عبثت بآمالى وعوده

لولا مياه الحسن جا لت فيه لاحترقت خدوده
كالصب لولا دمعه يَهْمِى لأحرقه وقوده
يخفى الهوى وعيونه بغرامه المضنى شهوده
فسقى رياض الحسن من دمعى حَياً يَهْمَى مديده
زمن بجيد اللهو قد نظمت على نسق عقوده
إذ دوح أنسى يانع بكئوسنا انفتحت وروده
والكأس نجم لاح فى فلك المسرَّةِ لى سعوده

هكذا كان شعراء البديع يعتمدون اعتمادا واضحا عليه فى شتى فنونه . فإذا أردنا نحن فهم هذا الشعر وجب علينا أن نكون مزودين بثقافة أدبية واسعة تشمل اللغة والحديث والتفسير والتاريخ والبيان ونحو ذلك . لأن الشاعر من شعراء هذا المذهب يعتمد على هذه الثقافات المختلفة فى توريته ، ويأخذ منها بين حين وآخر عند صياغة هذه التورية . على أن من شعراء البديع فى تلك العصور التى نؤرخ لها من بالغ فى الزينة اللفظية حتى أصبحت لغزا يحار القارىء فى فهمه : فابن نباته المصرى يتلاعب بالألفاظ كما فى قوله :

شجون نحوها العشاق فاءوا وصب ماله فى الصبر راء(١)
ولاحٍ مالهُ هاءٍ وميمٌ له مِنْ صَبوتى ميم وهاءُ (٢)

---

(١) أى أن لفظ (صب) لو أضيف إليه حرف (الراء) لكان عنده (صبر)

(٢) لاح من لحى يلحى بمعنى ذم ولعن . وقوله (ماله هاء وميم) أى ماله هم بمعنى حب . أى أن هم عذولى ليس آتيا من الحب ولكنه آت من العذل واللوم .

وانظر إلى قوله :

آه لشرخ شباب كان لى ومضى
واعتضت شرخا ولكن ماله خاء (١)

ومثل هذا كثير فى شعر ابن نباتة ، وقد أصبح به هذا الشعر إلى اللغز أقرب منه لأى شىء آخر .

وللبديعيين طرق شتى فى التلاعب بالمعانى والألفاظ والأسماء والأفعال يطول شرحها ، ولا نستطيع الإلمام بها ، فحسبنا ماقدمناه من هذه الأمثلة .

(١) إذا حذفت (الخاء) من لفظ (شرخ) أصبح (شر) .

الفصل السادس

مدرسة المعانى فى الأدب المصرى

أتينا فى الفصل السابق على طرف من الشعر الذى قصد فيه إلى التأنق اللفظى ، وتوفرت له القيم التى تناسب التأنق . وفى هذا الفصل نريد أن نعرض لنوع آخر من الشعر لا يقصد فيه الشاعر إلى الأناقة اللفظية قصداً . ولا يمنع ذلك من أن تأتى هذه الأناقة عفو الخاطر .

وقد اشتهر أصحاب هذا النوع الأخير من الشعر باحتفائهم بالمعانى ، وعنايتهم بالمشاعر والإحساسات ، وصرفهم ذلك عن العناية باللفظ أوالبديع وأشباه ذلك من الأمور التى سعى إليها شعراء النوع الأول .

وقد عرفت العصور التى نؤرخ لها من شعراء المعانى كثيرين . كان معظمهم فى العصرين الأيوبى والمملوكى ، وأقلهم فى العصر العثمانى .

ومن شعراء المعانى على سبيل المثال :

البهاء زهير — وهو إمام الجميع فى هذا المذهب من مذاهب الشعر المصرى . وجمال الدين بن مطروح . وهما من شعراء مصر فى العصر الأيوبى .

ثم أبو الحسين الجزار ، والسراج الوراق ، ونصير الدين الحمامى — وهم من شعراء مصر فى العصر المملوكى .

ثم حسن البدر الحجازى ، وابن الصلاحى ، وعبد الله الشبراوى ـ وهم من شعراء مصر فى العصر العثمانى .

وسنبدأ الحديث أولا بإمام هذا المذهب :

البهاء زهير

وهو أبو الفضل ــ وقيل أبو العلاء ــ زهير بن محمد بن على بن يحيى بن الحسين بن جعفر بن منصور الملقب « بهاء الدين زهير » ينتهى نسبه إلى المهلب بن أبى صفرة سيد أهل العراق وشجاعها الذى مات سنة اثنتين وثمانين للهجرة .

ولد شاعرنا بوادى نخلة فى مكة من أرض الحجاز سنة ٥٨١ هجرية . وبالحجاز قضى زهير عهد الطفولة وعهد المراهقة . ثم رحل إلى مصر أول عهده بالشباب ، وكان قلبه لم يزل عالقاً بالحجاز حين قال :

أحنُّ إلى عهد المحصَّبِ من مِنًى
وعيشٍ به كانت ترفُّ ظلالُهُ

وأذكر أيام الحجاز فأنثنى
كأنى صريع يعـــتريه خَبَـالُه

فياصاحبى بالخَيْفِ كنْ لىَ مسعدا
إذا آن من بين الحجيج ارتحالُه

وخذ جانبَ الوادى كذا عن يمينه
بحيث القنا تهتزُّ منــه طِوالُه

هناك ترى بيتاً لزينبَ مشرقا
إذا جئت لا يخفى عليك جلالُه
فعرِّضْ بذكرى حيث تسمع زينبٌ
وقل : ليس يخلو ساعةً منك بالُه
عساها إذا مامرَّ ذكرى بسمعها
تقول : فلانٌ عندكم ؟ كيف حالُه ؟

واختار البهاء زهير — أو اختار له قصر المسافة بين الحجاز والصعيد — مدينة قوص فأقام بها . وكانت قوص يومئذ بيئة أدبية علمية لها خطرها . أو كانت فى المرتبة الثانية مباشرة بعد بيئة القاهرة . وكانت متفوقة على البيئة العلمية الثالثة — ونعنى بها بيئة الإسكندرية — وبحسبك أن تعرف أنه كان فى قوص يوم نزل بها البهاء زهير أكثر من ستة عشر مكاناً للتدريس .

وهنالك فى قوص أتم البهاء زهير علومه حتى نضج ، ثم التحق بخدمة والى المدينة — وهو يومئذ الأمير مجد الدين اللمطى الذى تولى الأعمال القوصية عام ٦٠٧ هـ . وهنأه الشاعر بذلك ، واتصل بينهما الود من ذلك الوقت . وبقى البهاء زهير فى خدمة هذا الوالى إلى ما بعد عام ٦١٨ هـ . ففى تلك السنة وجه الشاعر إلى الأمير قصيدة عتاب منها قوله :

لنا عندكم وعد فهلا وفيتمو
وقلتم لنا قولا فهلا فعلتمو ؟
حفظنا لكم وداً أضعتم عهوده
فشتان فى الحالين نحن وأنتمو

فيا تاركى أنوى البعيد من النوى
إلى أى قوم بعـــدكم أتيمم ؟
ألا إن إقلـــيما نبت بِىَ داره
وقد كثر الإثراء فيـــه لمعدم
وإن زمانا ألجـــأتنى صروفه
لحاولت بُعدى عنكمو لمذمم
وأعـلم أنى غالط فى فراقكم
وأنـكمو فى ذاك مثـلى وأعظـم
ومثلك لا يأسى على فقـد كاتب
ولكنه يأسى عليـك ويندم

وترك البهاء زهير مدينة قوص وأتى إلى القاهرة ، ولعل ذلكُ كان فى عام ٦٢٢ هـ حين اتصل بخدمة الملك الصالح نجم الدين أيوب، فكان رئيساً للكتاب بديوان الإنشاء . ثم قبض على الملك الصالح هذا واعتقل فى قلعة (الكرك). فبقى البهاء زهير وفياً لصاحبه ولم يخدم ملكا سواه ، ولم يزل على ذلك حتى أطلق سراح الملك الصالح نجم الدين ، وعاد فملك الديار المصرية من جديد ، ورجع الشاعر لخدمته وذلك عام ٦٣٧ هجرية وبقى فى هذه الخدمة حتى توفى الملك الصالح .

وهكذا بقى البهاء زهير كاتباً لديوان الإنشاء فى مصر . وهى وظيفة كبيرة . وصاحبها يعد أعظم رجل فى الدولة . وكان يلقب (بالصاحب) والصاحب لقب للوزير إذا كان الوزير من أرباب الأقلام . ومع هذا

وذاك فقد مات البهاء زهير فقيراً ، واضطر قبل وفاته إلى بيع كتبه وكثير من أثاث منزله .

تلك أطراف بسيطة من سيرة هذا الرجل الذى وفد على مصر فى أول شبابه . ومنذ نزلها وأقام بها وهو مفتون بحبها فتنة لا يحسّها إلا كل رجل يحب وطنه أصدق الحب .

وهذا شعره فى الهتاف بحب مصر ينطق بمصريته ، ولا يدع مجالا للشك فى هذه النسبة . ومنه قوله :

ولم أر مصرا بمثـــل مصر تروقنى
ولا مثل ما فيها من العيش والخفض

وبعد بلادى ! فالبـــلاد جميعها
سواء فلا أختـــار بعضاً على بعض

فانظر إلى البهاء زهير كيف يقسم بلاد الله قسمين : أولهما بلده ووطنه مصر ، والثانى منهما غير مصر من بلاد الأرض . وكلها سواء عنده ، فلا ترقى واحدة منها إلى مرتبة الوطن ومن شعره أيضاً فى حب مصر :

سقى وادياً بين العـريش وبرقة
من الغيث هطال الشآبيب هتـان

وحيا النسيم الرطب عنى إذا سرى
هنالك أوطان إذا قيل أوطان

بلاد متى ما جئتها جئت جنة
لعينيك منها كلما شئت رضوان
تمثل لى الأشواق أن ترابها
وحصباءها مسك يفوح وعقيان
فيا ساكنى مصر تراكم علمتمو
بأنىَ مالى عنكمو الدهرَ سلوان
وما فى فؤادى موضع لسواكمو
ومن أين فيه وهو بالشوق ملآن ؟

* * *

وشعر البهاء زهير قسمان :

أولهما الشعر الرسمى الذى قيل فى مدح السلاطين والملوك والأمراء وكبار رجال الدولة .

وثانيهما — الشعر التلقائى أو الذاتى . ومنه الغزل ووصف مجالس الشراب والهجاء والسخرية .

والذى يعنينا أولا هو هذا القسم الأخير . ففيه يتجلى الروح المصرى فى شعر البهاء زهير ، ويظهر تأثره بالبيئة المصرية ، والمزاج المصرى ، والعادات المصرية ، والخلق المصرى

الروح المصرى فى شعر البهاء زهير:

إن من يقرأ شعر البهاء زهير لا يصعب عليه مطلقا أن يستجلى فيه الروح المصرى . وهو روح يطالع القارىء بخصائصه ، ويدل على نفسه ، ويشرح طريقة الشاعر فى التعبير عنه .

وإذا أردنا أن نضع إصبعنا على مفتاح النور الذى يكشف لنا عن هذا الروح وجدنا ذلك المفتاح فى شىء واحد فقط هو :

شعبية البهاء زهير ومظاهرها فى شعره :

ونعنى بها قدرته على مزج نفسه بالشعب ، وحرصه على أن يكون قطعة لا تنفصل عن هذا الشعب . وليس كل الناس قادرا على شىء من ذلك . لأن (الشعبية) فى الواقع موهبة من المواهب التى يفتح الله بها على بعض الأدباء فيحسون إحساس قومهم من غير تكلف ويؤثرون تعبيراتهم وأساليبهم من غير تكلف ؛ حتى إن أحدهم لو حاول اعتزال قومه ، أو التعالى عليهم وعلى لغتهم وأساليبهم فى الحياة والتفكير لما استطاع .

ونحن نعلم أن الشعب الذى امتزج به البهاء زهير هو الشعب المصرى وأن البيئه التى عاش فيها منذ بداية شبابه إلى آخر شيخوخته هى البيئة المصرية . فلا غرابة بعد ذلك فى أن نجد شعر البهاء زهير مرآة صادقة تنعكس عليها اللغة التى يصطنعها ذلك الشعب .

ولقد عاش فى مصر فى عصر البهاء زهير شعراء كثيرون لم تكن

لم مواهبه ولا كانت لهم شعبيته ، بل كانوا يمثلون الأرستقراطية فى العلم ، وفى الفكر ، وفى النظم ، وفى النثر جميعا . ولم يستطع أحدهم أن يكون مرآة للشعب المصرى أو الأدب المصرى بقدر ما كان صدى للعالم الإسلامى ، والأدب الإسلامى .

عاش فى مصر فى ذلك العصر أدباء عظماء كالقاضى الفاضل ، والعماد الأصفهانى، وابن سناء الملك ، وابن النبيه المصرى ، وابن نباتة وغيرهم ، وإذا ذهبت تقرأ شعرا لأحد هؤلاء أعياك الوصول إلى أثر البيئة المصرية ، والطبيعة المصرية ، والمزاج المصرى ، والروح المصرى .

أما البهاء زهير فلشعبيته التى نتحدث عنها فى الشعر مظاهر شتى منها :

السهولة :

وربما كان لجمال هذه الميزة فى الشعر وجدنا رجال البديع يعتبرونها نوعا من أنواع البديع . وكان المصريون هم أول من جنح إلى هذا التفكير .

والسهولة التى امتاز بها شعر البهاء زهير ضرب من الموسيقى العذبة ، والانسياب اللطيف ، والبساطة التى هى عين الجمال الأدبى . ومن الأمثلة عليها قوله :

أنا فيما أنا فيه ... وعذولى يتعتب
أنا لا أصغى لما قا ... ل فيرضى أو فيغضب
ياحبيبى يانديمى ... والليالى تتقلب
هات فيما نحن فيه ... ودع العاذل يتعب

وقوله :

من اليــــوم تعارفنا ونطوى ما جرى منا
فلا كان ولا صار ولا قلتم ولا قلنا
وإن كان ولا بد من العتب فبالحسنى
فقد قيل لنا عنكم كما قيل لكم عنا
كفى ما كان من هجر فقد ذقتم وقد ذقنا
فما أحسن أن نرجع للود كما كنا

الأمثلة الشعبية فى شعر البهاء زهير

ثم إن من شعبية البهاء زهير إيراد الأمثلة العاميه فى شعره ودورانها فيه بكثرة دون أن يضر ذلك بالشعر نفسه . من ذلك قوله :

إياك يدرى حديثا بيننا أحد
فهم يقولون : للحيطان آذان

وقوله :

من لى بنومى أشكو ذا السهاد له
فهم يقولون : إن النوم سلطان

وقوله :

تشق ومن تشق له غافلُ
كأنك الراقص فى الظلمة

وقوله :

ياقضيبا من لجين ياملـيـــح المقلتين
كل ما يرضيك عنـدى فعلى رأسى وعينى

وقوله :

جئت فى حاجة فعزَّتْ علينا ووددنا قضاءها واشتهينا
حاجة مالنا إليها سبيل ولعمرى لقد يعزُّ علينا(١)

وقوله :

سمع النـــاس وقلنا وافتضحنـــا واسترحنا
بت والبـــدر نديمى ففعلنـــا وتركنا (٢)

وقوله :

أصبحت لا شغل ولا مزرعة مذبذبا فى صفقة خاسرة
وجملة الأمر وتفصيـــيله أن صرت لا دنيا ولا آخره

وقوله :

غبت عنا فما الخـــبر ما كذا بيننـــا اشتهر
أنا مالى عـــلى الجفا لا ولا على البعد مُصطبر

---

(١) الشاهد فى قوله : لقد يعز علينا . فهو من مألوف كلامنا فى الحياة اليومية إلى الآن .

(٢) الشاهد فى قوله : ففعلنا وتركنا . فذلك مما تعودنا عليه فى أحاديثنا اليومية إلى الآن .

وقوله :

أرحنى منك حــــتى لا   أرى منظرك الوعرا
فقـــــد صرت أرى بعد   ك عى الراحــــة الكبرى
فما تنفع فى الدنيــــا   ولا تشفع فى الآخـــــرى

وقوله :

لى منزل إن زرته   لم تلق إلا كـــــرمك
وإن تسل عمن به   لم تلق إلا خـــــدمك

هكذا تتصفح ديوان البهاء زهير فنجده مملوءا بهذه العبارات الشعبية التى نسمعها إلى يومنا هذا عند الخاصة والعامة . وقد كان الشعراء يتأبون دائما أن ينزلوا بشعرهم إلى حيث يصطنعون أمثال هذه العبارات ولكن البهاء زهير كان فيه من خفة الروح ورحابة النفس ومرونة التعبير وصفة الشعبية أو الديموقراطية ما أعانه على الرقى بهذه « التعبيرات البلدية إلى مرتبة الشعر .

ثم كان من مظاهر الشعبية المصرية فى شعر البهاء زهير (كثرة الحلف) حتى لقد قال :

ووالله ما فارقتكم عن ملالة   ووالله ما أحتاج أنى أحلف

الغزل عند البهاء زهير

ومن هذا المعين المصرى نفسه صدر البهاء زهير فى غزله الذى جاء بعيدا عن التكلف كل البعد، جاريا على طريقة حوارية تشبه طريقة عمر

ابن أبى ربعة . ولكنها مع ذلك طريقة تدل على البيئة المصرية لا البيئة الحجازية .

وانظر إلى قوله :

وزائرة زارت وقد هجم الدجى
وكنت لميعاد لها مترقبا
فما راعنى إلا رخيم كلامها
تقول : حبيبي قلت : أهلا ومرحبا
فقبَّلتُ أقداما لغيرى مامشت
ووجهاً مصوناً عن سواى محجبا
سأشكر كل الشكر إحسان محسن
تحايل حتى زارنى وتسببا
حبيب لأجلى قد تمنَّى وزارنى
وما قيمتى حتى مشى وتعذبا !!

وانظر كذلك إلى قوله مداعباً على طريقة شعبية مألوفة :

مولاى يا قلبي العزيز ويا حياتى الغاليه
إنى لأطلب حاجة ليست عليك بخافيه
أنعمْ علىَّ بقبلة هبة وإلاَّ عاريه
وأعيدُها لك — لا عدمت بعينها وكما هيه
وإذا أردت زيادة خذها ونفسى راضيه

وقد يجرى الغزل البهائى مجرى الحديث العادى بين صديقين ظريفين كما فى قوله :

سيدى قلبي عنـدك سيدى أوحشت عبدك
سيدى قل لى وحـدا نى متى تنجز وعدك ؟
أترى تذكر عهدى مثلما أذكر عهدك ؟
أم ترى تحفـظ ودى مثلما أحفظ ودك ؟
قم بنا إن شئت عندى أو أكن إن شئت عندك
أنا فى دارى وحـدى فتفضل أنت وحـدك

ثم اسمع إلى قول البهاء زهير :

يا أعز الناس عندى وعلىّ وحبيباً هـو منى وإلىّ
ليت مولاى بحالى عالم وبما عندى منه ولدىّ
ما له أصبح عنى معرضا تحت ذا الإعراض من مولاى شىّ
ياحبيبى أين ما أعهده يا ترى ماذا الذى زاد علىّ

والشاهد فى قوله (تحت ذا الإعراض من مولاى شىْ) وقوله (يا ترى ماذا الذى زاد علىّ) فهما من لغة الناس اليومية رفعهما البهاء زهير إلى مرتبة الشعر .

السخرية عند البهاء زهير :

وكالغزل البهائى نجد كذلك السخرية فهى هجاء لا إفحاش فيه ولا إقذاع . وإنما هى من نزاهة اللفظ بحيث تقرؤه العذراء فى خدرها

فلا يقبح منها كما قلنا . بل إن هجاء هذا الشاعر المصرى فى الواقع ليس إلا ضرباً من الفكاهة المصرية والدعابة الشعبية التى تحار فى تسميتها ، فلا تجد لها غير لفظ واحد يستخدم فى أوساطنا المختلفة فى وقتنا هذا وهو لفظ « التريقة » وهى شىء غير التعريض والتندر ونحوها فى الأدب العربى . فماذا نسمى قوله متهكما بامرأة :

كم ذا التصاغر والتصابى   غالطت نفسك فى الحساب
لم تبق فيك بقيـــــة   إلا التعلل بالخضـــاب
لا أقتضـــيك مودة   رُفع الخراج عن الخراب

وماذا نسمى قوله يذم عائدا عاده فى مرضه :

وعائد هو سقم   لكل جسم صحيح
لا بالإشارة يدرى   ولا الكلام الصريح
وليس يخرج إلا   تكاد تخرج روحى !

ثم ماذا تسمى قوله يذم شخصاً بالثقل :

بحق الله متعنى   من وجهك بالبعـــد
فما تصلح للهزل   ولا تصلح للجـــــد
فلا صبحت بالخير   ولا مُسّيتَ بالسعد

بل ماذا تسمى قوله يذم عالماً من علماء الدين :

كلمـــــا قلت استرحنـــا   جاءنا الشيــــخ الإمام
فاعترانا كلنـــــا منـــه   انقبــــاض واحتشام
وعلى الجمـــلة فالشـ   ـيخ ثقيــــل والسلام

ثم ماذا نسمى قوله فى هجاء رجل ذى لحية :

وأحمق ذى لحيـــــة كبيرة منشــــره
طلبت فيها وجهــــه بشـــدة فلم أره
تبا لها من لحية كبيرة محتقــــره
مضحكة ما كان قط مثلهـــا لمسخــــره
فلو مضى السوق بها وزفهـــا بالمزمره
لحصّلت له مغــلّ ضيعـــــة موفّره

ثم ماذا تسمى قوله مداعباً صديقاً له :

لك يا صـــديق بغــلة ليست تساوى خــردله
تمشى فتحسبها العيــــو ن على الطريق مشكّله(١)
وتخـــال مدبرة إذا ما أقبلت مستعجـــله
مقدار خطـــوتها الطو يلة حـــين تسرع أنملة
تهـــتز وهى مكانها فكأنمــا هى زلزلة

هذا هو نوع السخرية الذى نراه فى شعر البهاء زهير . لم يخرج عن كونه مداعبات لطيفة ونكات بارعة ، وتندراً بالناس ، وتفكهاً يعتمد اعتماداً قوياً على عنصر (الشعبية) التى تميزبها الشاعر عن أقرانه .

وفى هذه الأشعار وكثير غيرها مما يوجد فى ديوان البهاء زهير عبارات وأساليب مصريتها أكثر من عربيتها . والشعراء يتابّـون

---

(١) مشكلة من الشكال بكسر الشين وهو القيد يوضع فى رجل الدابة فلا تمشى .

أن يستعملوها منذ القدم وحتى فى هذه العصور ، ويعدون ذلك تبذلا وضعفاً وإخلالا بجمال الشعر وجمال البيان »[١]

والحق أن شعر البهاء زهير يجعلنا ندرك ما بلغه لسان العرب من المرونة والاستعداد للتعبير عن ألوف من دقائق العواطف التى صقلتها مدنية خلفاء صلاح الدين الزاهية .

على مثل هذا النهج سار شعراء آخرون فى العصر الأيوبى منهم (جمال الدين بن مطروح) صديق البهاء زهير . وقد حاول ابن مطروح مجاراة صديقه فى هذا المضمار وإن لم يبلغ منه ما بلغه .

ومن شعر ابن مطروح فى المجال الشعبى الذى تقدم وصفه قوله :

سمعتها تشكى لدايتها[٢] ... شكوى تذيب القلوب والمهجا
تقـول يا دايتى بليت به ... وما أرى من هواه لى فرجا
ومثـل ما بى به ولا عجب ... هوى بقلبى وقلبه امتزجا
فهـل سبيل إلى زيارته ... ولو ركبت البحار واللججا !
فرحت لما سمعت مبتهجاً ... كشارب الراح راح مبتهجاً

ألا ما أظرف هذه القصة ! وما أدلها على الحب الذى امتزج فيه الرجاء باليأس والشوق بالحذر ! ثم هى بعد هذا كله قطعة من الحياة المصرية الواقعة ، والتعبير عنها جاء بطريقة تتفق والروح المصرى الصميم .

---

(١) عبارة وردت فى كتاب الأستاذ مصطفى عبد الرازق بعنوان (البهاء زهير)
(٢) الداية المربية وليست بمعنى القابلة كما هو شائع فى استعمالنا الحاضر .

وندع العصر الأيوبي إلى العصر المملوكي فنلتقي بشاعر شعبي آخر هو :

أبو الحسين الجزار :

يحيي بن عبد العظيم من شعراء الفسطاط ، ولهؤلاء الشعراء مذهب خاص بهم يبنون فيه شعرهم على إجادة التشبيه . وأستاذهم في ذلك شاعر هاشمي يقال له (ابن حيدرة العقيلي) .

غير أن أشعار الجزار كان الشبه عظيما بينها وبين أشعار البهاء زهير وأصحابه ، لأن طريقته كانت من أسهل الطرق التي تألفها العامة ولا تنكرها الخاصة لقرب مأخذها وحسن منزعها .

وزار ابن سعيد صاحب كتاب « المغرب » مصر ونزل ضيفاً عند الجزار فأكرمه إكراماً عظيماً سرّ به ابن سعيد فانطلق يثني عليه في كتابه ثناء عظيما ـ وقال :

« وترددت على القاهرة من الإسكندرية فلم تفتني مرة ضيافته التي تشرق عليها أنوار الاعتناء ويسفر محياها عن رونق البر والعطاء وهو على كونه نشأ بين ساطور ووضم[1] ، ولم يرفع له في بيت نباهة ولا مجلس حكم علم من أحسن الناس شكلا وأظرفهم وأحلاهم بياناً وألطفهم . ذو بزة تصلح للرؤساء السراة ، ومروءة لا توجد إلا عند السادة الأباة . وسلني عن ذلك فإني به خبير . وهو الآن على علي ـ وذلك سنة وأربعين وستمائة ـ ممتع بالحياة أطالها الله له فيما يرضاه . ولا أعرف له رحلة

---

(١) الوضم الكتلة الخشبية التي يقطع الجزار عليها اللحم .

ولا خروجا عن الديار المصرية بل اقتصر على التجول فيها من أعلاها إلى أسفلها . وله فى ذلك وفى شرح ما يقاسيه فى العيش شعر كثير . وهو الآن شاعر الفسطاط . كما أن الزكى بن أبى الإصبع شاعر القاهرة (١) » .

وما قيل فى شعر البهاء زهير وابن مطروح يمكن أن يقال مثله فى شعر الجزار . فهو شعر أدنى إلى السهولة من حيث اللفظ ومن حيث المعنى فضلا عن أنه صورة من صور الحياة المصرية فى تلك العصور التى نؤرخ لها . ومن شعر الجزار يسخر من العلم وطلبه :

قطعت شبيبتى وأضعت عمرى
وقد أتعبت فى الهذيان فكرى

ومالى أجرة فيه ولا لى
إذا ما مت يوماً بعض أجر

قرأت النحو تبياناً وفهماً
إلى أن كعت عنه وضاق صدرى (٢)

وفى علم العروض دخلت جهلا
وعمت بخفتى فى كل بحر

فأذكرنى به التفعيل بيتاً
تضمن نصفه الشيخ المعرى

(١) كتاب المغرب لابن سعيد الجزء الرابع الصفحة ١٢١
(٢) كاع عن الشيء — من باب باع — هابه وجبن عنه .

مفـــــاعلتن مفاعلتن فعـــــولن
حديث خـــــرافة يا أم عمرو

وفى نفس هذه القصيدة التى نظمها فى مدح برهان الدين ابن الفقيه قوله :

وإن الشعر دون علاه قدرا ولا سيما إذا ما كان شعرى
لأنى ما قرأت له صحـــاحا ولا نحوا على الشيخ ابن برى
وقد شاركت فى لغـة ونحو بلا علم وشاع بذاك ذكرى
وعيشك لست أدرى ماطحاها وقد أقررت أنى لست أدرى
كأنى مثـــل بعض الناس لما تعلم آيتين فصار مقـرى

وفى هذه الأشعار المتقدمة تتجلى لنا نفس الشاعر فإذا هو رجل ظريف عارف بمقدار نفسه . ولعله من أجل ذلك كان محبباً من الخاصة والعامة فى عصره .

ثم إن شعبية الجزار وظرفه يظهران كذلك فى أشعار له فى صنوف الطعام التى يشتهيها الناس بمصر فى شهر رمضان خاصة ، ومنها الكنافة والقطائف وأنواع أخرى من الحلوى مثل « القاهرية » و « القطارة » بضم القاف و « الخشنكان » وقد تغزل الجزار فى جميع هذه الأنواع بطريقة شعبية لطيفة ومن ذلك على سبيل المثال :

تالله مالثم المـــــراشف كلا ولا ضم المعـــــاطف
بألذ وقعـــــا فى حشا ى من الكنافة والقطائف

بالصـــوم والإفلاس تبـ ـتُ عن السلافة والسوالف [١]
حتـــام أمشى فى طلا ب معيشتى والرزق واقف

ومنها كذلك قوله :

سقى الله أكناف الكنافة بالقطر
وجاد عليها سكر دائم الدر
وتبًّا لأوقات (المخلـــل) إنها
تمر بلا نفع وتحسب من عمرى
ولى زوجة إن تشتهى قاهرية
أقول لها ما (القاهرية) فى مصر [٢]

وفى أشعار هذا الشاعر كذلك ما يدلنا إلى أى حد كان يتألم من حرفة الجزارة ويود لو تركها إلى حرفة أخرى من الحرف كحرفة الأدب ، لولا أن هذه الأخيرة لم يكن يضمن أنها تدر عليه من المال ما يكفى معيشته . أما الحياة أو المنصب فلم يكن له تطلع ما إليهما لأنه لم ينس قط أنه من أسرة عريقة فى الجزارة . ولولا أنه كان خفيف الظل على الناس جميعاً لما أحبه الناس جميعاً . وفيهم الأمراء والوزراء وذوو الجاه والسلطان . وانظر إليه حيث يقول :

أقررت أنى جزار كما ذكروا
عنى فهل غير هذا القول عندهم ؟

(١) السلافة الخمر . والسوالف جمع سالفة وهى رقبة الحسناء .

(٢) القاهرية نوع من الحلوى كما تقدم ذلك والتورية واضحة فى البيت .

فاللحم والعظم والسكين يعرفني
والخلع والقطع والساطور والوضم

وإلى قوله :

أنا فى راحة من الآمال أين من همتى بلوغ المعالى
لى عجز أراح قلبى من الهم ومن طول فكرتى فى المحال
طاب عيشى والحمد لله إذ كنـ ـت له حامداً على كل حال
ما لباس الحرير مما أرجـ ـيه فيرجى ولا ركوب البغال
راحة السر فى التخلف عن كل محل أضحى بعيد المنال

ومع هذا وذاك فالظاهر أن أبا الحسين الجزار جرّب حظه وترك الجزارة واشتغل بالشعر يمدح به الكبراء على عادة الشعراء فى زمانه . فعجز الشعر عن أن يقوم به فى حياته ، وشكا ذلك إلى ممدوحيه ومنهم الفقيه ابن نصر قائلا له :

بك يا ابن نصر جئت أر جو نصره فانعم وبادر
وأجره من زمنى الذى دارت به علىّ به الدوائر
أصبحت فى أمرى — ولا أشكو لغير الله — حائر
واللحم يقبح أن أعو د لبيعه والشعر بائر
يا ليتنى لا كنت جزا راً ولا أصبحت شاعر

من أجل ذلك لم يكن عجيباً أن ترى الشاعر بعد ذلك يترك حرفة الأدب ، ويعود إلى حرفته الأولى وهى الجزارة . وفى ذلك يقول هذه الأبيات :

لا تلمنى ياسيدى شرف الد ين إذا ما رأيتنى قصَّابا
كيف لا أشكر الجزارة ما عشـ ـت حفاظا وأرفض الآدابا ؟
وبها أضحـــت الكلاب ترجـ
ينى وبالشعر كنت أرجو الكلابا

ونلاحظ أن صفات السهولة والفكاهة وإيثار المعانى القريبة من أفهام الشعب — وهى الصفات التى امتاز بها البهاء زهير — هى نفسها الصفات التى امتاز بها رجل كالجزار .

من ذلك قوله يصف داراً له تهدمت :

ودار خراب بها قد نزلت ولكن نزلت إلى السابعة
فلا فرق ما بين أنى أكون بها أو أكون على القارعة
تساورها هفوات النسيم فتصغى بلا أذن سامعة
وأخشى بها أن أقيم الصلاة فتسجد حيطانها الراكعة
إذا ماقرأت (إذا زلزلت) خشيت بأن تقرأ (الواقعة) !

ومن شعره السهل :

يا هاجرى بلا سبب إلى متى هذا الغضب
كن كيفما شئت فما للقلب عنك منقلب
مثلك من أعتب فى الـ حب ومثلى من عتب
يا مستريحاً لم أنل من حبـــه إلا التعب
تا لله لو ذقت الهوى ماكنت تجفو من أحب
أنكرت ما بى من جوى غالب صبرى فانغلب

يا زمنى هل للوصا ل عودة فترتقب
هيهات أن يرجع من طيب الليالى ما ذهب
والدهر من عاداته أن يسترد ما وهب

على أن من ينظر فى شعر الجزار يجده فى غرضين لا ثالث لهما من أغراض الشعر . وهما الشكوى والمدح . أو بعبارة أخرى يجد أنه شعر بنى على الشكوى ودار من أجلها حول المدح .

والشاعر فى هذا كله يصوغ عبارته الشعرية فى سهولة كسهولة البهاء زهير ، وطريقة فنية تشبه طريقته كل الشبه . وهو بين هذا وذاك لا يبرح يعتمد فى فنه الشعرى على التورية من جانب وعلى بقية الخصائص التى يمتاز بها الشعر المصرى الأصيل من جانب آخر . ومن هذه الخصائص الفكاهة . ومنها كذلك كثرة الحلف . ثم منها إيثار التراكيب الشعبية فى نهاية الأمر . وإليك أمثلة أخرى من شعره توضح ما نقول :

قال يعاتب بعض أصدقائه :

عثرات الناس بالناس تُقَالُ فإلى كم بيننا قيل وقال
سيدى أنت وهبْها هفوة صدرت منى فأين الاحتمال
بالذى عافاك من وجْد به لم يكن للصبر فى صدرى مجال
فى محياى حياء ظاهر حين ألقاك وفى لفظى اختلال
فاعف عنى إن تلجلجت فما لى إن لم تغتفر قول يقال
لا تعاقبنى على ذنب بدا فاعتذارى عنه زور ومحال
عاقب الأعضاء منى كلها ما خلا قلبى فما فيه احتمال !

وانظر إلى قوله أيضا :

أقسم بالله أن شوقى إليك ما فوقه مزيد
كن كيفما شئت فالموالى لا تتساوى بها العبيد

وانظرى إلى الشكوى فى قوله :

يا أيها المولى الرئيس ومن له جود يضاهى الغيث ساعة سكبه
أشكو لعدلك جور دهر لم أزل طول المدى غرضاً لأسهم خطبه
وأشــد ما قاسيت منه أنه عن شكر فضلك قد شغلت بعتبه
فاغفر لعبد قد أتاك وما له حسنات أفعال تقوم بذنبه
بالله يقسم والنبي وآله الا أطهار أصحاب العَبَا وبصحبه(١)
ما بات فى ذا العيد يملك درهما وكفاك أن الشعر أعظم كسبه
فتراه ينشــد حسرة وتأسفا من همه لعــدوه وبحبه

وانظر إلى هذا البيت الأخير فإن الشاعر يصرح فيه بأن هموم الزمان هى ماتضطره دائماً إلى مدح الناس سواء منهم العدو والحبيب .

وانظر إليه يمدح جمال الدين بن مطروح من كبار شعراء الدولة الأيوبية :

أغنيتنى من بعد فقرى ورفعت بعدَ الخفض قدرى
وأنلتنى مننــا يقل لكثرها حمدى وشكرى
أصبحت يا مولاى من نعماك أسعد أهل عصرى
وغفرت لما أن وصلت إلى جنابك ذنب دهرى

(١) يشير إلى ما روى عن الشيعة من أن الرسول صلوات الله وسلامه عليه ألقى على فاطمة وعلى الحسن والحسين عباءته وقال : نحن آل البيت الخ .

وأرحتنى من حرفة تردى بصاحبها وتزرى

ويقول فى المدح أيضاً :

به انتصرت على جور الزمان وهل
يزلّ من بات بالأنصار ينتصر

حسبى اعتمادى على بيت مكارمه
فى الدهر يخبر عنها البدو والحضر

قوم بقولِ رسول الله فضلهمُ فى الجاهلية والإسلام مشتهر

قيس بن سعد وما أدراك جدّهمو
إن الأصول عليها ينبت الشجر

معنى ذلك أن المدح عند أبى الحسين الجزار مصدره الشكوى وحدها ، فهو لا يمدح إلا من يعينه على ظلم الأيام وهو يقسم دائما قصيدة المدح قسمين لا ثالث لهما :

الشكوى أحدهما والمدح ثانيهما ويقف عند هذا الحد .

ولقد أسرف الجزار فى الشكاية حتى أوشك أن يكون بعض شعره نوعا من الشحاذة . وانظر إلى هذه الأبيات :

يا جمال الدين لى حـــق على المـــولى وحرمه
وولاء أكدته خدمة تتبع خـــدمه
وبمملوكك هـــم لا يطيق الآن كتمه
هجم الـــبرد عليه هجمة من بعـــد هجمه
لا تسل عنه فقد فصـــل هـــذا الفصل عظمه

وله أثر لحـــــاف محت الأيام رسمـــــه
مـــــات بردا والذى وراءه ما أتقن ردمه
فهو إذ ينبش منـــــه فى بقايا القطن رمّه

* * *

أما (التورية) فهى كثيرة فى شعره . وانظر إلى قوله يخاطب هاشميا منحه قدرا من القمح فوجده قديما :

كتبت لنا بذاك السُّبر برا وقصدا فى الثناء وفى الثواب
فكدر صفوه الكيال حتى بقينا منه فى امر عجـــاب
وجـدناه عتيقا وارتضينا به إذ عاد وهو أبو تراب

ففى قوله (أبو تراب) تورية إذ هو كنية على بن أبى طالب .

وانظر إلى قوله يخاطب الأمير شرف الدين يعقوب :

يا أيهـا المولى الذى لندى كفيه كل الجـــود منسوب
لاغرو إن أصبحت تأمر بالصـ ـبر الجميل وأنت يعقوب

أما (السخرية) فكثيرة كذلك فى شعره . ومنها قوله يذم رجلا اشتهر بالبخل :

لا يستطيع يرى رغيـ فا عنده فى البيت يكسر
فلو انه صـــــلى وحا شاه لقـــال : الخبز أكبر !

ولأبى الحسين الجزار معان لطيفة فى شعره نبه على بعضها ابن سعيد الأندلسى فى كتاب (المغرب فى حلى المغرب) ومنها قوله :

من منصفى من معشر كثروا على وكثروا
صادقتهم وأرى الخرو ج من الصداقة يعسر
كالخط يسهل فى الطرو س ومحوه متعسذر
واذا أردت كشطته لكنّ ذاك يؤثر !!

* * *

وأما فى العصر العثمانى فقد ظهر شعراء منهم الشيخ حسن البدرى الحجازى ، والشيخ عبد الغنى النابلسى ، والشيخ مصطفى اللقيمى الدمياطى ، وابن رضوان السيوطى المشهور بابن الصلاحى ، والشيخ عبد الله الأدكارى ، والشيخ عبد الله الشبراوى ، وسنكتفى بالإشارة هنا إلى البدرى الحجازى ، وابن الصلاحى ، وعبد الله الشبراوى :

حسن البدرى الحجازى :

واشتهر هذا الشاعر بنقده الحياة الاجتماعية فى العصر الذى انتسب إليه ، وهو العصر العثمانى . وقد أعجب به أدباء عصره إعجاباً كبيراً واستحسنوا طريقته فى الشعر . ومن هؤلاء الذين أعجبوا به الشيخ الجبرتى صاحب التاريخ المعروف قال : « وله فى الشعر طريقة بديعة ، وسليقة منيعة ، على غيره رفيعة » . وقلما تجد فى نظمه حشوا أو تكملة . وله أرجوزة فى التصوف بلغت نحو ألف وخمسمائة بيت على طريقة (الصادح الباغم) ضمنها أمثالا ونوادر وخطابات . وله ديوان على حروف المعجم بعنوان (باسمين تنبيه الأفكار للنافع والضار) . وله ديوان بعنوان (إجماع الإياس من الوثوق بالناس) شرح فيه حقيقة

شرار الخليقة من الناس المنحرفة طباعهم عن طريقة تقويم القياس . وقد استشهدت بكثير من كلامه فى هذا المجموع (يريد كتابه المعروف فى التاريخ) بحسب المناسبة وفى بعض الوقائع والتراجم . وله مزدوجة سماها (الدرة السنية فى الأشكال المنطقية) وختم ديوانه بأراجيز بديعة ضمنها نصائح ونوادر وأمثالاً واستغاثات ألخ ... » .

ثم أتى الجبرتى بطائفة كبيرة من شعر الشيخ حسن البدرى الحجازى وإليك أمثلة منها : قال متهكما من الصوفية :

احذروا لى التسبيح والسبحة — والصوف والعكاز والشملة
والدلق والإبريق لا سيما — شيوخ أبليس أولى الشعرة
حوت أباليس بتعداد ما — حوت شعوراً بل بلا عدة
قد صار إبليس لهم تابعا — يقول يا للشون والنجدة
بما حويتم علمونى فما — لى عنكمو فى المكر من غنية
لكم قيادى وانقيادى وما — مثلكمو فى النادى أوالندوة

* * *

بملء الافواه ينادون يا — أهل الوفا ياصاحب التوبة
يا شافعى يا قطب يا رافعى — بآل الرفاعى يا بنى الرفعة
يا سيدى أحمد يا أوليا — الكون عينونا على الحملة
لكنهم فى الفسق أرقى الورى — كما ترى من غير ما مرية
اتخذوا المرد مراداً لهم — تهالكوا فيه على الهلكة
فالبعد كل البعد عنهم فما — فى النحس من خير ولا خيره

وقال متهكما من شيوخ الأزهر :

الجامع الأزهر ابتــلاه ... رب له العز والوجـــود
بكل فظ وكل قحف ... عليك بالبشر لا يجــود
قطعـــة صخر أليس فيه الـ ... ـثقل واليبس والجمود ؟
عمائمــا كبروا وكما ... قد وسعوا لكى يسودوا
وتحت آباطهــم رزايا ... تسعـين كراسا أو يزيد
بها يميلون حيث مالوا ... لأجــل مال لهم تصيد
لولاهمو مالت السوارى ... كل عمود له عمـــود
تزويرهم شــاع فى البرايا ... سيان الاحرار والعبيد
صلوا وصاموا والليل قاموا ... والقلب عن كل ذا بعيد
البعض منهم يقـــول إنى ... فى العلم بين الورى فريد
ومن مضى ليس لى يضاهى ... حتى الجوينىّ والجنيد !
وهو ـ لعمرى ـ .اريح علم ... شم ولا بجثه يحيـــد
بل تلك دعوى ما قام فيها ... قرينة لا ولا شهـــود
فالبعد عنهم خــذ سبيلا ... تكن مجيدا نعم المجيد
فمــا سلمنا حتى اعتزلنا ... بالقلب عنهم كمــا نريد

وقال أيضا يذم علماء عصره :

عن علما عصرك لا تسألن ... فإن أحوالهمو ظاهرة
نفعك من جانبهم منتف ... فى هذه الدنيا وفى الآخرة
قوم إذا لاح لهم مطمع ... تسارعوا كالأكلب العاقرة

والعمل الصـــالح ما بينهم همتهم فى فعـــله فاترة

وقال ينتقد عادة سيئة فى المجتمع :

ليتنا لم نعش إلى أن رأينا كل ذى جنّة لدى الناس قطبا
علماهم به يلوذون بل قد تخذوه من دون ذى العرش ربا
إذ نسوا الله قائلين فلان عن جميع الأنام يفرج كربا
وإذا مات يجعلوه مزارا وله يهرعون عجما وعربا
بعضهم قبّل الضريح وبعض عتب البـــاب قبلوه وتربا
هكذا المشركون تفعل مع أصنا منهم تبتغى بذلك قربـــا
كل ذا من عمى البصيرة والوي ل لشخص أعمى له الله قلبـــا

وفى نفس المعنى يقول :

متى سمع النـاس فى دينهم بأن الغنا سنة تتبع
وأن يأكل المرء أكل البعير ويرقص فى الجمع حتى يقع
ولو كان طاوى الحشا جائعا لما زاد من طرب واستمع
وقالو سكرنا بحب الإله وما أسكر القوم إلا القصع !!
كذاك الحمير إذا أخصبت تنهق من ريها والشبع ! !

وقال فى الحكم :

لا شىء تزرعه إلاّ قلعت غـــــداً
إلاّ ابن آدم من يزرعـــــه يقلعُه

وما همومك يبكى غـير نفسك أو
صديق صدق وجيع منك يوجعـه
وأقرب النـاس للإنسان عترته
بل صلته بل دواهيه ومنجعـه
وراحة المرء فى دنياه عزلته   وصمته عن سوى ما فيه منفعه
فلا تكن عاتبا يوما على أحـد
إلا على حظك المنحوس طالعـه
فذاك صـاحبه ميت وتبصره
حيـا ولكن على الحيّات مضجعه

ومن شعره كذلك فى الحكم :

كن جار كلب وجار الشـرة اجتنب
ولو أخـاً لك من أم يرى وأب
ما جـار كلب شكا يوما بوائقه
إذا شكا غـيره من وحمة الوصب
وجانب الدار إن ضاقت مرافقهـا
والمرأة السـوء لو معروفة النسب
لا تلق نفسك يوما فى الزحام فـما
فى رحمة لك خـير لو على الذهب

وقوله :

أخى فطناً كن واحذر النـاس جملة
ولا تك مغرور الظنون الكواذب

فكم من فتى يرضيك ظاهر أمره
وفى باطن يرتاغ روغ الثعالب
وأنقص خلق الله عقــلا فتى غدا
بقبضة أنثى لعبــة الملاعب
وخــير عباد الله من لازم التقى
شكور العطايا صابرا للمصائب

وقال فى ذم الأقارب :

حذار حذار من قرب الأقارب
فهــم صــلّ الأفاعى والعقارب
أناس إن تعبت فيستريحوا
وتعروهم لراحتــك المتــاعب
غنيا إن تكن حســدوا وإلا
فعنك تجنبوا من كل جانب
أمِنْ فيها الأفاعى الشهــد تعطى
أم السمرات تعطيك الأراطب ؟
أم الإصــلاح يصلح من غراب
أم العمران من بوم الأخارب ؟
على الحســاد دائرة الدواهى
تدور بها النواعى والنواعب

وكتب على قبره قوله

أيها الآتى ضريحى قف على قبرى شُوَىّ (١)
واقرأ القرآن عندى ينزل الروح علىّ
كم قبور زرته ياذا وأنا مثلك حىّ
ثم مادبّ إليهم بعد ذا دبّ إلىّ
فتهيأ لرحيل واطو آمالك طىّ
لا تغرنك حياة إنما الدنيا كفىّ (٢)
فتنبه وتدبر واتعظ من ذا أخىّ

ومات الشيخ حسن البدراوى الحجازى سنة إحدى وثلاثين ومائة وألف للهجرة .

ومن هذه الأشعار التى أتينا بها للبدرى ، نرى أنه خليق بإعجاب الجبرتى ، وخليق كذلك بإعجاب الناس الذين عاشرهم فى زمن قبل زمن الجبرتى. فى شعره روح البهاء زهير وإن لم يبلغ مبلغه فى جودة الأسلوب ، وفى لغته نفحة من المصرية التى شاعت فى شعر البهاء زهير وإن كانت المصرية فى شعر البهاء أشيع وأسير . وهو فلتة من فلتات العصر العثمانى وهو العصر الذى حُرم من أمثاله بسبب الظروف التى أشرنا إلى بعضها من قبل .

ولندع الشيخ حسن البدرى الحجازى لننتقل منه إلى :

---

(١) شوى لهجة عامية مصرية بمعنى (قليلا) .

(٢) الفيء هو الظل .

ابن الصلاحى :

وهو العالم الأديب محمد بن رضوان السيوطى المشهور بابن الصلاحى، ولد بأسيوط ونشأ هناك . وأمه شريفة من بيت شهير ، ولما ترعرع رحل إلى مصر وحصل العلوم وحضر دروس الشيخ محمد الحنفى ولازمه وانتسب إليه ومال إلى فن الأدب وكتب نسخة من القاموس .

وله شعر عذب وربما ابتكر فيه ما لم يسبق إليه ، وقد أجازه الشيخ الحنفى هذا وأثنى عليه . وله بديعة تتضمن مدح رسول الله صلى الله عليه وسلم ذيلها بقصيدة سماها الدرة البحرية والقلادة النحرية فى مدح خير البرية ، وهى تزيد على الثمانين بيتا . ومن شعره فى المدح :

هات لى قهوة الشفا من شفاهك
واسقنيها على نخامة جاهك
عاطنيها يا أوحد العصر لطفا
وبديع المثال فى أشباهك
يا أعز الأولى صور البدر شخصا
ليضاهيك فى البها لم يضاهك
عاطنيها جهرا شفاها ولا تخـ
ـش ملاما فلذتى فى شفاهك
عاطنيها ولا تدع لى حراكا
لست أقوى على كمال انتباهك

قال الجبرتى : ومطلع هذه القصيدة مأخوذ من مطلع قصيدة خمرية للشريف أحمد بن مسعود الحسنى أحد أشراف مكة : وهى :

حث قبل الصباح نجب الكئوس

ومن شعر ابن الصلاحى فى المدح :

نقلوا أكاذيب السلو لهاجرى
سنها — وما خطر السلوّ بخاطرى
يا ليتهم علموا بأسرارى التى
أودعتها يوم النوى بسرائرى
لله وقفتنا بجرعاء الحمى
والنجم مرصود لسهد الساهر
نملى أحاديث الغرام فنجتلى
منها سرور مسامع وخواطر
ونديرِ كاسات الوداع مديدة
فى شق أطواق وشق مرائر
وسوابق العبرات من دمعى ومن
شعرى كعقد لآلىء وجواهر
أدعو سراة الظاعنين كأنما
أرجو الوصال من الغزال النافر
لله أيام سلفن بوصله
والدهر ممتثل لأمر الآمر

إن فاتنى طيب الزمان به فلى
عوض بطيب حديث عبد القادر
مولى تراه تتقيه مهابة
من حسن آثار وطيب مآثر
يرضيك من أخلاقه وخلاقه
برياض آداب وكنز مفاخر
وخصائل زينت بحسن فضائل
ومحاسن راقت لعين الناظر
الله أكبر إن آية فخره
كبرى وراثة كابر عن كابر
مولاى لم أخطر مديحك خاطرا
إلا لأنك ثابت فى الخاطر

وله فى الغزل :

بالأشرفيــة شادنٌ ظبى الكناس له الفدا
يهدى السراة جبينه فجبينه صبح الهدى
فى عِطفه هيفُ الصبا وبلحظه سيل الردى
لولا الحيــاء وما أرا قب من مراقبة العدا
لتساقطت بخدوده قُبَلِى مساقطة الندا

وله فى الغزل أيضا :

جاء داعى الحبيب يدعو لوصلى
فى محل شَدَتْ على الماء وُرْقُه

فتعثرت من سرورى وما وا
فيتُ حتى مضى وأومض برقُه

وقال ارتجالا فى مجلس أنس :

شاق طرفَ السرور ظرفُ الربيع
فتملى بحسن تلك الربوع
ما ترى الزهر ضاحكا لبكاء الـ
طل من قطره بالدموع
وغصون الرياض تخلع أثوا
ب التدانى على الندىّ الخليع
فاتذ نا بجمع إخوان صدق
زان طبع الوفاء قدر الجميع
ياصلاحى أرح فؤادك والبس
من بشير اللقا قيص الرجوع

الحق أن ابن الصلاحى كان فلتة أخرى من فلتات العصر العثمانى . وشعره فى باب الغزل يدل على رقة فى حسّه ، وقوة فى فنه ، وجمال فى لفظه ، وغزارة فى معانيه . وقد نقل الجبرتى من شعره أكثر مما نقل من شعر غيره ، وإن كان ما نقله من هذا الشعر ينحصر فى فن واحد فقط هو فن الغزل .

ومات ابن الصلاحى فى سنة ثمانين ومائة وألف للهجرة .

أما الشاعر الثالث والأخير من شعراء هذه الحلبة فهو :

الشيخ عبد الله الشبراوى :

وهو الإمام الفقيه المحدث المتكلم الأديب الشاعر عبد الله بن محمد بن عامر الشبراوى الشافعى . ولد سنة اثنتين وتسعين وألف . وهو من بيت علم انتهت إليه رياسة المذهب الشافعى فى حياة كبار العلماء الذين حضر عليهم .

ولم يزل يرقى فى الأحوال والأطوار ويفيد ويستفيد، ويملى ويدرس حتى صار أعظم الأعاظم جاها ومنزله فى الدولة ، وأقبل عليه الأمراء ، وهادوه بأنفس ما عندهم . وبنى دارا عظيمة ببركة الأزبكية قرب الجهة التى يقال لها الرويعى . وكان طلبة العلم فى أيامه على جانب عظيم من الأدب وسمو الأخلاق . ومن مؤلفاته :

« كتاب مفتاح الألطاف فى مدائح الأشراف » و « شرح الصدر فى غزوة بدر » .

وله ديوان شعر يحتوى على غزليات مشهورة بأيدى الناس .

وكانت وفاته سنة إحدى وسبعين ومائة وألف — أى قبل ابن الصلاحى بتسع سنين .

ابتعد الشيخ الشبراوى مرة فى بعض أسفاره عن مصر فقال متشوقا لها وللنيل :

أعد ذكر مصر إن قلبى مولع
بمصر ومن لى أن ترى مقلتى مصرا

وكرر على سمعى أحاديث نيلها
فقد ردت الأمـواج سائله نهرا
بـلاد بها مـدّ السماح جناحه
وأظهر فيها المجـد آيته الكبرى
رويدا إذا حـدثتنى عن ربوعها
فتطويل أخبار الهـوى لذة أخرى
إذا صاح شحرور على غصن بانة
تذكرت فيها اللحظ والصعدة السمرا
عسى نحوها سلوى الزمان مطيتى
وأشهد بعد الكسر من نيلها جبرا
لقـد كان لى فيها معاهد لذة
تقضت وأبقت بعدها أنفسا حسرى

وقال فى السيد عبد القادر نقيب الأشراف الذى حضر من البلاد الرومية وبعد أن بات ليلة واحدة وجد مذبوحا فى فراشه :

أيها القوم ويحـكم قد هدمتم
بنيـة الله واتهمتم عبـاده
وذبحتم هـذا المهذب غدرا
وقطعـتم بغلظـة أوراده
ثم نحتم عليـه زوراً ولـكن
ذاك أمر قضى الإله نفـاذه

أيها النائحون مهــــلا فمن ذا
نال من دهره الخئون مراده
لا تطيـــــلوا على النقيب نحيبا
فهو بالذبح نال أعلى سعــــاده
كم نبي وصــــالح وولى مات قتلا ونال أجر الشهادة
هــذه سنة الأماجد قدما كحسَين وسعدٍ بن عُبادة
حاز هــــذا الشريف لطفا من الله
وساوى فى حوزه أجــــداده
لوفور الأجور والرتبــــة العلـ
ـيا وحسنىً من ربنـــا وزيادة
ياخليــــلى لا تأسفن وأرخ
قـــدر الله قتله وأراده
٣٠٤ ٦٠٦ ٥٣٥ ٢١٧

لعل ذلك العصر كان عصر فتن ومؤامرات ، وذلك فضلا عن أنه كان عصر ظلام وجهالات ، ولعله بسبب ذلك لم يدم للأدب رواج . ومن ثم لم نستطع أن نقف بهذا العصر مثلما وقفنا بالعصرين السابقين له .

***

وهكذا نجد لمدرسة البهاء زهير تلاميذ وأتباعا فى العصر العثمانى لهم بعض رقته ، وفى شعرهم مسحة من فنه . أما مدرسة البديع — وزعيمها القاضى الفاضل — فلها تلاميذ فى العصر العثمانى . ولكن

الفرق كبير بينهم وبين شعراء البديع فى العصر الأيوبى والمملوكى . وقد أتى هنا الفرق من اختلاف هذه العصور من حيث الثقافة ومن حيث الحضارة . والمتأمل فى تاريخ الفنون ومنها الشعر يرى أن هذه الفنون تتأثر تأثرا عميقا بالحضارة التى تعيش فيها .

والأدب من بين هذه الفنون يتأثر تأثرا عميقا بالثقافة التى تحيط به ، ومعنى ذلك باختصار أن البديع لا يجود إلا فى ظل ثقافة واسعة ومنوعة ، وأنه يسوء فى ظل ثقافة ضيقةوغير متعمقة . ومن هنا كان البديع الذى ازدان به الأدب العباسى أو الفاطمى أو الأيوبى أو المملوكى مخالفا للبديع الذى تكلفه الأدباء فى العصر العثمانى .

وإليك أيها القارىء مثلا واحدا من أمثلة البديع فى العصر العثمانى ، وهذا المثل مأخوذ من مقامة للشيخ الإدكاوى موضوعها المدح . وقد توخى فيها الإدكاوى لونا من ألوان العبث اللفظى يقوم على التصحيف وفيه يقول فى الممدوح :

قاتل فاتك أغر أعز — حسنه جيشه كثير كبير
ساحر ساخر تجنى تحنى — شائق سائق منير مبير

والعبث اللفظى هنا قائم كما قلنا على مجرد نقل النقط بين الحروف فالنقطة على (العين) فى (أغر) تتزحزح إلى الحرف الذى يليه فيصبح (أعز) وهكذا . وهو نوع سخيف من التصحيف ، يدل على الإفلاس الفنى لا أكثر ولا أقل .

الكِتابُ الثّالِثُ

في فنّ الكتابة

الفصل الأول

الكتابة الديوانية

تنوعت أغراض الكتابة في مصر في العصور التي نؤرخ لها . فكان الكتابة الديوانية ، والكتابة الإخوانية ، والكتابة الشعبية الهزلية ، والكتب التاريخية (ومنها السير على اختلافها) .

ونريد أن نعرض لهذه الأنواع الكتابية كلها مبتدئين بنثر الرسائل وانية . وهنا نلاحظ ملاحظة فيها شيء من الغرابة . وخلاصتها الجهد الفني الذي بذله الكتاب في الرسائل الديوانية كان أكثر الجهد الفني الذي بذله الشعراء في القصائد الشعرية .

والظاهر أن السبب في ذلك يرجع في أكثره إلى أن كاتب الرسالة وانية كشاعر المدح لا بد له من توخي الجزالة في اللفظ والفخامة لمعنى . وذلك بما يتفق ومكانة الممدوح وعلو منزلته بين الناس ، صة إذا كان هذا الممدوح هو السلطان أو الخليفة .

والرسالة الديوانية — وخاصة في عهد الحروب الصليبية — كانت توجه إلى مقام الخليفة العباسي في بغداد ، وكان يكتبها أديب ع مثل القاضي الفاضل أو العماد الأصفهاني في العهد الأيوبي ، محيي الدين بن عبدالظاهر في العهد المملوكي . ومعنى ذلك أنه كان لا بد

لهذه الرسالة الديوانية من أن تتوفر فيها من القيم الفنية مالا يمكن توفره فى أى فن من الفنون الأدبية الأخرى .

ثم إن هذه الرسالة الديوانية كانت تشبه من قريب أو بعيد أنشودة النصر التى يعبر بها الكاتب عن مشاعر الجماهير ، فلا بد أن يكون تعبيراً قوياً مفعماً بالحياة . وأنت أيها القارىء حين تقف أحياناً عند لوحة فنية فى معرض من المعارض تقول عنها إنها مملوءة بالحياة ، أو إنها قليلة الحظ من الحركة والحياة ، وتزنها فى نفسك بهذا الميزان . وكذلك ينبغى أن تفعل بالقطعة الفنية نثرية كانت أم شعرية ، فهى لا بد أن تكون (محاكاة) دقيقة للموقف الذى تصوره . على هذا النحو كان القدماء يفهمون الأدب . وبهذا المقياس ينبغى لنا دائماً أن نقيس ما خلفوه لنا من أدب . ومنه هذه الرسالة الفاضلية :

رسالة للقاضى الفاضل إلى الخليفة العباسى
يبشره فيها بفتح القدس

قال الفاضل بعد مقدمة طويلة اشتملت على دعاء طويل للخليفة تمشياً فى ذلك مع التقاليد المرعية فى ذلك العصر :

« . . . . كتاب الخادم هذا .وقد أظفر الله بالعدو الذى تشظت قناته شققاً(١) ، وطارت فرقه فَرَقاً(٢) وفُلَّ سيفه فصار عصا(٣)

(١) تشظت تطايرت منها الشظايا ، والقناه الرمح . وشققا جمع شقة وهى القطعة .

(٢) طارت فرقه فرقا — أى هربت من الفرق بفتح الراء وهو الخوف .

(٣) وفل سيفه أى كل وأصبح لافرق بينه وبين العصا .

وصَدِعَت حصاته وكان الأكثر عدداً وحصى(١) . فكلّت حملاته وكانت قدرة الله تصرف فيه العنان بالعيان(٢) ، عقوبةً من الله ليس لصاحب يد بها يدان . وعثرت قدمه وكانت الأرض لها حليفة . وغضّت عيونه وكانت عيون السيوف بها كسيفة . ونامَ جفن سيفه وكانت يقظته تريق نطف الكرى من الجفون . وجدعت أنوف رماحه وطالما كانت شامخة بالمنى راعفة بالمنون(٣) . وأصبحت الأرض المقدسة الطاهرةَ وكانت الطامث(٤) ، والرب المعبود الواحدَ ، وكان عندهم الثالث »

دخل الفاضل فى موضوع الرسالة — وهو هنا وصف الحرب التى انتهت بظفر المسلمين ببيت المقدس فقال :

الآن أظفر الله المسلمين بذلك العدو ، وقد تطايرت شظايا رماحه من الخوف ، وفرت جموعه من الذعر ، وكلّت سيوفه فأصبحت كالعصىّ . وتناقص عدده وكان أكثر عدداً من المسلمين . ورأى المسلمون بأعينهم كيف تصرفت قدرة الله تعالى فى ذلك العدو ، وكيف أنزلت به من العقاب مالا يقوى على رفعه أحد من البشر ، وكيف زلزلت أقدامه وكانت ثابتة كل الثبات على الأرض ، وكيف أغمضت

---

(١) الحصاة الحجر الصغير لا يكسر لصلابته وصغره . والمعنى تفرق جيش العدو وتبدده .

(٢) عنان الدابة لجامها . والعيان بكسر العين الرؤية .

(٣) راعفة من الرعاف وهو الدم يخرج من الأنف .

(٤) المرأة الطامث هى الحائض .

عينه من الذل ، وكان شجعان المسلمين أنفسهم لا يستطيعون النظر إليها ، وكيف نام سيفه وكانت يقظته تذود عنهم النوم ، وكيف انكسر رمحه وكان شامخاً بالأمانى وراعفاً بدماء المسلمين فى الحرب . وبذلك أصبحت الأرض المقدسة طاهرة من الدنس ، وأصبحت تقول بوحدانية الله تعالى بعد القول بالتثليث على مذهب النصارى .

ومضى الفاضل فى وصف آثار الموقعة فقال :

« فبيوت الشرك مهدومة ، ونيوب الكفر مهتومة ، وطوائفه المحامية مجتمعة على تسليم البلاد الحامية ، وشجعانه المتوافية ، مذعنة ببذل المطامع الوافية لا يرون فى ماء الحديد لهم عصرة ولا فى فناء الأفنية لهم نصرة . وقد ضربت عليهم الذلة والمسكنة ، وبدل الله مكان السيئة الحسنة . ونقل بيت عبادته من أيدى أصحاب المشأمة إلى أيدى أصحاب الميمنة » .

يقول الفاضل إذن فى عبارته المتقدمة : إن بيوت المشركين أصبحت متهدمة ، وإن نيوبهم (وهى كناية عن قوتهم) أصبحت متكسرة ، وقد أجمعت جيوشهم على تسليم البلاد ، وأذعنوا لكل ماطمع المسلمون فيه من شروط أملوها عليهم حينذاك . فلم تنجهم سيوفهم ، ولا وسعتهم دورهم وأفنيتهم ، وضربت عليهم الذلة والمسكنة .

أما الفن الفاضلى فقد بلغ فى الفقرتين السابقتين ذروته . فانظر إلى المقابلة بين السيف والعصا ، وبين المنى والمنون ، وبين ذلة الكافرين وعزة المسلمين . ثم انظر إلى الجناس بين « فرقه » بمعنى جموعه (وفَـرقا) بفتح الراء بمعنى خوفا ، وبين « العنان » بمعنى اللجام

و « العيان » بمعنى الرؤية . ثم انظر بعد كل ذلك إلى ما هو أهم من كل ذلك . انظر إلى السيوف والرماح كيف جعل الكاتب لها عيونا تكسف بالهزيمة . وكيف جعل لهذه العيون جفونا نامت وكانت من قبل تذود النوم عن عيون المسلمين . وكيف جعل للسيوف أنوفا جدعت ، وكانت تشمخ دائماً بالأمل فى الظفر على أولئك المسلمين وترعف بالدماء التى تقطر من أجسادهم فى ميدان الحرب . ثم انظر إلى قوله كذلك : « ونيوب الكفر مهتومة » كيف جعل من الكفر شخصا له أنياب . وهذه الأنياب أصبحت مهتومة بعد الهزيمة .

ويمضى الكاتب فى وصف الموقعة فيقول :

« وقدم المنجنيقات التى تتولى عقوبات الحصون عصيُّها وحبالُها ، وأوتر لهم قسيَّها التى تضرب فلا تفارقها سهامها ولا يفارقُ سهامَها نصالُها . فصافحوا السور بأكتافه (١) . فإذا سهمها فى ثنايا شرفاتها سواك . وقدم النصر نسراً من المنجنيق يُخلد إخلاده إلى الأرض ويعلو علوه إلى السماك . فشجَّ مرادع أبراجها ، وأسمع صوت عجيجها (٢) فأخلى السور من السيارة . والحرب من النظارة . فأمكنَ النَّقاب أن يسفر للحرب النقاب (٣) ، وأن يعيد الحجر سيرته من التراب . فتقدم إلى الصخر فمضغ سرده (٤) بأنياب معوله ، وحلّ عُقده بضربه الأخرق (٥)

---

(١) أكتاف الطائر أجنحته وأكتاف السور جوانبه .

(٢) شبج بمعنى كسر . ومرادع السور فتحاته . والعجيج الصياح والمجاج الغبار

(٣) النقاب هو الرجل الذى ينقب السور .

(٤) السرد هو الثقب .

(٥) الأخرق الطائش .

الدال على لطــافة أنمله ، وأسمع الصخرة الشريفــة حنينه واستغاثته إلى أن كادت ترق لمُـقبـله(١) وتبرأ بعض الحجارة من بعض ، وأخذ الخراب عليها موثقاً فلن تبرح الأرض ، وفتح من السور باب سَدٍّ من نجاتهم أبواباً ، وأخذ نقب فى حجره قال الكافر عنده ياليتنى كنت ترابا . فحينئذ يئس الكفار من أصحاب القبور . وجاء أمر الله وغرهم بالله الغرور » .

فى الفقرة السابقة وصف الكاتب عمل المنجنيقات فى الموقعة . فقد أخذت هذه المنجنيقات تضرب فى جوانب السور . كما أخذت سهامها تتخلل شرفاته كما يتخلل السواك ثنايا الفم . وكان المنجنيق فى أثناء ذلك كله يعلو فى السماء حينا ، وينخفض إلى الأرض حينا كأنه النسر ، واستطاع المنجنيق كذلك أن يشق فتحات الأبراج التى تتخلل الأسوار وأن يجعلها تئن ويعلوها الغبار . وهكذا حتى خلت الأسوار جميعها من الناس كما خلا ميدان القتال نفسه من الجند . أما النقابون فقد استطاعوا أن يكشفوا النقاب عن هذه الحرب الزبون ، وأن يدكوا هذه الحصون حتى عادت سيرتها الأولى من الحجارة والطوب ، ثم عاد المنجنيق إلى تلك الصخور التى أمامه فطحنها بمعوله طحناً ، وما زال يضربها ضرباً حتى لم يعُد لها أثر .

وسمعت الصخرة الشريفة لتلك الصخور وأنينها واستغاثتها وحنينها ، فرقت لها ، وعجبت لخرابها . وعاد النقــابون ففتحوا أبوابا أخرى

---

(١) مقبلة موضع التقبيل منه .

فى السور أيأست العدو من النجاة وصاح الكافر عندها واحسرتاه .

أما الفن الفاضلى فى هذه الفقرة فكان كسابقه فى الرفعة والدقة ، فانظر إلى المنجنيقات كيف جعل الكاتب من سهامها مساويك تدخل فى ثنايا الشرفات الممتدة على طول السور من أوله إلى آخره . وانظر إلى هذه المنجنيقات كيف حلقت فوق الأسوار وهبطت عليها فى حركة تشبه حركة النسر . ثم انظر إلى معاول النقابين كيف جعل منها الكاتب أنيابا تمضغ الصخر . وانظر إلى الصخر كيف يئن من وقع هذه المعاول التى تضربه ، وكيف علا أنينه حتى سمعته الصخرة المقدسة بالمسجد الأقصى فرثت له .

ثم انظر بعد هذا كله إلى تلك الصخور التى سحقتها المعاول سحقاً كيف تبرأ بعضها من بعض ، وإلى الخراب الذى حل بها كيف حلف بأنه لن يبرح الأرض !

وبهذه الخطوط الأخيرة أتم لنا القاضى الفاضل رسم لوحة رائعة لهذه الموقعة الفاصلة التى انتصر فيها صلاح الدين على الصليبيين ، وهى موقعة حطين ، وكان فى أثناء ذلك كله يستخدم ألفاظاً قرآنية يدمجها فى رسالته الديوانية فكأنها جزء من كلامه فى هذه الرسالة الديوانية .

* * *

وفى العصر المملوكى نبغ كتاب كثيرون فى فن الرسائل الديوانية وعلى رأسهم الكاتب المعروف باسم :

محي الدين بن عبد الظاهر

وهو عبد الله بن عبد الظاهر المصرى . ولد سنة ٦٢٠ هـ وتوفى سنة ٦٩٢ هـ . وكان فى طريقته الكتابية تلميذاً مخلصاً للقاضى الفاضل . يلتزم السجع ويكلف بالطباق والمقابلات وغير ذلك من المحسنات البديعية ، وأهمها التورية . وكان محي الدين هذا رئيساً لديوان الإنشاء فى عهد الظاهر بيبرس. وقيل إنه وضع كثيراً من اصطلاحات الإنشاء ، ومن النظم الديوانية التى ظل معمولا بها فى مصر والشام إلى الفتح العثمانى.

نموذج من كتابته

كتب محي الدين بن عبد الظاهر عن السلطان الملك المنصور قلاوون إلى صاحب اليمن يبشره بفتح مدينة يقال لها : « صافيتا » قال : « فمن ذلك حصن الأكراد الذى تاه بعطفه (١) على الممالك والحصون ، وشمخ بأنفه عن أن تمتد إلى مثله يد الحرب الزبون (٢) وغدا جاذباً بضبع (٣) الشام ، وآخذاً بمخانق بلاد الإسلام ، وشللا فى يد البلاد ، وشجا فى صدر العباد . تنقضّ من عشه صقور الأعداء الكاسرة ، وترتاع من سطوتها قلوب الجيوش الطائرة . وتربض بأرباضه آساد تحمى تلك

(١) عطفه بكسر العين جنبه . والمعنى أن الحصن كان يفتخر بقوته ومنعته على الحصون الأخرى .

(٢) الحرب الزبون التى يدفع المقاتلون فيها بعضهم بعضا لكثرتهم .

(٣) ضبع الشام أى عضد الشام .

الآجام (١) . وتُفوّق من قسيّه سهام تصمى (٢) مفوّقات السهام تعطيه الملوك الجزية عن يد وهم صاغرون . ويصطفى كرام أموالهم وهم صابرون لا مصابرون . كم شكت منه (حماه) فله الإنصاف . وكم خافته (معرة) وما من معرةٍ خاف . ما زالت أيدى الممالك تمتد إلى الله بالدعاء عليه . تشكو من جورَ جواره تلك الحصون والصياصى (٣) وتبكى بمدمع نهرها من تأثير آثاره مع عصيانها وناهيك بمدمع العاصى (٤) » .

والكاتب فى الفقرة السابقة يصف لنا منعة الحصن الذى فتحه المماليك ، وهو حصن صافيتا . ويتبع فى ذلك الطريقة التى عرفناها عند القاضى الفاضل فهو يقول عنه إنه حصن من حصون الأكراد طالما افتخر على غيره من الحصون بمنعته وقوته ، وشمخ بأنفه على الأبطال والجنود فلم يجرؤ أحدهم أن يثير الحرب من حوله . وذلك بالرغم من أن هذا الحصن المنيع من حصون الأكراد ظل قابضاً على الشام ، آخذاً بخناق غيره من بلاد الإسلام ، يصيب هذه البلاد كلها بالشلل ، ويبدو وهو شجاً فى حلوق أهلها طول الزمن . منه تنقّض صقور الأعداء الكاسرة ومن سطوته ومهابته تفزع قلوب الجيوش القاهرة . وفى أرضه تقيم أسود تحمى عرينه ، وتنبعث سهام تعلو على بقية السهام ، وتصيب حامليها

(١) الأرباض النواحي . والآجام جمع الأجمة وهي الغابة .
(٢) تصمي تميت .
(٣) الصياصى الحصون المنيعة .
(٤) العاصى اسم نهر من أنهار سورية تقع عليه جملة مدن منها حماه وغيرها

بالموت الزؤام . الملوك تدفع له الجزية عن يد وهم صاغرون . وأصحاب هذا الحصن يختارون من أموال هؤلاء الملوك أكرمها وأحسنها ، ويغتصبونها من أولئك الملوك وهم صابرون ، لا باختيارهم ولكن رغم أنوفهم . أما البلاد الواقعة بالقرب من هذا الحصن المنيع فطالما شكت منه الجور والظلم . فهذه (حماه) تقول إنها لم تذق معة طعم العدل أو الراحة . وهذه (المعرة) لم تجد من العار عليها أن تظهر خوفها من جواره . وهكذا أجمعت المدن كلها على كراهيته والدعاء عليه ، برغم أنها من المدن المنيعة ، ذات الحصون القوية المريعة . وهى مع عصيانها وتمردها تبكى بدمع كالنهر من شدة تأثرها منه . وما ظنك بدموع الغيظ من العدو .. الخ ،

أما الفن البديعى الذى يطلع علينا من ثنايا هذا الجزء من أجزاء الرسالة فهو — كما سبق أن قلنا — يذكرنا دائماً بفن القاضى الفاضل .

حرص على السجع من أول العبارة إلى آخرها . وميل إلى (التشخيص) أو التحدث إلى الجمادات على أنها أشخاص تشعر وتحس ، وتأتى من السلوك ما يأتى به الشخص . فهذا الحصن الذى يصفه الكاتب له جنب يميل به من الفخر ، وله أنف يشمخ به من الدخول فى الحرب ، وله يد يقبض بها على الشام ، ويمسك بها فى خناق الإسلام . بل إن الحصن ليشبه ملكا كبير السطوة تأتى إليه الملوك لدفع الجزية وهم خاضعون ، ويختار من أموال أولئك الملوك ما يريد، ويدع لهم مالا يريد. ثم إن هذا الحصن لا يقف به الأمر عند هذا الحد . بل إنه يعتبر مصدر خوف دائم لجميع البلاد والحصون المجاورة . فهذه (حماه)

لا تستطيع أن تحمى نفسها من جوره ، وهذه (المعرة) لاتجد من المعرة عليها أن تظهر الخوف منه . وفى هـذه العبارة الأخيرة (جناس) بالاشتقاق — وهو جنـاس تام بين (المعرة) اسما لبلد (والمعرة) مصدراً ميميا من العار .

ثم انظر إلى (التورية) البليغه فى قوله (وناهيك بمدمع العاصى) . فالعاصى هنا لفظ أريد به معنيان : أحدهما قريب وهو اسم النهر المعروف فى سورية . والآخر بعيد وهو اسم للعاصى ضد المطيع أو الخاضع .

ونعود إلى رسالة محي الدين بن عبد الظاهر فنراه يقول بعد ذلك :

« حتى نبّه الله الحافظ سيوف الإسلام من جفونها ، ووفّى النصرة ما وجب من ديونها . وذاك بأنا قصدنا فسيح ربْعه ، ونزلنا ونازلنا محْميّ صُقعه ، وختمنا بنضالنا على قلبه وسمعه ، وله مدن حوله خمس هو كالراحة وهى كالأنامل ، وتكاد بروحه تُسرى كالمطايا المقطرة (١) وهى فيها بمنزلة الزوامل (٢) . ما خيّمنا به حتى استبحنا مَحْميّ تلك المدائن المكنيّ عنها بالأرباض . وأسحنا بساحاتها بحراً من الحديد ما اندفع حتى فاض . وأخذنا النقوب فى أسوار لاتُنقض ولا ينقضّ بنيانها المرصوص ، ولا تقرأ المعاول ما لخواتم أبراجها من نقوش الفصوص . ونصبنا عليها عدّة مجانيق حملت فى شواهق الجبال على

(١) المطايا المقطرة : الإبل التى يتبع بعضها بعضا كأنها قطار .

(٢) الزوامل جمع زاملة وهي الدابة التى يحمل عليها كالإبل وغيرها .

رءوس الأبطال . فتغيّظت السمهرية(١) أن الذى تقوم به هذه تلك به لا تقوم ، وإن منها إلا له من الأيدى والرءوس مقام معلوم . وصار يرى بها كل كمى مختلس ، وأروع منتهس (٢) إلى أن جثت أسوارها على الركب ، وكانت سهام مجانيقه تميل من العُجب فصارت تميد من العجب » .

فى الفقرة السابقة يحكى الكاتب قصة النصر والغلبة على هذا الحصن فيقول : إن سيوف الإسلام ماكادت تصحو من نومها وتخرج من أغمدتها حتى جاءها النصر الذى وعدها الله به . ذلك إنه ماكاد جنودنا يصلون بجموعهم إلى ربوع هذا الحصن الفسيحة حتى نزلوها وصارعوها وختموا بسيوفهم على قلبها وسمعها .

ثم وصف الكاتب هذا الحصن كما رآه جند المماليك فقال :

وحول هذا الحصن مدن خمس تتصل به كما تتصل الأصابع الخمس براحة الكف،وله أبراج كثيرة متقاربة يلحق بعضها ببعض كما تتلاحق الإبل فى القافلة الواحدة ،وتسير هذه الإبل تباعا خلف الناقة المتقدمة .

ثم واتى الجند المماليك إلى هذا الحصن فاستباحوا حماه . وأسالوا به نهرا من الحديد ، وأخذوا يثقبون أسواره وإن كانت أسواره تعز على الثقب أو النقب ، وكانت المعاول تعمل فى نقب هذه الأبراج العالية بسرعة بالغة فلم تتمكن من النظر فيما عليها من نقوش.أما المجانيق فكان

(١) السمهرية : الرماح .

(٢) منتهس من نهسته الحية مثل نهشته وزنا ومعنى .

لها دور كبير وخطير . فقد نصبت على رءوس الجبال فخـــارت منها الرماح والسيوف ، واستيقنت من نفسها العجز عن أن تقوم بما تقوم به هذه المنجنيقات من جلائل الأعمال ،وعرفت هذه الرماح والسيوف مكانها من ميدان القتال ، وأن لها عملا لاتستطيع أن تتطاول به على المجانيق بحال من الأحوال .

وهذه المجانيق تصيب من جنود الأعداء كل يقظ يتحين الفرص ، وكل نهس يحاول بذكائه أن ينتهز وقتا يكون فيه المماليك غافلين . ومازال أبطالنا على هذه الحال من القتال حتى وقعت الأسوار وكأنها جثت على ركبها من الخضوع ، ومالت رماحها وسيوفها ومجانيقها من العجب والدهش بعد أن كانت تميل من الزهو والمرح .

وأما الفن فى هذه الفقرة السابقة ففضلا عن اعتماده على التشخيص فإنه يعتمد كذلك على التجنيس كما فى قول (أسحنا بساحاتها) و (نزلنا ونازلنا) و (تُنقض وينقَضّ) و (العُجب والعجَب)

وفى العبارة من الصور البيانية الرائعة مالا يخفى كذلك على القارىء ومنها :

صورة السيوف لها ألحاظ تستيقظ من جفونها . وصورة الحصن وحوله مدن خمس تتصل به كاتصال الأصابع الخمس براحة الكف . وصورة الأبراج المتلاحقه كتلاحق الإبل فى القافلة . وصورة المعاول لا تستطيع أن تقرأ ما على خواتم الأبراج وفصوصها من الكتابة . وصورة الرماح وهى تغار من المجانيق كل هذه الغيرة .ثم صورة الأسوار

والأبراج وهى تجثو على ركبها وتبدى عجبها بعد أن كانت تبدى عُجبها الخ .

وكل ذلك على مذهب فاضلى فى الكتابة لا يحيد عنه الكاتب ولا يؤثر عليه مذهبا آخر ، أو يزاوج بينهما بطريقة من الطرق .

هذه نماذج من الرسائل الديوانية التى خلفتها لنا تلك العصور التى نؤرخ لها . كتبت فى إبان الحروب الصليبية وهى الحروب التى استغرقت حياة الدولة الأيوبية وجزءا غير قليل من دولة المماليك البحرية .

أما فى العصر العثمانى فلم تكن هناك بواعث قوية لإجادة الكتابة ، وكان سلاطين آل عثمان لا يفهمون العربية ، وكان ذلك أدعى للكتاب لكى لا يفكر أحدهم فى كتابة الرسائل الديوانية بهذه الطريقة أو تلك من طرق الكتابة العربية المعروفة . ومن ثم خلا العصر العثمانى كله من رسالة واحدة من مثل هذه الرسائل .

الفصل الثانى

الكتابة الهزلية

نقصد بالكتابة الهزلية كل ماصدر عن الكتاب والأدباء فى ذلك الوقت من الكتب الفكاهية والآثار الهزلية التى يتلهى بها الخاصة والعامة ، ويتسلون بها كما نتسلى نحن فى أيامنا هذه بقراءة بعض الصحف أو المجلات التى من هذا النوع .

ومعلوم أن هذه الكتب كثيرا ما كان يلجأ كتابها ومؤلفوها إلى اصطناع العامية بدل العربية وذلك حتى يتوفر لها الطابع المحلى الذى لاغنى عنه فى مثل هذه الكتب أو القصص .

وليس عندنا من الأمثلة على هذه الكتب الهزلية منسوبا إلى تلك الفترة التى نؤرخ لها غير طائفة يسيرة من الكتب أهمها مايلى :

الأول : كتاب الفاشوش فى حكم قراقوش لابن مماتى .

والثانى : كتاب رسائل الوهرانى لمؤلفه الوهرانى.

والثالث : كتاب « هز القحوف فى شرح قصيدة أبى شادوف » ليوسف الشربينى .

والكتابان الأولان منسوبان إلى العصر الأيوبى . وأما الكتاب الأخير فأثر من آثار العصر العثمانى .

١ — كتاب الفاشوش فى حكم قراقوش

مؤلف الكتاب : هو الأسعد بن مماتى . انحدر من أسرة قبطية من أعرق أسر الصعيد . وكان ميلاده حوالى سنة ٥٤٤ للهجرة بمدينة أسيوط .

ومماتى (بتشديد الميم الثانية) اسم لجده الرابع . وقد سمى ذلك الجد بهذا الاسم لحادثة صحيحة ذكرها التاريخ . هى أن مجاعة كبيرة حدثت بمصر عقب انخفاض النيل ، عزت فيها الأقوات ؛ حتى لم يجد الناس ما يأكلونه غير القطط والكلاب.وكان (مماتى) فى أول هذه المجاعة من كبار الأغنياء ، وممن يملكون أقواتا كثيرة ، فكان الأطفال الصغار بالمدينة يذهبون إلى بيته ، ويقفون صفوفا هناك ، ويصيحون بصاحب البيت : مماتى ! مماتى ! يريدون : أمى ! أمى ! فيخرج الرجل إليهم ويوزع عليهم الأقوات ولا يتركهم حتى يشعروا بالشبع .

وكان مماتى هذا فوق كرمه وعطفه رجلا بارزا فى المجتمع المصرى . فقد تولى بعض المناصب العالية فى الدوله الفاطمية . وأما والد الكاتب نفسه فاسمه (الخطير) كان على رأس ديوان الجيش بمصر فى العصر الفاطمى.وفى أيام صلاح الدين الأيوبى أعلن إسلامه ، وتبعه أولاده فى ذلك . فسر بهم صلاح الدين وعينهم فى مناصب كبيرة

أما (الأسعد) بن مماتى وهو واضع هذا الكتاب الذى نحن بصدده الآن ، فقد خلف أباه (المهذب) على ديوان الجيش ، وبقى رئيسا له مدة طويلة . ثم أضيف إليه فى أيام صلاح الدين وابنه العزيز ديوان المال . وبقى رئيسا له مدة كبيرة .

واشتهر الأسعد بالأدب وتقرب من زعيم الحركة الأدبية فى زمانه وهو القاضى الفاضل . وكان هذا يحبه ويطلق عليه اسم « بلبل المجلس » .

وبقى الأسعد على هذه المنزلة الرفيعة فى عالم الحكم وعالم الأدب حتى حدث حادث خطير فى عهد الدولة الأيوبيـة . وهو انتقال الدولة من أيدى أولاد صلاح الدين إلى أيدى أولاد أخيه الملك العادل أبى بكر ابن أيوب. وإذ ذاك تبدلت الحال غير الحال وأصبح الأمر كله فى يد وزير آخر غير القاضى الفاضل . وهذا الوزير الجديد الذى حل محله هو (صفى الدين بن شكر) . وكانت بينه وبين الأسـعد بن مماتى إحن وبغضاء . فلما جلس (ابن شكر) فى دست الوزارة فكر فى الانتقام لنفسه من الأسعد بن مماتى. فنكبه نكبة هائلة وصادر أمواله الكثيرة وعلقه على باب داره بمصر على ظهر الطريق إحـدى عشرة مرة فى يوم واحد !!

ومات الأسعد بن مماتى فى حلب سنة ٦٠٦ للهجرة ودفن بظاهرها .

ندرك مما تقدم أن الأسعد هذا نشأ فى بيت غنى وجاه . وأن أسرته كانت من أشهر أسر الصعيد فى مصر الفاطمية . وأنها دخلت الإسلام على يد صلاح الدين الأيوبى ، فزادها الإسلام قوة على قوة ، وتعرض الأسعد بسبب ذلك لحسد الحاسدين ونقمة الناقمين .

كتاب الفاشوش :

أما كتاب (الفاشوش فى حكم قراقوش) فهو عبارة عن حكايات صغيرة وضعها الكاتب للنيل من شخصية كبيرة من شخصيات العصر الأيوبى — هى شخصية بهاء الدين قراقوش ، ذى السيرة المعروفة فى تاريخنا المصرى الوسيط . وسنأتى على أطراف من هذه السيرة بعد أن نفرغ من عرض الكتاب الذى وضع فى التشهير بها والسخرية منها .

افتتح ابن مماتى كتابه هذا بقوله :

« إننى لما رأيت عقل بهاء الدين قراقوش مخَزْمَة فاشوش [١] قد أتلف الأمة ، والله يكشف عنهم كل غمة . لا يقتدى بعالم ، ولا يعرف المظلوم من الظالم . الشكيّة عنده لمن سبق ولا يهتدى لمن صدق . ولا يقدر أحد من عظم منزلته على أن يردّ كلمته . يشتاط اشتياط الشيطان ويحكم حكما ما أنزل الله به من سلطان ـ صنعت هذا الكتاب لصلاح الدين عسى أن يريح منه المسلمين . ثم ساق الكاتب اثنتين وعشرين حكاية منها على سبيل المثال :

---

(١) المخزمة هى الخزمة . والفاشوش الأحمق أو الحمق نفسه . والمعنى أن عقل قراقوش لا يحتوى على أكثر من الحمق والغباء الخ .

الحكاية الأولى

كان قراقوش رجلا صقلبياً يميل إلى البيض ويكره السود .واضطرته الظروف فى يوم ما إلى الحكم بين امرأة حجازية ، وجارية لها تركية . وكانت هذه أول مرة يحكم فيها .

قالت الحجازية لقراقوش :

إن هذه جاريتى قد أساءت الأدب علىّ . فنظر قراقوش إلى بياض الجارية التركية وسواد الحجازية وقال للحجازية .

ويلك ـ أخلق الله جارية تركية لجارية سوداء حجازية ! ماأنا بأحمق أو مغفل . يا غلمان : ودوا هذه الحجازية الحجرة !

ومكثت الحجازية شهراً . وما لبثت أن عادت تقول :

إننى قد أعتقتها لوجه الله تعالى !

فقال لها قراقوش :

يا سبحان الله ! إنها هى التى تعتقك فإنك أنت جاريتها وإن أرادت أن تبيعك فإنها تبيعك . وإن أرادت أن تعتقك فإنها تعتقك .

فقالت الحجازية للتركية :

اعملى معى مثل ما عملت معك .

قالت التركية :

وما تريدين منى ؟

قالت الحجازية :

اذهبي إلى قراقوش وقولى له : إنك تعتقينى لوجه الله تعالى .

فذهبت التركية إلى قراقوش وقالت له : إننى عتقت سيدتى الحجازية لوجه الله تعالى :

فقال قراقوش : جزاك الله خيراً . وخرجت الحجازية من السجن .

الحكاية الثانية

جاء إلى قراقوش ثلاثة رجال . أحدهم أجرود ليس له لحيــة ولا شارب . والآخران لكل منهما لحية وشارب . وقد تعدى الأجرود على كل منهما ونتف ذقنه من جذورها . فذهب الرجلان إلى قراقوش وقالا له :

« يا مولانا بهاء الدين . خذ لنا حقنا من هذا الأجرود . فقد نتف ذقوننا ومزق ثيابنا . فنظر قراقوش إلى الأجرود وقال لصاحبيه : ويلكم نتفتم ذقن هـذا الصبي . وجئتم تشتـكون إلىّ . يا غلمان : ودُّوهما إلى الحبس ، ولا تخرجوهما حتى تطلع ذقن هذا الصبى !

الحكاية الثالثة

قيل إن قراقوش سابق رجلا بفرس له . فسبقه الرجل بفرسـه فحلف قراقوش أنه لا يعلف فرسه ثلاثة أيام . فقال له السابق :

يامولاى أخشى أن يموت الفرس !

فقال قـــراقوش :

احلف لى أنك إذا علفته يا هذا لا تعلمه أننى دريت بذلك .

فحلف له الرجل وأعطى العلف للفرس !

الحكاية الرابعة

قيل إن غلاماً لقراقوش كان يشتغل (ركاب دار) أى صاحب الركاب . وإن هذا الغلام قتل نفساً . فقال قراقوش : اشنقوه !

فقيل له : إنه حدادك الذى ينعل لك الفرس . فإن شنقته خسرته ولم تجد غيره . فنظر قراقوش ناحية بابه فوجد رجلا قفاصاً (أى صانع أقفاص) . فقال : ليس لنا بهذا القفاص حاجة .

فلما أتوه به قال : اشنقوا القفاص . وسيبوا الركاب دار الحداد لكى ينعل لنا الفرس !

الحكايه الخامسة

حكى عن قراقوش أنه نشر قيصه . فوقع القميص من على الحبل . فلما بلغه ذلك تصدق بألف درهم وقال :

الحمد لله ـ لو كنت لابسا هذا القميص وقت وقوعه لانكسرت ! »

الحكاية السادسة

حكى أن شخصاً شكا إلى الأمير بهاء الدين قراقوش مماطلة غريمه فذهب المدين إلى الأمير وقال له :

يا مولانا ـ إنى رجل فقير . وكلما حاولت أن أحصل للدائن على شىء لم أجده . فإذا صرفت هذا الشىء جاء الدائن وطلبنى .

فقال قراقوش :

احبسوا صاحب الحق حتى يصير المديون إذا حصل على شيء يجد لصاحب الحق موضعاً معلوماً يذهب إليه فيه ويدفع الحق .

فقال صاحب الحق :

تركت أجرى على الله . ومضى !

الحكاية السابعة

حكى أن جماعة من الفلاحين جاءوا إلى قراقوش . وشكوا إليه خراج القطن وقالوا له : يامولانا السلطان : البرد شوش على القطن هذه السنة . وأنت تفرج عنا وتسامحنا من بعض المال .

فكان من جوابه لهم بعد سكوت طويل :

لأى شيء أسامح فى بعض المال ؟

لما رأيتم البرد اشتد كان عليكم أن تزرعوا مع القطن صوف لأجل ما يدفيه ! ! ولكنكم استهنتم بالحكومة وبالزراعة . ولم تفتحوا أعينكم لخدمة أستاذكم . أين المشاعلى يضرب أعناق الجميع !

فلم يقدر أحد من جلسائه أن ينقم عليه ذلك !

* * *

تلك أمثلة من حكايات ابن مماتى التى اخترعها اختراعاً ليضحك الناس بها من عقل الأمير بهاء الدين قراقوش ، وليصوره لهم بصورة الرجل المجنون أو المعتوه أو المخبول أو الشاذ فى سلوكه وتصرفاته إلى الحد الذى

لا يستطيع التفرقة معه بين الحق والباطل ، ولا بين الأبيض والأسود ، ولا بين المظلوم والظالم ، ولا بين النافع والضار ، ولا بين الجائز من الأمور وغير الجائز منها .

ومن سخر الكاتب بهذه الطريقة ؟

سخر الكاتب بهذه الطريقة من أعظم شخصية عرفها العصر الأيوبى . وهى شخصية :

الأمير بهاء الدين قراقوش

وهو الرجل الذى خدم فى بلاط عماد الدين . وكان حارس العصر الفاطمى فى أول عهد السلطان صلاح الدين . وكان واحدا من رجالات الدولة الأيوبية الذين اعتمدت عليهم هذه الدولة فى كثير من أعمالها الخالدة . ومنها المنشآت الضخمة التى احتاج اليها السلطان صلاح الدين الأيوبى مثل (قلعة الجبل) و (قلعة المقس) وغيرهما من القلاع التى أصبحت جزءا من سور كبير كان يحيط بمدينة القاهرة . وكان السلطان بحاجة شديدة إليه فى الدفاع عن مصر ضد غارات الفرنج فى أثناء الحروب الصليبية المعروفة فى التاريخ الوسيط .

وقلعة الجبل هى التى سكنها صلاح الدين وأولاده من بعده واتخذوا منها مقرا لدواوين الحكومة وبقيت كذلك إلى أن جاء محمد على الكبير فاتخذ منها كذلك مقراً لدواوينه الكثيرة . ثم لم يكن إلا فى عهد إسماعيل أن انتقلت دور الحكومة من قلعة الجبل إلى دور أخرى فى وسط مدينة القاهرة .

وقراقوش هو الذى حمى عرش العزيز ابن السلطان صلاح الدين وأنقذه من فتنة كبيرة كادت تودى بملكه .

وقراقوش هو الذى أصبح فيما بعد وصيا على عرش المنصور بن العزيز الذى مر ذكره . ولم يجد العزيز فى دولته رجلا أولى منه بهذا المنصب الكبير ولا أشجع ولا أقدر منه على القيام بهذه المهمة .

فانظر إلى رجل هذا شأنه وتلك سيرته كيف أصبح له ذكر سيء فى التاريخ. واسأل من المسئول عن كل ذلك . نجد أنه الأدب. فما أقدر الأدباء فى كل زمان ومكان على أن يقلبوا الحق باطلا والباطل حقا . وكم فى تاريخ البشر من رجال عظماء أهملهم الأدب ونهض بغيرهم ممن لا يدانونهم فى العظمة الادبية أو العظمة الخلقية أو العظمة الحربية .

ولقد تنوعت طرق السخرية عند الخاصة والعامة ولكن الفرق عظيم بين طرق هؤلاء وأولئك .

وإن الناظر فى هذه الحكايات الصغيرة التى اشتمل عليها كتاب ابن مماتى يرى لأول وهلة أنها شبيهة بنوادر الحمقى والمغفلين ، وهى النوادر التى غصت بها كتب الأدب العربى . ومن ثم فأدب ابن مماتى هو من هذا الضرب المسمى فى فن السخرية باسم « الهزل » أو « الفكاهة » والذى لا يصدر فى الغالب إلا عن العامة من الناس الذين لاهم لهم الا تزجية أوقات الفراغ .

ونظرة أخرى إلى كتاب الفاشوش تدلنا كذلك على ان هذه النوادر الصغيرة لم تكن من محفوظ العامة قبل أن يظهر هذا الكتاب ، وإنما

هى من تأليف ابن مماتى لغرض معين هدف إليه الكاتب؛ وهو النيل من شخصية رجل كبير لا يستطيع الناس النيل منه؛ وهو بهاء الدين قراقوش أو التشنيع على هذا الرجل وتشويه سمعته والعبث بحقيقته ومسخ صورته فى أذهان الخاصة والعامة على السواء. ومن هنا كانت حكايات ابن مماتى «سخرية» تعجب الخاصة فضلا عن كونها «هزلا» و«مزاحا» يعجب العامة(١).

* * *

رسائل الوهرانى

الوهرانى هو عبد الله محمد الوهرانى (نسبة إلى وهران فى بلاد المغرب) أحد الفضلاء الظرفاء. قدم الديار المصرية فى أيام صلاح الدين الأيوبى. فلما دخل البلاد ورأى فيها القاضى الفاضل، والعماد الأصفهانى وابن سناء الملك وغيرهم من رجال تلك الحلبه علم من نفسه أنه ليس من طبقتهم ولا تنفق سلعته مع وجودهم. فعدل عن طريق الجد وسلك طريق الهزل. وكتب رسائله المشهورة، وتداولها الناس وطالعوا فيها خفة روحه ورقة حاشيته وتمام ظرفه. ويظهر أن المغاربة الذين منهم الوهرانى كانوا يلقون الإكرام من جانب الخلفاء الفاطميين الذين عاملوا بنى جنسهم من المغاربة معاملة ممتازة. ولذا حقد المصريون عليهم بعد زوال العهد الفاطمى، وطفقوا يتهكمون بهم فى العصر الأيوبى ويسرفون فى الضحك منهم حينذاك. ومن ذلك أن أهل مصر كانوا إذا

---

(١) للمؤلف كتاب باسم (الفاشوش فى حكم قراقوش) فليلتمسه من أراد الزيادة.

وصفوا رجلا بكثرة الكلام مع التكلف والادعاء والسفه والغلظة والغباء سموه « بالمغربى » . !

وفد الوهرانى إلى مصر فى طلب وظيفة من الوظائف بديوان الإنشاء . فحيل بينه وبين ذلك . فطفق من جانبه يتهكم بعلماء مصر وقضاتها وفقهائها وكتابها وشعرائها وبعض وزرائها ، حتى لكأن الغرض الأول من كل ذلك هو أن يخافه هؤلاء ، ويحاولوا إسكاته بوظيفة من تلك الوظائف !

نموذج من رسائل الوهرانى

كتب الوهرانى على لسان بغلته إلى الأمير عز الدين موسك أحد أمراء الدولة الأيوبية ، وإليه ينسب شارع الموسكى المشهور بمدينة القاهرة :

بسم الله الرحمن الرحيم

المملوكة (ريحانة) بغلة الوهرانى تقبل الأرض بين يدى المولى عز الدين حسام أمير المؤمنين . نجّاه الله من حر السعير ، وعطر بذكره قوافل العير ، ورزقه من القرط والتبن والشعير وَسْقَ(١) مائة ألف بعير . واستجاب فيه صالح الأدعية من الجم الغفير ، من الخيل والبغال والحمير . وينهى ما تقاسيه من مواصلة السير وسوء القيام ، والتعب فى الليل والدواب نيام . فقد أشرفت مملوكته على التلف ، وصاحبها لا يحتمل الكُلَف ، ولا يوقن بالخلف . ولا يحلّ به البلاء العظيم ، إلا فى وقت حاجتها إلى القضيم . لأنه فى بيته مثل المسك العبير

(١) وسق بسكون السين بمعنى حمولة أو زنة أو سعة

والإطريفل[1] الكبير . أقل من الأمانة فى الأقباط ، والعقل فى رأس قاضى سنباط . فشعيره أبعد من الشعرى العَبُور[2] . لا وصول إليه ولا عبور . وقرطه أعز من قرط مارية . لا يخرجه بيع ولا هبة ولا عارية . والتبن أحب إليه من الابن . والجلبان[3] أعز من دهن البان . والقضيم بمنزلة الدر النظيم والقضبّة أجمل من سبائك الفضة . وأما الفول فدونه ألف باب مقفول . فما يهون عليه أن يعلف الدواب إلا بعيون الآداب ، والفقه اللباب ، والسؤال والجواب ، وما عند الله من الثواب .

ومعلوم يا سيدى أن البهائم لا توصف بالحلوم ، ولا تعيش بسماع العلوم . ولا تطرب إلى شعر أبى تمام . ولا تعرف الحارث بن همام . ولا سيما البغال التى تشتغل فى جميع الأشغال . شبكة من القصيل أحب إليها من كتاب التحصيل . وقفّة من الدريس أشهى إليها من فقه محمد بن إدريس . ولو أكل البغل كتاب المقامات مات . فإن لم يجد إلا كتاب الرضاع ضاع . ولو قيل له أنت هالك ما لم تأكل موطأ ابن مالك ما قبل ذلك . وكذلك الجمل لا يتغذى بأبيات الجمل . وحزمة من الكلا أحب إليه من شعر أبى العلا . وليس عنده بطيب شعر أبى الطيب . وأما الخيل فلا تطرب إلا بسماع الكيل . وإذا أكلت كتاب

(١) الإطريفل دواء من الأدوية المذكورة فى تذكرة داود وهو نوعان صغير وكبير . ولكل منهما فائدته فى علاج الأمراض .

(٢) اسم نجم فى السماء .

(٣) نوع من العلف تأكله البهائم

الذيل ماتت فى النهار قبل الليل . والويل لها ثم الويل . ولا تستغنى الأكاديش عن الحشيش بكل ما فى الحماسة من شعر أبى الحريش . وإذا أطعمت الحمار شعر ابن عمار ، حل به الدمار . وأصبح منفوخا كالطبل على باب الإصطبل

وبعد هذا كله قد راح صاحبها إلى العلاف ، وعرض عليه مسائل الخلاف . وطلب من تبنه خمس قفاف . فقام إليه بالخفاف . فخاطبه بالتقعير ، وقرأ عليه آية العير ، وطلب منه وَيْبة شعير . فحمل على عياله ألف بعير . فانصرف الشيخ منكسر القلب ، مغتاظا من الثلب ، وهو أنحسُ من ابن بنت الكلب ، والتفت إلى المسكينة وقد سلبه الغيظ ثوب السكينة . وقال لها : إن شئت أن تكدى فكدى . لا ذقت شعيرا مادمت عندى !

فبقيت المملوكة حائرة ، لا قائمة ولا سائرة فقال لها العلاف :

لا تجزعى من حباله . ولا تلقى على سباله . ولا تنظرى إلى نفقته ، ولا يكن عندك أحس من عنقفته . هذا الأمير عز الدين ، سيف المجاهدين ، أندى من الغمام ، وأمضى من الحسام ، وأبهى من البدر ليلة التمام ، يرثى للمحروب ، ويفرّج عن المكروب ، وهو نبى بنى أيوب . لا يرد قائلا ، ولا يخيب سائلا .

فلما سمعت المملوكة هذا الكلام جذبت الزمام ، ورفصت الغلام ، وقطعت اللجام ، وشقت الزحام ، حتى طرحت خدها على الأقدام . ورأيك العالى والسلام .

نموذج آخر من رسائل الوهرانى

كتب الوهرانى يتهكم برجال الدين وبكثرة ما يصلون ويأكلون فى رمضان فقال :

« ... كلما ذكر الخادم تلك المواد الخصيبة وما يجرى عليها من الخواطر المصيبة ، علم أن التخلف عنها هو المصيبة .

ولكنه إذا ذكر ما يأتى بعدها من القيـــام والقعود والركوع والسجود علم أن أجره ما يأكله فى تلك الوليمة نحو من عشرين تسليمة . كل لقمة بنقمة . ما تحصل له الشبعة إلا بأربعين ركعة . فتكون الدعوة عليه ، والحضور فى الشرطة أحب إليه !

فزهد الخادم حينئذ فى الوصول ، وقنع بالمحصول . إذ ليس له من الدين ، ولا قوة اليقين ، ما يترك معه الراحة تحت المراويح إلى القيام بسنة التراويح . لأنه فى ذلك على رأى القاضى النجيب الذى إذا دُعى إليها لا يجيب . فموعد الإلمام انقضاء شهر الصيام .

* * *

مقامات الوهرانى

وللوهرانى — فيما عدا ذلك — مقامات ومنامات من أهمها « المنام الكبير » . وفيه تخيل أنه رأى فيما يرى النائم كأن القيامة قامت . والمنادى ينادى : هاموا إلى العرض على الله . قلت : فخرجت من قبرى أيمم الداعى إلى أن بلغت أرض المحشر .

وهناك التقى الوهرانى بأناس كثيرين ، قدامى ومحدثين . منهم الفقهاء ومنهم الأدباء ، ومنهم الشعراء ، ومنهم الفلاسفة ، ومنهم المتصوفة ، ومنهم الملوك والسلاطين . وذلك كله على نحو يذكرنا « برسالة الغفران » لأبى العلاء المعرى .

واتخذ الوهرانى من هذه الرسالة المنامية وسيلة إلى السخرية بهؤلاء الناس جميعا . فسخر منهم بأسلوب يمتاز بالخفة والرشاقة . وذلك بالقياس إلى أسلوب المعرى الذى امتاز بشىء من الجد والصرامة ، كما امتاز بميل إلى الغموض والغرابة وذلك فى المعنى واللفظ جميعاً .

مثال أخير من سخرية الوهرانى

كتب الوهرانى يقول :

سبعة أشياء من أبواب البر تسخط الله وترضى الشيطان وهى :

انقطاع ابن الصابونى إلى الله عز وجل فى القرافة .

وتعصب الخبوشانى لقبر الإمام الشافعى .

وتنفل القاضى قبل صلاة الجمعة وبعدها .

وصلاة السديد الطبيب التراويح فى شهر رمضان . .

وبكاء الفقيه بهاء الدين على المنبر يوم الجمعة .

وسماع ابن عثمان لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فى جمعة واحدة .

وحضور ابن مماتى لمجالس الوعظ فى القرافة وبكاؤه عند قراءة القرآن ... ألخ .

ذكروا أن هذه الأعمال الصالحة لا يعبؤ الله بها . وهى أحب إلى إبليس من كبار الذنوب !

تلك أمثلة من رسائل الوهرانى . لعل القارئ يلحظ فيها تنوعا فى الطريقة ، وبراعة فى الفكاهة ، وقدرة على التسلية . وربما كانت الطريقة الأخيرة من هذه الطرق تذكرنا ببعض ما تصنعة الصحف السيارة فى أيامنا هذه .

* * *

هز القحوف فى شرح قصيدة أبى شادوف :

فى القرن العاشر الهجرى كان العثمانيون الأتراك قد ملكوا البلاد المصرية . وكانت أسباب اللهو والمجـــون قد اتسعت أكثر من ذى قبل . وفى ذلك الوقت ظهر ميل الشعب المصرى إلى شرب القهوة ، واتخذوا لأنفسهم أماكن عامة يتناولون فيها هذا الشراب . وفى مكان شرب القهوة كان يجتمع الشباب المصرى للنكات والمداعبات ، ولسماع « الشاعر » الذى يقص عليهم القصص الشعبية المشهورة على نحو ما نشاهده فى بعض الأحياء الشعبية بمدينة القاهرة فى أيامنا هذه .

وترك لنا ذلك العصر العثمانى طائفة كبيرة من الفكاهات المصرية العجيبة نكتفى منها بالصورة التى نجدها فى كتاب « هز القحوف فى شرح قصيدة أبى شادوف »... وهو كتاب ظريف موضوعه السخرية من أهل الريف . يصف ما هم فيه من الفقر والفاقه والجهل والذل ، وهذه الأمور التى هبطت بالفلاح المصرى فى العصر العثمانى إلى درجة البهائم .

وفى ذلك يقول مؤلف الكتاب :

لا تصحب الفلاح لو أنه   نافجة أباحها صاعدة [1]
ثيرانهم قد عبرت عنهمو   بأنهم من طينة واحدة ! !

زعم المؤلف فى كتابه هذا أن رجلا من رجال الريف يدعى (أبا شادوف) نظم قصيدة فى وصف الفلاح . فشرح المؤلف هذه القصيدة باللغة العامية ، وبالغ فى تصوير البؤس الذى يعانيه الفلاحون ووصف أكلهم وشربهم وطرائقهم فى النوم واللبس . وأتى على بعض عاداتهم فى الأفراح والمآتم والأعياد ونحو ذلك :

أما مؤلف الكتاب فرجل يقال له الشربينى ، نسبة إلى شربين إحدى قرى مصر . وقد جعل كتابه جزأين :

أولهما — فى السخرية من الفلاح فى الريف .

وثانيهما — فى شرح قصيدة أبى شادوف .

ولا يسع القارئ لهذا الكتاب فى الحقيقة إلا أن يلعن الحكم العثمانى البغيض الذى خلق فى المصريين ذلك الروح — ونعنى به الروح الذى أملى عليهم احتقار الفلاح ، وعمل الفلاح ، وخلق الفلاح مع أن الحكم العثمانى ذاته هو السبب الحقيقى فى كل ما أصاب هذا المسكين من كوارث ، وما أحاط به من هموم وآفات ومظالم . ولا غرابة فى ذلك فقد كان هذا الفلاح بين (المطرقة والسندان) - كما تقول العامة . أما (المطرقة) فنظام الحكم . وأما

---

(١) النافجة الطيب . والمراد لا تقرب من الفلاح ولو كانت رائحته تصعد فى كل مكان كالطيب .

(السندان) فكُشافه ، ومديروه ، وملتزموه وغيرهم ممن يجمعون الضرائب حينا ، ويخضعون الفلاح لنظام السخرة — أو العونة — حينا آخر .

نماذج من هز القحوف

أراد الشربيني هذا أن يصف لنا في كتابه صورة الجهل الذي خيم على ريف مصر فأورد هذه الحكايات :

(١) فحكى لنا أن رجلا من الفلاحين سأل آخر بقوله : إيش هجاك إبريق ؟ »

فأجابه بقوله : « ب ، ر ، ب ، ق ، و ، أ »

فقال له الأول : « إيش عرفك أن فيها واو » ؟

فأجاب : « النقطة اللي فوق الواو » !

فقال له الأول « صحيح أنت فصيح لأخوالك » !

(٢) وعطس رجل من الفلاحين فقال له فقيه من أهل الريف : « يرحمك اللي عطسك . ولوشاء لفطسك ، وخرج العطسة من فرافير اللي خلقك » .

فقال له الفلاح :

« يافقي . لا عدت تنسانا من دي السورة تقرؤها علينا في المسا والصباح . وأعطيك أيام المقات أربع بطيخات . وتقرأ السورة لأم معيكة . وتهديها لأبو زعبل . لأنه مات من مدة شهرين » . !!

فضحك منه الرجل ومضى إلى سبيله .

(٣) ودخل رجل منهم قرية على شاطئ النيل فى يوم جمعة . فرأى الناس قاصدين إلى صلاة الجمعة . فاعتقد أنهم ذاهبون إلى ضيافة صنعها لهم أمير البلد . فذهب مع الناس إلى أن دخلوا المسجد . وجلس فى بعض الصفوف . إلى أن أقبل الخطيب وصعد على المنبر . فصار الفلاح ينظر إليه وهو مرتاب وخائف ومتحير إلى أن فرغ من خطبته . ثم أقيمت الصلاة وسمع ضجيجهم بالتكبير والتهليل فاعتقد أنها «هوجة» وقعت بينهم ، وصاح : يآل سعد .. الحقونى ! الحقونى ! وسحب النبوت وخرج هاربا وهو يقــول : خدوك القوم يابو كتكوت !

ولم يزل فى خوف وكرب حتى وصل إلى الكفر .

(٤) ودخل عالم من علماء الريف مسجدا فى القرية ليصلى صلاة الجمعة وتعجب حين رأى الفلاحين يدخلون المسجد للصلاة وبيد كل منهم قفة من خوص ، وفيها مغرفة ، وخشبة وسكين من حديد ، وفأر ميت معلق من عنقه . وبعد قليل جاء خطيب المسجد فى نفس الصورة التى دخل بها الفلاحون من قبله . فاقترب العالم من خطيب المسجد وسأله عن السبب فى ذلك ؟ فأجابه الخطيب بأنه هو الذى أمر الفلاحين ، وأمر نفسه بذلك ، وإلا كانت الصلاة باطلة . فقال العالم للخطيب : لكن ما هى الحكمة فى ذلك ؟ فقال الخطيب : إنه حديث قرأته فى كتاب عندى يقول : حدثنى فلان عن فلان أن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

لا تصح جمعة أحدكم إلا ، بقفة ومفرقة وخشبة وسكينة وفار .

فطلب العالم منه الكتاب وقرأ الحديث فإذا هو : « لا تصح جمعة أحدكم إلا بعفة ومعرفة وخشية ووقار .

أما غفلة الفلاح المصرى فقد أبان عنها مؤلف الكتاب فى كثير من الحكايات الأخرى . ومنها : هذه الحكاية الطويلة التى حكاها عن فلاح مصرى ترك الكفر الذى يعيش فيه ، وجاء لزيارة المدينة . قال مؤلف الكتاب :

(٥) « اتفق لثلاث نسوة من أهل مصر أن خرجن يتفرجن فى أزقة المدينة . فلقين رجلا من قحوف الريف وهو فى حالة رديئة . وعلى رأسه قفص ملآن من الفراخ يريد أن يبيعها ويسد بثمنها مال السلطان فقالت إحداهن للأخرى :

ما تقولى فى اللى ياخد الفراخ من الفلاح ده ؟

فقالت الأخرى : وأنا آخد ثيابه .

وقالت الثالثة : كل ده ما هو شطارة . الشطارة فى اللى يبيعه بيع العبيد .

ثم إن (الأولى) اللى التزمت بأخذ فراخه أقبلت عليه ورغبته بزيادة فى الثمن . فمضى معها إلى أن وصلت إلى درب من دروب مصر وبيت له بابان وقالت له :

اقعد هنا على الباب ده فإنه باب بيتى . واصبر حتى أجىء لك

بالفلوس . ثم أخذت القفص بالفراخ ومضت لحال سبيلها من الباب الثانى . ولم يزل الفلاح جالسا على الباب الأول . ولم يأته أحد . فتحير فى نفسه وسأل عن المرأة التى أخذت الفراخ . . فقال له الناس :

يا قليل العقل ، وسقيع الذقن . البيت ده نافد .

فصاح الفلاح ولطم على وجهه . وبينما هو على هذه الحال إذ أقبلت عليه (الثانية) وقالت له : إيش صابك ودهاك يا مسكين . أنت راجل غريب . وعليك مال السلطان . وضحكت عليك العاهرة وخدت منك الفراخ !

فقال لها : وحياة عيونك يامليحة ما معى غيرهم .

فقالت له : امشى معايا إلى بيتنا وأنا أعطيك شى من النقود صدقة عنى .

فقال لها الفلاح : الله يجزيكى خير . وأنا لاخر لما أروح الكفر أزورك بحزمة لحلاح ، وحزمة بصل ، وشوية فول . وتبقى صاحبتى . وإن شاء الله أجيب لك كمان عشرين قرص جلّة .

فأخذته وسارت إلى أن وصلت إلى بيت كبير عالى البنيان . فسألت عن صاحبه . فقالوا لها : هذا بيت الأمير فلان وقد خرج هو وبعض أصحابه إلى بعض المتنزهات . فدخلت البيت فلم تر فيه أحداً سوى رجل كبير بواب . ودخل الفلاح معها إلى وسط الدار فرأت فيه بئراً من الماء تملأ منه الحريم . فوقفت ونظرت فى البئر ثم ولولت وصرخت وبكت بكاء شديداً . فقال لها الفلاح :

تبكى ليه يا مليحة ؟

فقالت له : كعبك شؤم على . فقد وقعت أساورى الذهب فى البئر .

قال لها : ما تخافيش يا مليحة . أنا أنزل وأجيبهم لكى من البئر .

فقالت له : تعرف تغطس فى الميه ؟

قال لها : دى صنعتى . وطول عمرى فى الهم والغم .

ثم قال لها : أربطينى فى حبل البكره دى . ودلينى فى البئر .

ثم إنه خلع ثيابه . ودلته فى البير إلى أن وصل إلى الماء فأرخت الحبل عليه . وأخذت ثيابه وذهبت إلى حال سبيلها .

هذا ما كان منها . وأما ما كان من الفلاح فإنه لم يزل يغوص فى الماء ويفتش فى قعر البير حتى كل ومل واسود جلده من البرد . وكانت أيام شتاء . فلما اشتد الأمر صار يصيح وينادى المرأة ، فلم يجبه أحد .

فبينما هو فى هذه الحالة إذ أقبل الأمير وأصحابه وسمعوا الفلاح يصيح فى البير وينادى :

طلعينى يا صبية . طلعينى يامليحة . دا ماهوش مليح منك . ده عيب عليكى . أنا مت من السقيع والبرد .

فقال له الخدم : إنت إنسى أم جنى ؟

فقال لهم : أنا أبو زعبل بن حنجل من كفر ال . . . .

فقال بعضهم لبعض : ده عفريت من غير كلام !

فقال لهم الفلاح : والله يا وجوه الخير ما أنا عفريت . أنا راجل فلاح . وحكى لهم قصته . فدلوا له الحبل فتعلق فيه وطلع ، فلما رآه

الخدم علموا أنه إنسى ،ثم قال بعضهم لبعض : ده حرامى ووقع فى البير ، فنزلوا عليه ضرب ، وطردوه وراح يجرى وهو عريان بردان جعان سقعان ، ولا يدرى أين يذهب .

فأقبلت عليه (الثالثة) وهو فى هذه الحالة ، وقد صارت الأولاد تضربه وتقول : المجنون ! المجنون ! فوضعت المرأة يدها على ظهره ومسحت وجهه بمنديل كان معها ، وسترته بفوطة . وقالت له : أمرك لله يا مسكين يا حزين . ضحكت عليك نسوان مصر . وخلوك فى دى الحال . وأنت راجل غريب . وعليك مال السلطان . فبكى الفلاح وشكا وقال لها :

يا مليحة : وحياة شلشولك خدوا فراخى وخدوا ثيابى . وخدوا حزامى الليف ، وخدوا مشدى ومركوبى ، وما عدت أصدق كلام النسوان أبداً . فقالت له : لأ تظن يا فلاح أنى من نسوان مصر . أنا عمرى ما خرجت من بيتى غير النهارده . ولما رأيتك فى دى الحالة شفقت عليك . ومرادى أعمل معاك جميل وآخذك لبيتى . وألبسك لبس مليح ، وأخليك شابى ظريف . وأعملك مملوك ، وأحط لك خنجر فى حزامك ، وأعلمك التركى وتبقى تقول : شندى بندى .

فقال لها الفلاح : أنا فى عرضك يامليحة تعمليني جندى ، وتعلميني التركى . وأنا على الحرام من أم شحيبر كل من عاد يقول لى كانى مانى فى زمانى قطعت رأسه ، ولو كان أبو عوكل شيخ الكفر .

فقالت له : سير بنا على بركة الله .

فسار معها إلى أن وصلت إلى منزلها . فأدخلته فيه . ووضعت بين يديه الطعام ، فأكل وشرب وارتاح فى نفسه ، ثم أتته بماء ساخن ، وغسلته بالليفة والصابونة . وألبسته قميص وشخشير جوخ ، وقاووق قطيفة ، وشاش قصب . وحزمته بحزام وفيه خنجر . وحلقت لحيته وشاربه وجعلته مملوك حليق . وقالت له :

إذا كلمك أحد فلا ترد عليه جواب . بس هز راسك . فإذا ألح عليك فى الكلام بالحماقة وشدد عليك قول له : «كرته هريف . يوك يمه(١)

ولا ترد على ذلك . فإن الكلمة دى أصل التركى إذا عرفتها ما يمضى عليك شهر زمن إلا وأنت (سنجق) ويبقى لك طبلْ وزمر .

فقال لها الفلاح : أنا فى عرضك يامليحة تخلينى أبقى سنجق وتصير لى سطوة فى الكفر وأبقى إن شاء الله أزورك بشوية كشك وعشر طورات كمك من اللى بتعمله أم شحيبر . وأعمل لك قاعة . وأكسيها لك بالوحل والجله . وأفرشها لك بالتبن والقصل . وتبقى تنامى فيها . ويقولوا يقولوا الجدعان :

أبو شحيبر طلع المدينة فلاح ورجع جندى ، يقطع الرووس يقول شندى بندى .

ثم إنها أخذته ونزلت به إلى سوق خان الخليلى وجلست فى دكان من الدكاكين اللى تبيع أنواع الأقمشة والخز والأطلس والشاشات . فقالت للتاجر :

---

(١) عبارة قذف قريبة من قولهم . أيها الرجل القذر ليس معي طعام لأمثالك

أريد كذا وكذا مما يساوى ألف دينار . فأحضر لها التاجر ماقالت عليه وربطته فى بقجة وقالت له :

ياسيدى يكون المملوك ده عندك رهن حتى أروح لبيت الأمير ، وأعرض على حريمه القماش وأجيب لك الدراهم ، فقال لها التاجر :

توجهى على بركة الله .

فأخذت الحوائج وتركت الفلاح . ومضى نصف نهار ولم ترجع المرأة إلى التاجر . فتضايق والتفت إلى الفلاح وقال له ستك بطت علينا . فهز الفلاح رأسه كما أوصته ولم ينطق بكلمه . فكرر عليه التاجر الكلام فهز رأسه ولم يتكلم . فتضايق التاجر وقال لجيرانه التجار : ماهذه البلية فى هذا المملوك ؟ كلما كلمته هز رأسه كأنه مايعرف إلا بالتركى .

فبينما التاجر على هذه الحال . إذ أقبل عليه رجل عسكرى . فقال له التاجر :

بالله عليك ياسيدى تكلم لنا هذا المملوك بالتركى . وعرفنا عن حاله . فكلمه الجندى بالتركى فهز رأسه . فاغتاظ منه وسل عليه السيف وأراد أن يضربه . فلما رآه الفلاح يريد ذلك صاح قائلا :

« كرته هريف يوك يه »

فلما سمع الجندى منه ذلك نزل عليه بالضرب .

فصاح الفلاح يتكلم ويصيح بكلام الفلاحين ويقول :

أنا فى جيرتك يابو زعبل .

فضحك عليه الجندى وبقية التجار واستخبروه فحكى لهم القصة من أولها إلى آخرها . فعرفوا أنها حيلة عملت على التاجر والفلاح . فقام التاجر زعراه وأخذ جميع ماعليه وباعه بعشرين دينارا . ومكث الفلاح سنة . ثم خلص روحه وهرب إلى الكفر » .

الفصل الثالث

الكتابة التاريخية

هناك نوع ثالث من النثر ، لا هو بالمبالغ فيه من ناحية الصياغة الفنية كنثر الرسائل الديوانية ، ولا هو بالمكتوب بلغة قريبة من العاميّة كالكتب الشعبية أو الهزلية . ولكنه بين بين . ونقصد بهذا النثر الوسط نثر الكتب العلمية .

غير أن أقرب هذه الكتابات العلمية إلى دائرة الأدب إنما هو النثر التاريخي . ومازالت هذه الظاهرة سارية إلى وقتنا هذا . ففي كتب التاريخ نجد مادة علمية لاشك فيها ، هي الحقائق التاريخية ذاتها . ونجد هذه المادة مكتوبة بلغة راقية لا تخلو من الأناقة اللفظية أحيانا ، أو الأناقة المعنوية أحيانا . وهي لغة تقع في وسط الطريق بين الأسلوب العلمي والأسلوب الأدبي . على أن لكتب التاريخ العربي بوجه عام ميزة كبيرة هي امتزاج الأدب في أكثرها بالتاريخ امتزاجا عظيما ،

والفترة التي نؤرخ لها نحن في هذا الكتاب تنقسم إلى عصور ثلاثة : هي العصر الأيوبي ، والعصر المملوكي ، والعصر العثماني . وقد أرخ لكل من هذه العصور الثلاثة مؤرخون كثيرون خدموا هذه العصور من نواح عدة . ولولاهم لشق علينا أن نعرف الكثير عنها . فمنهم من كتبوا في السير

والتراجم بما فى ذلك سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وتراجم الملوك والسلاطين ونحوها . ومنهم من كتب فى تاريخ الدولة الإسلامية عامة . وإن كان هؤلاء بمصر قليلين بالقياس إلى أمثالهم فى غير مصر من الأقطار الإسلاميه الأخرى . ثم منهم من كتبوا فى تاريخ الدول المصرية خاصة وهؤلاء هم الكثرة الغالبة من المؤرخين المنتمين إلى العصور الثلاثه التى نعنى بها . ومنهم من كتبوا فى تاريخ البلاد والمدن الإسلامية الاخرى وهكذا .

مؤرخو العصر الأيوبى

كان لبعض المؤرخين فى العصر الأيوبى عناية كبيرة بكتابة السيرة . والحق أنه كما كانت سيرة النبى صلوات الله عليه وسلامه تحتل مكانا ممتازا فى الشعرين الأيوبى والمملوكى . فكذلك وجدنا هذه السيرة النبوية تحتل نفس المكانة فى كتب التاريخ المنسوبة إلى هذين العصرين . وممن اشتهروا بذلك فى العصر الأيوبى :

أبو على الجوانى المصرى :

وهو شرف الدين أبو على محمد الحسينى النسّابة . كان نقيب الأشراف فى الديار المصرية . واشتغل بالتصنيف فى علم النسب . وهو فيه واحد . وله فيه تصانيف كثيرة . منها كتاب (طبقات الطالبيين) . توفى سنة ثمان وثمانين وخمسمائة .

وله كذلك شجرة رسول الله فى النسب النبوى . ومعها ملاحظات تاريخية قيمة . ويقال إن منه نسخة فى مكتبة برلين .

تأتى بعد ذلك كتب التراجم عامة ، وهى كثيرة فى العصر الأيوبى . وسنكتفى هنا بالكتب المنسوبة إلى كل من : العماد الأصفهانى ، وابن شداد . وابن خلكان . والقفطى والأدفوى .

العماد الأصفهانى :

نشأ بأصفهان . وأتى بغداد فى حداثته . وتعلم بالمدرسة النظامية . ثم انتقل إلى دمشق عام ٥٦٢ ﻫ ، ورحل مع صلاح الدين إلى مصر . واستقر مقامه بها . وله كتب كثيرة . منها كتاب بهذا العنوان :

الفتح القسى فى الفتح القدسى [(١)]

وهو تاريخ لسبع سنوات فقط من حياة السلطان صلاح الدين الأيوبى — أعنى من سنه ٥٧٦ إلى سنة ٥٨٣ للهجرة . وهى السنة التى تم فيها لصلاح الدين فتح بيت المقدس . والقاضى الفاضل هو الذى أطلق على الكتاب هذه التسمية . وذلك بسبب أن العماد الأصفهانى توخى السجع فى كتابة هذا الكتاب من أوله الى آخره . وهى طريقة غريبة فى كتابة التاريخ . وربما أضرت بالحقائق التاريخية نفسها مع ذلك . لأن هذه الحقائق تتعرض للضياع وسط هذا الزحام الشديد من البديع بألوانه المختلفة كالسجع والجناس والطباق وما شاكل ذلك . وهذا هو ما شعر به مؤرخ من مؤرخى العصر الأيوبى اسمه «أبو شامة»

---

(١) القسى نسبة إلى قس بن ساعدة الأيادى خطيب العرب فى الجاهلية . والقدسى نسبه إلى القدس :

صاحب كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين (النورية والصلاحية) عندما اضطر إلى الرجوع إلى كتاب الفتح القسى هذا .

وللعماد الأصفهانى كتاب آخر فى التراجم تزيد شهرته على الكتاب الأول فى الواقع . وهذا الكتاب الأخير هو كتاب :

خريدة القصر وجريدة العصر

وفيه تراجم أدباء القرن السادس الهجرى خاصة . وهو حلقة من سلسلة كتب عنيت بتراجم الأدباء . الحلقة الأولى كتاب (يتيمة الدهر) للثعالبى . والحلقة الثانية كتاب (دمية القصر) للباخرزى . والحلقة الثالثة كتاب العماد هذا[١] .

وللعماد الأصفهانى — غير ذلك — كتاب يمكن أن يُعد من كتب التراجم وعنوانه :

البرق الشامى

وقد صدره بترجمة لنفسه . ثم ذكر فيه بعض الفتوح الشامية . وشبه أوقاته التى قضاها فى الشام بالبرق الخاطف كناية عن طيبها وسرعة انقضائها . ثم بسط أخبار صلاح الدين وفتوحه ، وأخبار بلاد الشام فى أيامه . وجمل ذلك كله فى سبع مجلدات . وانتفع به المؤرخون من بعده . ومن أولهم أبو شامه الذى تقدم ذكره ، وسبق أن قلنا إنه اعتمد على الأصفهانى فى كتابه المشهور باسم الروضتين فى أخبار الدولتين وللعماد كتب أخرى كذلك فى تاريخ السلاجقة لا تعنينا فى هذه الفترة .

(١) الجزء الخاص بشعراء مصر من هذا الكتاب قام بنشره الأساتذة أحمد أمين ، شوقى ضيف ، إحسان عباس ، وذلك عام ١٩٥١ .

ابن شداد

أبو الحسن بهاء الدين بن شداد . ولد بالموصل سنة ٥٣٩ للهجرة ، ودرس بها . ثم رحل إلى بغداد وتعلم وأفاد . فقد عين هناك « معيدا » بالمدرسة « النظامية » . ثم صار أستاذاً بمدرسة الموصل الكبرى . ثم رحل إلى دمشق . وبها لقى صلاح الدين الأيوبى والتحق بخدمته ولما توفى السلطان صلاح الدين رحل ابن شداد إلى حلب وعين قاضيا بها . وكانت له منزلة رفيعة فى عهد الظاهر والعزيز من أبناء السلطان صلاح الدين.

والكتاب الذى ذكرنا من أجله ابن شداد على أنه من مؤرخى الدولة الأيوبيه هو كتاب :

النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية

وهو فى سيرة السلطان صلاح الدين الأيوبى . ألفه عقب وفاته وجعله فى قسمين .

الأول — فى نشأة صلاح الدين واخلاقه .

الثانى — فى بعض وقائعه وغزواته .

وكانت له طريقة خاصة فى كتابه هذا ، فهو إذا تكلم فى صفة من صفات السلطان صلاح الدين كصفة العدل . بدأ الكلام بآية قرآنية ، أو حديث نبوى ، أو بهما معا . ثم ذكر ما يعلمه من تمسك السلطان بهذه الصفة ، وذكر طرفاً من نوادره فى ذلك . ثم ختم الحديث فى هذه الصفة من صفات السلطان بالدعاء له أن يرحمه الله رحمة واسعة .

هذا ما كان من ابن شداد فى القسم الأول من كتابه .

أما ما كان منه فى القسم الثانى ، فإنه تحدث فيه عن وقائع السلطان حديثاً يختلف عن حديث غيره من المؤرخين فى شىء هام ، هو أنه كان كثيراً ما يعتمد فيه على مشاهداته ومعلوماته الخاصة ، لا على الروايات التاريخية المختلفة التى اعتمد عليها مثل أبى شامة فى كتابه (الروضتين) .

واستطاع ابن شداد بهذه الطريقة أن يكشف لنا عن حوادث هامة فى حياة صلاح الدين الأيوبى من الناحية الخلقية ومن الناحية السياسية ، بالقدر الذى لا نجد له نظيراً فى المصادر التاريخية الأخرى .

ابن خلكان

قاضى القضاة شمس الدين أبو العباس المعروف بابن خلكان . قيل إنه من بيت كبير فى العراق ينسب إلى البرامكة . ولد سنة ٦٠٧ للهجرة فى مدينة (إربل) . ودرس على علماء منهم ابن شداد الذى تقدم ذكره . ثم ذهب إلى القاهرة عام ٦٣٦ للهجرة . وشغل وظيفة قاضى القضاة فى دمشق . ثم اشتغل بالتدريس لمدة سبع سنوات بالمدرسة الفخرية بالقاهرة . ثم درس بالمدرسة الأمينية بدمشق . وتوفى بها عام ٦٨١ هجرية .

وله كتاب : (وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان) :

بدأ ابن خلكان كتابه هذا وهو بالقاهرة عام ٦٥٤ هجرية وما حولها ، ولكنه انقطع عنه فى أثناء ولايته القضاء بدمشق . وفرغ منه بعد ذلك فى عام ٦٧٢ هجرية .

وقد اعتمد ابن خلكان فى كتابه هذا على مؤلفات قديمة ضاع

أكثرها ، أو فقدت كلها . ومن ثم أصبح كتابه هذا من أهم المصادر التي يعتمد عليها في كتابة التاريخ الأدبي إلى اليوم .

والكتاب عبارة عن معجم تاريخي ضخم . والظاهر أن مؤلفه لم يخلف غيره من الكتب . ولكنه يساوي في الواقع مئات من الكتب . فهو ذخيرة علمية وأدبية وتاريخية ولغوية في غاية الأهمية ، وعدد التراجم التي أتى بها ابن خلكان في كتابه هذا أربت على ثلثمائة ترجمة . منها تراجم للعلماء والأدباء ـ وهي الغالبية العظمى ـ ومنها تراجم للملوك والأمراء ـ وهي الأقل . ولعل أهمية هذا الكتاب بالقياس إلى العصر الأيوبي بنوع خاص آتية من أن مؤلفه عاشر الكثيرين من علماء الشطر الأخير من حياة الدولة الأيوبية وأدبائه وفضلائه ، وكانت له بهم علاقات متينة أتاحت له جمع هذه المعلومات الكثيرة عن كل واحد ممن ترجم لهم في كتابه .

وعبارة ابن خلكان في كتابه عبارة جيدة . ولعله كان أديبا إلى جانب أنه مؤرخ . ومن هذه الناحية حسنت ألفاظه وتراكيبه ودنت من محيط الأدب .

القفطي :

وهو الوزير أبو الحسن علي بن يوسف المعروف بجمال الدين القفطي . ولد بمدينة من مدن صعيد مصر اسمها « قفط » وذلك عام ٥٦٨ للهجرة . وتلقى علومه بالقاهرة . ثم أتم دراسته ببيت المقدس .

وقضى نحوا من خمس عشرة سنة بهذه المدينة . ثم رحل بعدها إلى حلب، وبها وصل إلى مرتبة الوزير وذلك فى عام ٦٣٣ هجرية . وظل بها وزيرا حتى مات سنة ٦٤٦ .

والكتاب الذى من أجله عرضنا لذكر القفطى هو :

(إخبار العلماء بأخبار الحكماء) .

وهو معجم تاريخى للفلاسفة والأطباء والعلماء من العرب وغيرهم مرتبين على أحرف الأبجد . ويرينا هذا الكتاب صورة من علم العرب بمؤلفات الإغريق . وفى نهاية الكتاب يرى القارىء فصلا يتحدث فيه المؤلف عن حكماء تبتدىء أسماؤهم بالكنى، كأبى على بن سينا الفيلسوف وغـــيره .

وكتاب القفطى هـذا بالنوادر والطرائف أشبه منه بالكتاب العلمى المنظم. مثال ذلك: أن القفطى عرض فى كتابه لذكر « هوميروس » باسم « أوميروس » فقال :

« كان هذا الرجل من رجال يونان الذين عانوا فى الصناعة الشعرية والمنطق وأجادوهما . وجاءه « أتابور » الماجن فقال :

اهجنى لأفتخر بهجائك ، إذ لم أكن أهلا لمديحك . فقال له : لست فاعلا ذلك أبدا .

قال : فإنى أمضى إلى رؤساء اليونانيين . فأشعرهم بذلك . قال أوميروس مرتجلا :

بلغنا أن كلبا حاول قتال أسد بجزيرة قبرص ، فامتنع عليه الأسد

أنفة منه ، فقال له الكلب : إنى أمضى فأشعر السباع بضعفك . فقال له الأسد لأن تعيرنى السباع بالنكول عن مباراتك أحب إلى من أن ألوث شاربى بدمك !

على هذا النحو يترجم القفطى لشاعر كبير كهوميروس . وعلى هذا النحو لا نفهم حقيقة هذا الشاعر اليونانى ولا نفهم شعره ولا فلسفته !

إلا أن القفطى مع ذلك عنى عناية تامة بالأطباء ، وعلماء الإلهيات ، وعلماء المنطق والأخلاق ، والفلك والتنجيم .

الادفوى :

وهو كمال الدين جعفر بن ثعلب الإدفوى المتوفى سنة ٧٤٨ هجرية كان فقيها لغويا . ولد عام ٦٨٥ هجرية بمدينة (إدفو) من مدن الصعيد وعاش بقرية قريبة من القاهرة ومات بها .

وهو من كتاب التراجم إلا أنه قصر همه على تراجم المصريين خاصة . بل كان أكثر عصبية من هذا الحد . لأنه وضع كتابا فى تراجم النابهين من صعيد مصر بوجه أخص . ولذا اشتهر بكتاب :

(الطالع السعيد الجامع لأسماء الفضلاء والرواة بأعلى الصعيد) :

ترجم فيه لثلاثة وسبعين وخمسمائة رجل وامرأة من نجباء صعيد مصر وحده . ومهد لهذه التراجم بمقدمة فى وصف هذا الإقليم ـ وهو الصعيد ـ وبيان حدوده ومحاسنه ، وغرائبه ، وأقسامه ، ومدنه ،

وما به من ربط وزوايا ، وأماكن للعلم والعبادة وما به من أسواق وحمامات وغير ذلك .

ولا يؤخذ على مؤلفه من الناحية العلمية الخاصة غير تعصبه لإقليم ولد به تعصبا كبيرا يجب أن يتنبه إليه المؤرخ أو الباحث عندما يعمد إلى الإفادة من هذا الكتاب .

* * *

هؤلاء جميعاً كتبوا فى التراجم وفى السير . وهناك من الكتب التاريخية ما كتب فى تاريخ الدول المصرية . وممن اشتهروا بمثل هذه الكتب الأخيرة رجلان، أحدهما أبو شامة والثانى ابن واصل :

أبو شامة :

هو عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسى الأصل المعروف بأبى شامة . نشأ بدمشق ، وتعلم بالإسكندرية ثم رجع إلى القدس واشتغل هناك بالتدريس وبالفتيا . واشتغل كذلك بالتأليف . ومن أشهر كتبه : (كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين النورية والصلاحية) .

وربما كان هذا الكتاب من أوسع المصادر العربية الإسلامية لتاريخ الحروب الصليبية .

وقد سبق أن لاحظنا أن أكثر ما فى هذا الكتاب من أخبار مصر والشام مأخوذ من كتب العماد الأصفهانى . وذلك بعد تجريد هذه

الكتب من السجع وغيره من المحسنات اللفظية التى لا تتفق والأساليب المتبعة فى كتب العلم .

ولكتاب الروضتين ميزة كبيرة عند علماء الأدب . وهى أن مؤلفه قد ضمنه طائفة كبيرة من شعر الشعراء ونثر الكتاب . وأنه مزج الأدب بالتاريخ فى كتابه هذا مزجا لطيفاً . وأمدنا لذلك بصورة واضحة للأدب الإسلامى فى مصر والشام فى حياة نور الدين بالبلاد الشامية ، وحياة صلاح الدين بالبلاد المصرية .

ولكتاب الروضتين — من هذه الناحية — ما لكتاب السيرة لابن هشام من القدرة على الإيحاء . فلا يقرأ أحد كتاب الروضتين إلا ويحس فى قرارة نفسه بميل قوى إلى تأليف كتب فى سيرة البطلين الإسلاميين نور الدين وصلاح الدين ربما لا تقل فى روعتها عن الكتب التى ألفت فى سيرة الرسول .

ابن واصل :

هو جمال الدين أبو عبد الله . كان فى أول أمره مدرساً بمدرسة حماة . ثم استدعى إلى القاهرة عام ٦٥٩ للهجرة . وبعث به الملك الظاهر فى مهمة إلى ملك صقلية . وهو يومئذ الملك منفرد Manfred . فمكث عنده مدة طويلة . ثم عاد من صقلية ، فعين قاضيا للقضاة ، فمدرسا بحماة ، وبها توفى عام ٦٩٧ للهجرة .

معنى ذلك إذن أن ابن واصل يعتبر من مخضرمى الدولتين الأيوبية

والمملوكية ، وقد شهد بنفسه حوادث النصف الأخير من حياة بنى أيوب ، وكتابه المشهور :

مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب

وفيه قال عن نفسه فى حوادث سنة ٦١٦ ﻫ إن عمره فى تلك السنة كان اثنتا عشرة سنة وإن والده كتب فيها نسخة اليمين التى استحلف بها المنصور ملك حماة أهل هذه المدينة للملك المظفر تقى الدين محمود ، وفيها — أى فى تلك السنة — توفيت والدة الملك المظفر هذا — لحزن عليها زوجها الملك المنصور ، وأمر أن يصعد أكابر (حماة) إلى القلعة للصلاة عليها فاشترك فى ذلك والد جمال الدين بن واصل . ثم أتى ابن واصل بمراثى الشعراء التى قيلت فى ذلك اليوم ، وعند ذلك انتهى الجزء الأول من كتاب مفرج الكروب . وابن واصل فى كتابة التاريخ تلميذ لأبى شامة الذى مر ذكره ، فما قيل عن أبى شامة من أنه مزج فى كتابه التاريخ بالأدب مزجا قويا لطيفا يقال مثله فى ابن واصل .

يضاف إلى هذا أن قارىء هذا الأخير يستطيع أن يلم إلماما عاما بالنشاط الأدبى فى البيئات الشهيرة فى ذلك العصر : كبيئة حماة ، وبيئة القدس ، وبيئة اليمن وهكذا .

غير أن ابن واصل من ناحية الأسلوب الكتابى ربما كان أقل المؤرخين احتفالا باختيار اللفظ ، وعناية بتكلف البديع .

مؤرخو العصر المملوكى

وفى العصر المملوكى ظهر أكابر المؤرخين الذين أرخوا لمصر فى ذلك العصر ، وعنوا كذلك بالعصور التى سبقته .

والحق لقد نعمت مصر فى عهد المماليك بطائفة من المؤرخين ، عددهم كبير ، وفضلهم على البلاد المصرية نفسها أكبر وأعظم .

وقد اخترنا الحديث عن خمسة فقط من أولئك المؤرخين الذين عاشوا فى العصر المملوكى . وهم على الترتيب : المقريزى ، وأبو المحاسن ، وابن إياس ، والسخاوى ، والسيوطى .

وأما النويرى فقد أشرنا إليه من قبل عند الكلام عن الحياة العلمية فى مصر .

المقريزى

حياته :

هو أحمد بن على المقريزى — ولد بالقاهرة عام ١٣٦٤ للميلاد وتوفى عام ١٤٤٢ للميلاد (فعمره إذن ثمان وسبعون سنة) . وجده لأمه — واسمه ابن الصايغ الحنفى — هو الذى تولى تربيته لضيق حال أبيه ، فنشأه على المذهب الحنفى حتى مات هذا الجد ، فترك المقريزى مذهب الحنفية إلى مذهب الشافعية .

ثم التحق المقريزى بديوان الإنشاء بالقلعة . وظل كاتبا به إلى سنة

١٣٦٨ ميلادية ، ثم عمل نائبا من نواب الحكم — أى قاضيا — عند قاضى القضاة الشافعية ، فإماماً لجامع الحاكم ، فمدرسا لعلم الحديث بالمدرسة المؤيدة . وفى سنة ١٣٩٨ ميلادية اختاره السلطان برقوق لوظيفة (محتسب القاهرة والوجه البحرى) ثم فى سنة ١٤٠٨م انتقل إلى دمشق وقام فيها بتدريس الحديث . ثم عينه السلطان المملوكى (فرج بن برقوق) نائبا للحكم بدمشق . وأخيراً سئم المقريزى وظائف الحكومة على اختلافها ، ووجد عنده من الموارد ما أعفاه من تضييع وقته فى كسب العيش من طريق الدواوين .

ورجع الرجل إلى القاهرة حيث أمضى بقية حياته (بحارة برجوان) التى ولد فيها (١). واشتغل بالدرس والتأليف ، وبخاصة فى هذا العلم الذى أحبه من كل قلبه ، وهو علم التاريخ .

مؤلفاته :

١ — بدأ المقريزى نشاطه العلمى بكتابه المسمى (المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار) . عنى فيه بدراسة الخطط حتى عرف الكتاب فيما بعد باسم (الخطط) . وكان تأليفه لهذا الكتاب بين عامى ١٤١٧ — ١٤٢٦م .

وأراد المقريزى بعد ذلك أن يؤرخ لمصر تاريخا سياسيا كاملا منذ الفتح العربى إلى عصره الذى عاش فيه (وهو القرن التاسع الهجرى أو

(١) المقصود بالحارة الفندق أو الخان أو الوكالة على حد التعبير المصرى الوسيط ، أو العمارة الكبيرة على حد التعبير المصرى الحديث .

الخامس عشر الميلادى) . فقسم التاريخ المصرى الإسلامى عصوراً ثلاثة وخص كل عصر منها بكتاب معين :

٢ — أما العصر الأول — وهو عصر التبعية للخلافة الإسلامية فقد خصه المقريزى بكتاب (عقـــد جواهر الأسفاط فى أخبار مدينة الفسطاط) .

٣ — وأما العصر الثانى — وهو عصر الخلفاء الفاطميين — فقد خصه المؤلف بكتاب (اتعاظ الحنفا بذكر الأئمة الخلفا) .

٤ — وأما العصر الثالث — وهو عصر بنى أيوب والمماليك — فقد خصه بكتاب (السلوك لمعرفة دول الملوك) .[1]

٥ — كتاب المقفّى الكبير فى تراجم حكام مصر ورجالها منذ اقدم العصور . قدر له المؤلف أن يكون ثمانين مجلدا ولكن لم يخرج منها أكثر من ستة عشر .

٦ — كتاب درر العقود الفريدة فى تراجم الأعيان المفيدة ، كان الغرض منه أن يكون معجما لتراجم معاصريه ولكنه مع ذلك لم يتم .

٧ — كتاب بعنوان (النزاع والتخاصم فيما بين بنى أمية وبنى هاشم) أرجع فيه أمر التنافس على الخلافة بين الأمويين والعباسيين

---

(١) والكتاب الأول من هذه الكتب الأخيرة مفقود ، والكتاب الثانى يعده للنشر الدكتور جمال الدين الشيال أستاذ التاريخ بكلية الآداب جامعة الاسكندرية والكتاب الثالث ينشره الدكتور مصطفى زيادة أستاذ التاريخ بكلية الآداب جامعة القاهره ، وللمقريزى مؤلفات أخرى فوق ذلك منها :

إلى عصبيات جاهلية قديمة . وكان فى هذه الطريقة تلميذا لابن خلدون .

٨ — للمقريزى — كتاب ثامن وأخير ، هو كتاب (إغاثه الأمة بكشف الغمة) أرخ فيه للمجاعات التى نزلت بمصر من أقدم العصور إلى سنه ١٤٥٠ - وهى السنة التى ألف فيها الكتاب الأخير . وأدى به البحث إلى أن أسباب ماينزل بالناس من المجاعات والأوبئة إنما تتلخص جميعها فى « سوء تدبير الزعماء والحكام والقادة وإغفالهم النظر فى مصالح الجمهور » . وهو تفسير اقتصادى تاريخى كان المقريزى فيه أيضا تلميذا لابن خلدون . ولا غرو فى ذلك فقد كان المقريزى من المعجبين جدا بابن خلدون وبالمقدمة التى نسبت إليه » . وقد وصف المقريزى هذه المقدمة بقوله :

« ولم يعمل مثالها . وإنه لعزيز أن ينال مجتهد منالها . إذ هى زبدة المعارف والعلوم ونتيجة العقول السليمة والفهوم . توقف على كنه الأشياء . وتعرف حقيقة الحوادث والأنباء . وتعبر عن حال الوجود وتنبىء عن أصل كل موجود » .

وهكذا كان جل اهتمام المقريزى بالتاريخ ، شغفه بهذا العلم حبا ، فاشتغل به ، وتجرد له ، وتوفر عليه .

كتاب الخطط :

عرفنا مما تقدم أن كتاب الخطط هو أول كتاب اشتغل المقريزى بتأليفه ، وجعل له مقدمة جغرافية تاريخية طويلة صدر فيها « عن شعور مبكر بالوطنية المصرية وإحساس عميق بهذه القومية .

فهو لم يؤلف كتابه هذا ـ كما كان يفعل المؤرخون الآخرون ـ ليخدم به خزانة ملك من الملوك ، أو ليجعله قربى يتقرب بها إلى أمير من الأمراء، ولكن ألفه ليشبع به عاطفة وطنية عنده . فهو يقول فى المقدمة : « وكانت مصر هى مسقط رأسى ، وملعب أترابى ومجمع ناسى ، ومغنى عشيرتى وموطن خاصتى الخ »

وقد تناول المؤلف فى كتابه هذا وصف المدن والآثار المصرية قديمها ووسيطها ، وما اكتنف هذه المدن المصرية من خطط وشوارع وحارات وأزقة وأسواق . وما فيها من دواوين ومن دور وقصور . وما كان يزينها من مساجد وكنائس وبيع . وما كان يتخللها من مدارس ومكتبات ، ودور للعلم أو الحكمة مبتدئا فى كل ذلك بالإسكندرية ، ثم الفسطاط والقاهرة .

وقد جاء الجزء الثانى ـ وهو نصف الكتاب على وجه التقريب ـ سجلا زاخراً بأحوال القاهرة وأخبارها وطرق المعيشة فيها وهكذا

وتعرض المؤرخ فى أثناء ذلك كله لبعض الشخصيات التى شاركت فى عمران هذه المدن أو إقامة هذه المنشآت . فترجم لهم تراجم مفصلة حينا وموجزة حينا آخر . ولكنه حين أحس أن هذا التاريخ العمرانى لمصر لا يشبع عاطفته الوطنية فكر فى أن يؤرخ لمصر تأريخا كاملا على النحو الذى شرحناه آنفا .

وليس الكتاب تأريخا لمصر من هذه الناحية فقط بل إننا نعتمد عليه كذلك عندما نؤرخ للأدب المصرى والعقل المصرى والعقائد الدينية

التى انتشرت فى مصر ، والحياة الاجتماعية والحياة الاقتصادية ، وغير ذلك كله مما يتصل بمصر والمصريين .

غير أن طريقة المقريزى ـ وطريقة تلاميذه الذين من أشهرهم أبو المحاسن وابن إياس ـ ليست فى شىء من التاريخ بمعناه الحديث . لأنها طريقة ناقصة تقطع تتابع الحوادث فجأة عند نهاية السنة أو المناسبة التى ذكرت من أجلها الحادثة .

والكتاب يقع فى أربعة أجزاء لكل جزء منها فهارسه الخاصة التى تعين على الانتفاع به.

حسبنا ذلك لننتقل إلى ثانى المؤرخين الذين اخترناهم وهو :

أبو المحاسن

جمال الدين يوسف بن تَغْرى بَرْدى ولد بالقاهرة سنة ٨١٣ هـ. وأبوه مملوك تركى للسلطان الملك الظاهر برقوق . وكان أميرا على حلب ودمشق وتوفى سنة ٨١٥هـ . ونشأ ابنه جمال الدين يتيم الأبوين وتلقى العلم بالقاهرة على أساتذة منهم المقريزى وغيره . وقد احتل أبو المحاسن مركز الصدارة بين مؤرخى مصر بعد وفاة المقريزى .

واستطاع أبو المحاسن فى حياته الطويلة التى قضى معظمها فى البلاط السلطانى أن يكتب كثيرا من كتب التاريخ والتراجم بلغت اثنى عشر كتابا، من أشهرها الكتاب المعروف باسم :

(النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة) فى سبعة مجلدات ضخمة

وكثيرا ما يشير أبو المحاسن فى ثنايا هذا الكتاب إلى كتاب آخر سبق له أن ألفه، واسم هذا الكتاب «المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى». وهو كتاب حافل بتراجم الأعيان والنابهين من سلاطين المماليك البحرية والمماليك البرجية. ورتبه أبو المحاسن على حروف الأبجد. وجعله ذيلا لكتاب الوافى بالوفيات للصفدى.

ونعود إلى كتاب النجوم الزاهرة فى ملوك مصر القاهرة فنراه تاريخا لمصر من الفتح الإسلامى إلى الدولة الأشرفية عام ٨٥٧ هجرية. وفيه استطرادات كثيرة عن البلاد المجاورة.

والكتاب مرتب بحسب السنين، وذلك على طريقة كل من الطبرى وابن الأثير. ولكن الذى يمتاز به أبو المحاسن عن سابقيه أنه جعل مصر هى المحور الذى تدور عليه أحداث التاريخ بعد أن كانت مكة أو المدينة أو دمشق أو بغداد محوراً عند سابقيه لهذا التاريخ. وفى ذلك تحقيق للشخصية المصرية فى كتابة التاريخ. ويضاف إلى ذلك عناية أبى المحاسن فى كتابه هذا بزيادة النيل وبنقصانه فى كل سنة من سنى هذا التاريخ. وعنايته بتراجم الرجال الذين ماتوا فى تلك السنة من المصريين خاصة.

وأظن أنه لا يطلب من المؤرخ المصرى أكثر من هذا الحد ليثبت به قوة هذه الشخصية المصرية التى كان لا بد لها من أن تظهر فى العلم كما ظهرت من قبل فى الأدب البحت، ونعنى به الشعر والنثر الفنى. وتوفى أبو المحاسن سنة ٨٧٤ للهجرة. فلننتقل منه إلى :

ابن إياس :

محمد بن أحمد بن إياس المصرى ثالث المؤرخين الذين تناوبوا الزعامة فى كتابة التاريخ بعد المقريزى وأبى المحاسن . ولد بالقاهرة سنة ٨٥٣ هجرية . وهو يشبهه من حيث إن كلا منهما سليل أسرة مملوكية ، ولابن إياس جد يقال له (الخازندار) كان من أمراء المماليك البحرية . وأما جده المعروف (بإياس) فقد كان من مماليك السلطان الظاهر برقوق . وتولى وظيفة (الدويدار) زمن السلطان فرج بن برقوق .

معنى ذلك أن ابن إياس هذا كان يمت بصلة قرابة ونسب إلى بعض رجال الدولة المملوكية . ومع هذا وذاك فلم يترجم له كثيرون من كتاب السير ، وبقى ابن إياس مستمتعا بإقطاع وافر فعاش فى رخاء ويسر ، واشتغل بالكتابة والتأليف ، وتعلم الشعر والزجل والموشحات .

وكان ابن إياس يفتخر دائما بنسبته إلى الفرقة المسماة (أولاد الناس) وهى الفرقة الخاصة بأبناء الأمراء من المماليك . وكان أبوه من مشاهير (أولاد الناس) هؤلاء . وحدث أن تأزمت أحوال السلطان الغورى واحتاج إلى المال اللازم للصرف على مماليكه . فعمد إلى إخراج (أولاد الناس) من الجيش وحرمانهم من إقطاعاتهم . وأصاب ابن إياس من ذلك ما أصاب غيره فذهب عنه إقطاعه . ثم شكا أمره بعد سنوات إلى السلطان فرد إليه بعض إقطاعه . ومن أشهر كتب ابن إياس .

بدائع الزهور فى وقائع الدهور :

جعله شاملا تاريخ مصر منذ أقدم العصور إلى أوائل العصر العثمانى . وجاء هذا الكتاب فى أحد عشر جزءاً .

ثم من مؤلفات ابن إياس فى التاريخ كذلك كتاب آخر بعنوان : (عقود الجمان فى وقائع الزمان) .وهو مختصر مستقل لتاريخ مصر . وليست له علاقة ما بكتابه الأول .

على أن شهرة ابن إياس فى التاريخ تستند إلى كتابه الأول . وبه صار عمدة المؤرخين فى أحوال دولة المماليك وأخبارها فى الطور الأخير من أطوار حياتها ، كما صار المرجع الرئيسى لحوادث الفتح العثمانى لمصر .

وأما أسلوبه فى الكتابة ونمط التأليف — فكما يقول المستشرق الأوروبى مارجوليوث — « ينم كل منهما عن شخصية واستقلال فى الرأى قلّ أن يشاركه فيهما معظم المؤرخين من قبل . »

والظاهر أن ابن إياس كان ذا موهبة فى النقد . فلم يقنع بسرد الحوادث والوقائع، بل تجاوز هذا كله إلى التعقيب والشرح . وطفق يفلسف الأحداث مع شىء من القسوة فى الحكم . شجعه على ذلك قربه من البلاط ومعرفته بكثير من أخباره ورجاله .

السخاوى:

من تلاميذ أبى المحاسن رجل من أعاظم المؤرخين المصريين هو أبو الخير محمد بن عبد الرحمن بن محمد السخاوى ، نسبته إلى بلده (سخا) مركز كفر الشيخ . ولد سنة ١٤٢٧ ميلادية بحارة بهاء الدين قرب باب الفتوح القديم بالقاهرة . ودرس على ابن حجر الذى اختص به

وأحبه وآثره . وكانت بين ابن حجر ووالد السخاوى هذا صداقة قديمة . وترجم السخاوى لنفسه فى كتابه (الضوء اللامع لأهل القرن التاسع) فى نحو ثلاثين صفحة من صفحات هذا الكتاب .

وتوفى أستاذه ابن حجر سنة ١٤٤٩ م فعزم السخاوى على الرحيل من مصر إلى الشام ليتسلى عن موت أستاذه بالدرس والتحصيل . غير أن أبويه حملاه على العدول عن ذلك فبقى بمصر يواصل دراسته «الحديث» وتنقل فى سبيل ذلك بين مدن دمياط ومنوف والمحلة الكبرى وسمنود والإسكندرية وغيرها . وذهب للحج مع والديه سنة ١٤٥٢ ميلادية وأقام بمكة بضع سنين . ثم عاد إلى مصر وأخذ يتنقل بينها وبين الشام والحجاز . واتصل السخاوى بالأمير يشبك بن مهدى كاشف الوجه القبلى . وكان هذا الأمير من أكبر رجال الدولة المملوكية فى عهد السلطان قايتباى . وعن طريق هذا الأمير حصل السخاوى على إحدى وظائف تدريس الحديث .

مؤلفات السخاوى

ذكر لنا السخاوى مؤلفاته الكبرى والصغرى فى أربع صفحات كاملة من ترجمته لنفسه . ومنها فى التاريخ : كتاب التبر المسبوك فى ذيل السلوك — فى أربعة أجزاء . وهو تكملة لتاريخ المقريزى الذى سبق ذكره . وقال إنه ألف هذا الكتاب إجابة لرغبة الأمير يشبك . أى أن السخاوى كتبه فى عهد السلطان قايتباى .

ثم كتاب وجيز الكلام فى ذيل تاريخ دول الإسلام ، وهو تكملة لكتاب الذهبي المؤرخ .

وكتاب الذيل المتناهى — تكملة لكتاب قضاة مصر لابن حجر .

وكتاب الذيل على طبقات القراء تكملة لكتاب الجزرى

وللسخاوى كذلك :

كتاب الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ .

وهو مقالة طويلة فى قواعد الجرح والتعديل عند المؤرخين .

وكتاب الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ـ وقد سبقت الإشارة إليه

وكتاب الجواهر والدرر فى ترجمة ابن حجر .

وكتاب القول المنبي فى ترجمة ابن عربى .

ولا شك أن أهم هذه الكتب جميعاً كتاب .

الضوء اللامع لأهل القرن التاسع

وهو معجم كبير فى اثنى عشر مجلداً . واحد منها بأكمله خاص بالنساء المسلمات . ولا عيب فى هذا الكتاب الجامع غير أن مؤلفه لم يتخلص من طبيعته التى ولد بها وهى التكبر والتعالى على الكبير والصغير والميل إلى تجريح هؤلاء وهؤلاء كلما أمكن ذلك .

ومن أجل هذا ذكره ابن إياس فى بعض كتبه فقال . « ألف تاريخا فيه كثير من المساوئ فى حق الناس » . وقال عنه زميله السيوطى فى شيء من التندر والسخرية .

« ما ترون فى رجل ألف تاريخاً جمع فيه المساوئ وثلب الأعراض وفوّق فيه سهاماً على قدر أغراضه . والأغراض هى الأعراض . جعل لحم المسلمين جملة طعامه وإدامه . واستغرق فى أكلها أوقات فطره وصيامه . ولم يفرق بين جليل وحقير » إلى آخر ما قال .

واشتدت الخصومة بين السخاوى والسيوطى . وتبادلا غير قليل من السباب والتهم . وبقيا على هذه الحال حتى فرق الموت بينهما . فقد مات السخاوى سنة ١٤٩٧ للميلاد . ومات السيوطى بعده بقليل .

السيوطى :

وهو جلال الدين عبد الرحمن بن محمد السيوطى ولد سنة ١٤٤٥ للميلاد بالقاهرة . وانحدر من أسرة ينتهى أصلها إلى شيخ من أهل الحقيقة والتصوف . جاء هذا الشيخ إلى أسيوط . وعاش بها زمن الدولة الأيوبية . وأنجبت هذه الأسرة رجالا منهم القاضى والتاجر والمحتسب وصاحب المكرمات . أما أبوه عبد الرحمن السيوطى فهو آخر من أقام من أفراد هذه الأسرة بأسيوط . ثم رحل إلى القاهرة حيث تلقى العلم ، واتصل بالأمير شيخو فتولى بسببه درس الفقه بالجامع الشيخونى . وخطب بجامع ابن طولون . وتوفى سنة ١٤٥١ وولده جلال الدين فى سن السادسة . وقد ترجم السيوطى لأبيه فى كتابه حسن المحاضرة .

وحفظ السيوطى القرآن وأتمه وهو فى التاسعة . وحضر مجلس ابن حجر فى الحديث ، وكان موضع رعاية من علماء عصره إكراماً لوالده . ثم نجح فى أن يخلف والده فى الجامع الشيخونى بعد وفاته .

وبرع السيوطى فى فنون العلم على اختلافها عدا الحساب فإنه ثقل عليه لعدم ملاءمته لطبيعته، وإلا المنطق فإنه عزف عنه كذلك. أما التفسير والحديث والفقه والنحو والمعانى والبيان والبديع والأصول والجدل والتصريف والإنشاء والترسل والفرائض والقراءات والطب والتاريخ فقد بلغ فيها الغاية فلم يترك ميداناً من ميادين هذه العلوم دون أن يدرسه ويجرى فيه قلمه. وقال السيوطى عن نفسه إنه برع فى جميع العلوم المتقدمة ولكنه كان فى الستة الأولى منها يفوق أشياخه كلهم. وقال عن نفسه إنه اخترع علم أصول اللغة. وإنه وصل إلى مرتبة «الاجتهاد المطلق» فى علم الحديث والفقه والعربية.

بلغ عبد الرحمن السيوطى هذه المكانة العليا من العلم. ولكنه أفسد ذلك بميله الشديد إلى التفاخر والمباهاة بهذه المكانة. وأحصى الشيوخ الذين حضر عليهم فإذا هم أكثر من ستمائة، وعدّ من البلاد التى رحل إليها فى طلب العلم دمياط والإسكندرية والمحلة الكبرى والفيوم ثم مكة والمدينة.

وتصدى السيوطى لتدريس الفقه بالجامع الشيخونى خلفاً لأبيه كما قلنا، ثم تصدى للإفتاء وإملاء الحديث بجامع ابن طولون، وأضيفت إليه وظيفة تدريس الحديث ووظيفة الإسماع بالخانقاه الشيخونية.

ومضى السيوطى يتولى جميع هذه الوظائف حتى جاوز الأربعين من العمر، ثم تولى بعد ذلك مشيخة الخانقاه البيبرسية، وكانت يومئذ من أكبر خوانق القاهرة وأوسعها أوقافا بالديار المصرية، ومنذ ذلك التاريخ انقطع السيوطى عن التدريس، وتجرد للعبادة، ثم أخذ يتوفر على

التأليف حتى أربت كتبه — فيما يقولون — على الخمسمائة ، وكانت كلها ذات طابع معين ، هو طابع الجمع لا طابع التأليف بالمعنى الصحيح .

ولا غرابة فى ذلك فإن عصر السيوطى — وهو الجزء الأخير من عصر المماليك — كان عصر جمع وتلخيص وتكميل لكتب الأقدمين ، ثم جاء العصر العثمانى بعد ذلك فمضى فى هذه الخطة ، بل تجاوزها إلى الشروح والحواشى والتقارير على النحو الذى شرحناه فى مواضع أخرى من هذا الكتاب ، من كتب السيوطى ما يلى :

كتاب تكملة تفسير القرآن للشيخ جلال الدين المحلى أنهاه فى اربعين يوماً .

وكتاب طبقات الحفاظ — وهو تلخيص وتكملة للذهبى .

وكتاب لب اللباب فى تحرير الأنساب — وهو اختصار لعز الدين ابن الأثير (كتبه السيوطى فيما لا يزيد على عشرة أيام .)

ثم إن السيوطى كان كثيراً ما يخالف مألوف عصره ويغضب منهم وكانت كل غضبة من غضباته تكلفه رسالة طويلة يكتبها فى يوم وليلة ، وكل هذه الرسائل محسوبة فى مؤلفاته البالغ عددها خمسمائة !

على أن السيوطى بطريقته هذه استطاع أن يقرب كثيراً من العلوم إلى أهل عصره ، وأن يقرب كتباً كثيرة أيضاً من أيديهم بعد أن كان يهابها الناس لضخامتها حتى جاء هذا الرجل ولخصها وهذبها ، وانتشرت ملخصاته فى جميع العالم الإسلامى من مراكش إلى الهند واليمن .

ثم تولى السيوطى وظيفة هامة من وظائف الدولة . هى وظيفة قاضى القضاة بمصر والشام وسائر الممالك الإسلامية المجاورة ، وأصبح بيده الولاية والعزل فيهم جميعاً ، وهى وظيفة كبيرة لم يظفر بها قط فى العالم الإسلامى سوى القاضى تاج الدين بن الأعز فى الدولة الأيوبية منذ أن صار لتلك الدولة سيادة على جميع بلاد الشرق الأدنى .

ثم عزل السيوطى من مشيخة الخانقاة البيبرسية بسبب أنه قطع أرزاق الصوفية بهــذه الخانقــاه بحجــة أنهم خانوا طريقتهم ونسوا صوفيتهم ، فثاروا عليه ، وكادوا يقتلونه ، وانتهى الأمر بعزله كما رأينا واعتكف السيوطى فى بيت له بجزيرة الروضة ، وكتب فى ذلك رسالة عنوانها (تأخير الظلامة إلى يوم القيامة) .

وعرض عليه السلطان قانصوه الغورى منصب المشيخة بمدرسته فأبى وآثر العزلة ، وما زال السيوطى فى عزلته حتى مات سنة ١٥٠٥ للميــلاد .

يسير علينا بعد كل ذلك أن ندرك الفرق بين رجل كابن إياس ومن على شاكلته من المؤرخين الخلّص ، ورجل كالسيوطى . فالأول ـ وهو ابن إياس ـ اكتفى بالتاريخ واتخذه فناً مفضلا عنده وقف عليه جهده وقلبه .

أما الثانى — وهو السيوطى — فقد جال فى كل ميدان وهام فى كل واد وسبح فى كل لجة ووزع موهبته على علوم وفنون شتى .

مؤرخو العصر العثمانى

أصاب التاريخ فى هذا العصر ما أصاب سائر الآداب والعلوم من الضعف ، ومع هذا وذلك فقد ظهر فى ذلك العصر عدد من المؤرخين كتبوا فى فن التراجم والسير ، وكتبوا كذلك فى تاريخ بعض البلاد والدول ، وإن كانت كتابة هؤلاء وهؤلاء لم ترق إلى كتابة من سبقوهم من مؤرخى العصور التى تقدمت ، لا نستثنى من هذه القاعدة غير واحد فقط هو الجبرتى .

ومن مؤرخى السير فى العصر العثمانى على سبيل المثال :

شمس الدين الشامى :

أبو عبد الله محمد بن يوسف الشامى ، رحل من الشام إلى مصر وأقام بها إلى أن توفى سنة ٩٤٢ هـ وهو معدود من المحدثين ، وله مع ذلك كتب فى التاريخ منها :

١ — (كتاب السيرة النبوية) قال إنه جمعها من أكثر من ثلثمائة كتاب وتحرى فيها الصواب ، فجاءت فى نحو سبعمائة باب .

٢ — (عقود الجمان فى مناقب ابن حنيفة النعمان) دافع فيه عن أبى حنيفة ورد به على كتاب ظهر فى تلك الأثناء طعنا على هذا الإمام .

ابن طولون الصالحى :

محمد بن على بن محمد بن طولون ولد بالشام وتربى فى مصر ، وأقام

بها ، وألف بضعة وعشرين كتابا منها :

١ — الغرف العلية فى تراجم متأخرى الحنفية

٢ التمتع بالأقران بين تراجم الشيوخ والأقران .

٣ ذخائر العصر فى تراجم نبلاء مصر .

٤ إنباء الأمراء بأنباء الوزراء

٥ اللؤلؤ المنظوم فى الوقوف على ما اشتغلت به من العلوم ،

* * *

وأخيراً نأتى إلى إمام المؤرخين فى العصر العثمانى غير مدافع ونعنى به:

الجبرتى :

أجل ـ إذا ذكرنا المؤرخين فى ذلك العصر العثمانى فلا ينبغى لنا أن ننسى الشيخ عبد الرحمن الجبرتى ، فقد عاش جزءاً كبيراً من حياته فى العصر العثمانى ، وعاش الجزء الباقى من حياته فى سنوات الحملة الفرنسية ، وبعض سنوات حكم محمد على ، ولذا كان خير من أرخ لهذين العهدين وللعصر العثمانى معاً ، وذلك فى كتابه المشهور

عجائب الآثار فى التراجم والأخبار

وهو كتاب فى أربعة مجلدات أرخ فيه لمائة وثلاثين سنة (أى من سنة ١١٠٦ للهجرة إلى سنة ١٢٣٦). ومعنى ذلك أنه أرخ لسبع ومائة سنة من سنوات العصر العثمانى ، ثم أرخ لسنوات الحملة الفرنسية الثلاث ، ثم أرخ لعشرين سنة من تاريخ مصر بعد ذلك ، ومات فى سنة ١٢٤١ هـ

ولتأليف هذا الكتاب قصة يرويها المؤرخون . فالقارى لكتاب (عجائب الآثار) يفهم من ثناياه أن تفكير الجبرتى فى كتابة هذا التاريخ جاء أصلا من الشيخ خليل المرادى الحسيني مفتى دمشق المتوفى سنة ١٢٠٦ هـ ، فقد كان المرادى مشغولا بترجمة أعلام المائة الثانية عشرة ، وذلك فى كتابه (سلك الدر فى أعيان القرن الثانى عشر) فى أربعة أجزاء .

ولما كانت هذه الدراسة تتطلب مجهودا عنيفا تحتم عليه الاستعانة بغيره من علماء عصره ، فقد أرسل المرادى هذا فى سنة . ١٢٠ للهجرة إلى الشيخ أبى الفيض محمد مرتضى الزبيدى الذى سبق ذكره فى الفصل الثانى من فصول كتابنا هذا ـ وكان من أشهر علماء الوقت ـ يرجوه أن يساعده فى هذا العمل العلمى الضخم . فاشتغل الزبيدى بذلك ، ثم رأى أن يستعين هو الآخر بتلميذه الجبرتى ، فدعاه فى عام ١٢٠٣ إلى الهجرة للاشتراك معه فى ذلك .

وبقيت الفكرة تختمر سنوات كثيرة فى فكر الجبرتى حتى توفى أستاذه الزبيدى واستطاع الحصول على ما ترك من أوراق وكراسات جمع فيه جزءاً من هذا التاريخ ثم جاءت الحملة الفرنسية فرأينا الجبرتى يكتب كتاباً آخر عرف باسم (مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس) . وأخيراً ربط الجبرتى بين مذكراته القديمة فى تراجم المئة الثانية عشرة وهذا الكتاب الأخير فى تاريخ الحملة وتألف له من ذلك الربط كتابه المعروف (بعجائب الآثار فى التراجم والأخبار) .

ولكن متى كان الدافع النفسى القوى الذى دعا الجبرتى إلى تأليف كتابه هذا ؟

لقد بدأ الجبرتى كتابة تاريخه عام ١٢٢٠ للهجرة ، ومعنى ذلك فى جلاء تام أن هذا الدافع النفسى الذى نريد أن نتبينه إنما هو شعور الجبرتى بخيبة أمله فى الحكم العثمانى عند ماوازن بينه وبين الحكم الفرنسى . وقد ساء هذا الحكم العثمانى إلى درجة كبيرة بعد عودة الأتراك العثمانيين إلى مصر ونجاحهم فى طرد الفرنسيين منها ، فإذ ذاك أصبح الجبرتى ـ كما يقول بعض المؤرخين المحدثين ـ أكثر موضوعية وأقل عاطفية مما كان عليه من قبل حين كان يشتغل بتأليف كتابه مظهر التقديس الذى تقدم ذكره .

استهل الجبرتى كتابه بسنة ١١٠٦ وأجمل الأحداث إجمالا إلى سنة ١١٢١ ، وشرع بعد ذلك يتابع السنين واحدة فواحدة ، يبسط أحداثها ، ويترجم لمن مات فيها ، وتوخى الإسهاب فى ذكر بعض العلماء ـ وخاصة الزبيدى ـ كما أسهب فى ترجمة كثير من الشعراء ومنهم البدرى الحجازى وابن الصلاحى ، وكان كثير الاستشهاد بشعر الأقدمين والمحدثين على السواء ، ولأنه عالم فلكى فقد ذكر الأحداث الفلكية ، ولأنه عالم حسابى فقد جعل يطيل الجدل فى النقود وسكها وما فيها من ذهب وفضة .

ولما وصل إلى عهد الحملة الفرنسية اكتفى بإثبات كتابه (مظهر التقديس) برمته بعد أن حذف منه مقدمته والفصول التى كتبها صديقه الشيخ حسن العطار .

والحق أن الشيخ الجبرتى قد امتاز عمن سبقه من المؤرخين بأمور

منها : عنايته بكل صغير وكبير مع الدقة البالغة والأمانة العلمية الكاملة قدر ماوسعه المجهود . ومنها ـ أنه كان برغم هذا كله يتأثر بنظرته الشخصية إلى الأحداث والأشخاص ، فإذا أحب شخصاً أسهب فى مدحه ، وإذا أبغض شخصاً لم يكف عن ذمه ، وهو من هذه الناحية لم يستطع قط أن يرتفع عن مستوى عصره ، ومن ثم لم يذكر شيئاً عن الصلات التى كانت بين مصر وبقية الدول الأخرى فيما عدا تركيا .

أما أسلوبه فى الكتابة فلم يكن جاريا على نمط واحد ، فهو مرة بليغ غير مسجوع وأخرى مسجوع ، وفى ثالثة يبدو قريباً من العامية ، وهذا يدل على أن تأليفه لم يكن فى فترة واحدة من فترات حياته بل كان فى فترات متباعدة من حياته .

كتب الجبرتى عن عهود ثلاثة هى : أواخر الحكم العثمانى ، والحملة الفرنسية ، وأوائل حكم محمد على . ولم يكن الجبرتى راضياً عن هذه العهود الثلاثة ، لأن عهد المماليك كان حافلا بالدسائس والدم . وكان لا يأمن فيه أحد على حياته مهما أوتى من الحذر والحرص . وأما الحملة الفرنسية فحسبها أنها هزمت المسلمين ، ومن ثم وقف منها موقف الريبة والكره الشديد ، وإن لم يمنعه ذلك من الإعجاب ببعض الأعمال الإنشائية الكبيرة التى قاموا بها فى مصر . وأما عهد محمد على فإنه لم يشهد منه إلا « دور التحضير » وهو الدور الذى كان فيه محمد على المحتكر الأول لكل شىء ، ثم هو العهد الذى كان فيه هذا الوالى مضطراً إلى اصطناع العسف والشدة والاستبداد بكل شىء . ولو امتد الأجل بالجبرتى أكثر من ذلك لكان من المحتمل أن يغير رأيه وأن يدخل فيما دخل فيه أمثاله من

شيوخ الأزهر كالشيخ حسن العطار وغيره من مسايرة النهضة التي بدأها محمد علي .

ولكن حسب الجبرتي أنه ترجم لهذا العدد الضخم من علماء مصر في ذاك الوقت ، ترجم في الجزء الأول من كتابه لمائة وستة وسبعين عالماً ، وفي الجزء الثاني لمائة وثلاثة وثلاثين عالماً ، أما الجزءان الثالث والرابع فقد شغل فيهما الجبرتي بالأحداث الجسام .

ولا بأس من أن نورد هنا موجزاً بسيطاً لترجمة الجبرتي لوالده.

الشيخ حسن الجبرتي والد المؤلف :

ذكره المؤلف في وفيات سنة ١١٤٢ هـ وقال إنه حسن بن برهان الدين ابن محمد بن زين الدين بن عبد الرحمن الجبرتي ، نسبة إلى بلاد الجبرت بفتح الباء بأرض الحبشة ، وأسرته من الأقلية المسلمة هناك ، ولا تعرف من المذاهب غير مذهب الإمام أبي حنيفة ومذهب الإمام الشافعي ، وينتهي نسبها إلى أسلم بن عقيل بن أبي طالب ، وكان أميرهم على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم النجاشي الذي آمن بالنبي وإن لم يره ، وصلى عليه النبي صلاة الغيبة ، وقال فيهم إنهم قوم يغلب عليهم الصلاح والتقشف ، وإذ اقصدوا إلى الحج أتوا مشاة من بلادهم إلى بيت الله الحرام ، ولهم رواق بالمدينة ، ورواق بمكة ، ورواق بالأزهر ، وللمقريزي مؤلف في تاريخ أخبار بلادهم وتفصيل أحوالهم ونسبهم ، ومنهم القطب الكبير الشيخ إسماعيل الجبرتي تلميذ ابن عربي ويسمى قطب اليمن ، ومنهم الشيخ عبد الله الجبرتي الذي ترجم له

السيوطى والذى كان يعتقد فيه الملك الظاهر برقوق حتى أوصى عند موته بأن يدفن تحت قدمه الخ ؛ وما زال المؤلف يرقى بقومه وآله من الأجباش حتى ذكر منهم بلال بن رباح مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم وخازنه على بيت المال ، وذكر كثيرين غيره على سبيل التباهى .

ثم قال المؤلف عن الشيخ عبد الرحمن الجبرتى إنه الجد السابع من أجداده ، وإنه هو أول من ارتحل إلى مصر ماراً بمكة وجدة والمدينة وإنه دخل الجامع الأزهر وحضر التعلم على شيوخه ، وتولى بعد ذلك مشيخة رواق الأحباش ، وخلفه أولاده وأحفاده على قدم أسلافهم من الصلاح والعلم والتقوى حتى كان عهد هذه الأسرة بالشيخ حسن والد المؤلف . فذكر أن ولادته كانت فى سنة ١١١٠ هجرية ، وأن أباه توفى وهو رضيع فكفلته أمه . وأتم حفظ القرآن فى عشر سنوات ، وتخرج على كبار العلماء فى عصره ، وربط المؤلف بين هؤلاء العلماء وبين أبى حنيفة النعمان برباط مسلسل ثم قال : ومع اشتغاله بالعلم كان يعانى التجارة والبيع والشراء اوالمشاركة والمقايضة ونحو ذلك .

أما المؤلف نفسه وهو الشيخ عبد الرحمن الجبرتى صاحب كتاب (عجائب الآثار) .

فقد نشأ فى بيئة علمية عالية ، وعلى رأس هذه البيئة والده الذى كان من كبار العلماء فى زمانه ، وتخرج الفتى على أبيه وأصدقاء أبيه من الشيوخ كالشيخ عبد ربه ، والشيخ موسى الجناجى وغيرهما . وكان من عادة والده أن يقص على ولده كل يوم شيئاً من تاريخ آبائه وأجداده فى الحبشة ومصر . فأثر ذلك فى نفس الفتى وطبعه منذ الصغر

على حب التاريخ ، وبقى الفتى على هـــذه الحال حتى سلمه أبوه الشيخ عبد الرحمن العريشى شيخ الرواق الشامى بالجامع الأزهر فلقنه المذهب الحنفى .

وترك الشيخ حسن الجبرتى لابنه ثروة طائلة وخزائن حافلة ، وترك له ما هو أثمن من كل ذلك ، محبته لكثير من العلماء والفضلاء وصداقته لهم . ثم ما كانت تنتهى السنة التى مات فيها والده حتى قام برحلة طويلة إلى الوجه البحرى ماراً بكفر الزيات وطنطا وإبيار وفوه وإدكو ورشيد ودمياط والمنصورة وأبى قير والإسكندرية . ثم عاد الجبرتى إلى القاهرة واستأنف اختلافه إلى الأزهر وحضوره حلقات الدرس فيه والاختلاط بالجناحى والصبان والكردى والطائى والصعيدى وأحمد الطهطاوى وعبد ربه وغيره من العلماء الذين أجازوه فى علوم شتى ، منها الفقه واللغة ، فأضاف هذا كله إلى ما سبق أن حصله باجتهاده من علوم الحساب والفلك والهندسة .

وبعد قليل غدا الجبرتى قائماً بالتدريس فى الجامع الأزهر ، وكان يجتهد فى أن يحتذى طريقة أستاذه السيد المرتضى الزبيدى فى تدريسه ، وكانت طريقة هـذا الأخير تبدأ بالشعر الذى يعجب السامعين ويحببهم فى الاستماع إلى الدروس . وكان صيت هذا العالم قد ملأ مصر وتجاوزها إلى غيرها من أقطار العالم الإسلامى . وترك هذا فى نفس الزبيدى غروراً كثيراً وزهواً عظيماً حتى كتب لأحد الأمراء مدعياً أنه المهدى المنتظر ، وبقى الحب بين التلميذ وأستاذه على أشده حتى مات الأستاذ الزبيدى سنة ١٢٠٥ للهجرة ، واستمر

الجبرتى فى دروسه وتأليفه حتى أضر الإجهاد بصحته وتركه عصبى المزاج سريع الغضب إلى درجة كبيرة !

وأتت الحملة الفرنسية إلى مصر فتغيب الجبرتى أياماً عن القاهرة ثم عاد إليها فعرف أن عشرة من إخوانه العلماء عينهم بونابرت أعضاء فى الديوان الذى أنشأه للنظر فى مصالح الرعية . وقبل خروج الفرنسيين بقليل وجدنا الجبرتى يشترك فى هذا الديوان الكبير ويصبح له رأى فى القضايا الكبرى كما يقول ، وقد ساعده ذلك على الاطلاع على المكاتبات والمراسلات ومحاضر الجلسات وفأعانه كل ذلك بطبيعة الحال على المضى فى تأليف كتابه عجائب الآثار .

* * *

(وبعد) فهذه حركة التاريخ ، وتلك جهود المؤرخين فى كتابة هذا التاريخ ، وهى جهود ترينا بوضوح كيف أن مصر وجدت من الذين عنوا بكتابة تاريخها من جميع نواحيه أكثر مما وجد غيرها من المراكز الإسلامية من هذه العناية التاريخية ، فدل هذا دلالة لا تقبل الشك على أن مصر كان لها من السلطان على قلوب أهليها فى تلك العصور أضعاف ما للأقاليم الإسلامية الأخرى من هذا السلطان على قلوب أهليها والمنتمين إليها .

ولا غرابة فى ذلك فمصر خليقة بكل هذا المجهود الذى بذل فى كتابة تاريخها ، والمصريون من أهدى الشعوب إلى مثل هذه الجهود التى أثبتوا بها حبهم لبلادهم وإيثارهم لوطنهم على بقية الأوطان الأخرى .

الفصل الرابع

الأدب الشعبي في مصر

اختلف الباحثون فى مدلول كلمة « الأدب الشعبي » ولكنهم متفقون على أنه الكلام الذى يعبر به الشعب — أفراداً وجماعات — عن مشاعرهم وأحاسيسهم . أو أنه نتاج الملايين من هؤلاء الأفراد والجماعات جيلا بعد جيل . ومعنى ذلك أن الأدب الشعبي لا يمكن أن يكون ثمرة فرد بعينه فى زمن بعينه مهما أوتى هـــذا الفرد من البراعة الفنية ما يجعله قادراً على تصور الحالات النفسية التى مرت بالشعب فى الوطن الذى ينتسب إليه . ومعنى ذلك أيضاً أن الفنان الشعبي يتداخل فنه فى فن المجموع ويصبح جزءاً منه . ولكن فنه مع هذا يظل محبباً إلى النفوس ، سريع الذيوع بين الجماعات .

وقد عرفت مصر فى عصر المماليك — أو قبله بقليل — ألواناً من الأدب الشعبي وصلت إلينا ، وأعجب بها الأوربيون إعجاباً عظيما حين اطلعوا عليها . ومن هذه الألوان التى بين أيدينا الآن :

١ — قصص ألف ليلة وليلة ٢ — سيرة بنى هلال ٣ — سيرة الظاهر بيبرس وسنعرض بإيجاز لكل واحد من هذه الألوان الثلاثة .

ألف ليلة وليلة

وهو مجموعة من القصص يختلف عددها كما يختلف ترتيبها باختلاف

النسخ التي لهذا الكتاب . وكلها تدور في إطار واحد . والظاهر أنها ليست لمؤلف واحد .

وقيل في أصل هذا الكتاب إنه ترجمة لكتاب هندي فارسي قديم بعنوان (هزار إفسانه) ومعناه ألف خرافة . ثم ترجم إلى العربية في القرن الثامن الميلادي . ثم أضيفت إليه مجموعتان : إحداهما بغدادية في القرنين العاشر والحادي عشر الميلادي . والأخرى مصرية في أوائل دولة المماليك ـ أو بعد زمن صلاح الدين بقليل . ثم ما زالت السنون تضيف إليه ما تضيف حتى إذا كان القرنان الرابع عشر والخامس عشر للميلاد اتخذ هذا الكتاب صورته الأخيرة ـ وهي الصورة التي وصلت إلى أيدينا بعد ذلك بسنوات قليلة[1] .

معنى ذلك أن قصص ألف ليلة وليلة مرت بأطوار ثلاثة :

أولها ــ الطور الذي وجدت في أثنائه على ألسنة العامة ، ووعتها ذاكراتهم ، وتناقلتها أفواههم . وأصبحت بعد ذلك نوعا من (الفلكلور) الشعبي بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة .

وثانيها ــ الطور الذي تهيأت فيه هذه القصص على أيدي الكتاب والأدباء لأن تصبح قصصاً مكتوبة في كتاب يقرؤه بعض الناس ويستمع إليه بعضهم الآخر .

وثالثها ــ الطور الذي شهد قصص ألف ليلة وليلة محددة في مجاميع . منها المجموعة البغدادية ، ومنها المجموعة المصرية .

---

(١) قيل إن النسخة التي بأيدينا يرجع تاريخها إلى سنة ٩٤٣ للهجرة .

ومعنى ذلك إذن أن الوطن الذى ينسب إليه مؤلف الليالى موضع خلاف بين الباحثين إلى الآن . فبعضهم يقول إن الصورة الأخيرة لهذا الكتاب تدل على أنه كتب فى مصر . وبعضهم يقول إنها تدل كذلك على أنه كتب فى بغداد . وإن كانت الكثرة تميل إلى الرأى القائل بأن هذا المؤلف المجهول مصرى البيئة . بل تقول إن هذا المؤلف شخصيتان وليس شخصاً واحداً فى الحقيقة . أحد هذين الشخصين وصف الحياة الاجتماعية فى مصر الإسلامية . والثانى يهودى أسلم وأدخل فى (الليالى) كثيراً من العناصر الإسرائيلية .

مهما يكن من شىء فكتاب ألف ليلة وليلة لا ينسب إلى بيئة واحدة ، أو وطن واحد ، أو كاتب بعينه ، أو قاص بذاته . وإن كنا لا ننكر أن الطابع المصرى عليه أغلب ، وأن الحياة المصرية فيه أظهر وأبين .

على أننا بعد هذا وذاك إن استطعنا أن ندل على أصل هذا الكتاب فإننا لا نستطيع أن نحدد تاريخ هذا الأصل إلى الآن .

والمهم بعد ذلك أن نتعرف على الطابعين العراقى والمصرى فى كتاب ألف ليلة وليلة فنقول :

(أما بغداد) فأثرها فى الكتاب يتضح من أخبار الخلفاء ، وبلاط الخلفاء ، وقصور الخلفاء . ونخص بالذكر منهم هارون الرشيد . فقد وصفت (الليالى) بطريقتها القصصية اللطيفة أسلوب هذا الخليفة فى الحكم وحبه للرعية وحب الرعية له . ووصفت سيره

فى ظلام الليل متنكراً ليتفقد أحوال الرعية ثم يخبرهم بها فى صباح اليوم التالى . وباختصار شديد كان اسم الرشيد فى هذه القصص رمزاً للعصر الذهبى للأمة الإسلامية . وكان من السهل أن تحكى عنه الأعاجيب ، وتدور حوله الأساطير . وهو مافعلته بالضبط قصص ألف ليلة وليلة . ثم لم تكتف الليالى بكل ذلك حتى أخذت تصف الرشيد بأنه إنسان متعدد الجوانب . فهو متدين كأقصى ما يكون المتدينون ، وهو محب لمباهج الحياة الدنيا كأشد ما يكون عليه المحبون للحياة الدنيا . (والليالى) فى كل ذلك تتفق مع ما نقرؤه فى كتب الأدب العربى من أخبار قصار عن الرشيد فى هذه النواحى .

وأما (البصرة) فقد كان لها هى الأخرى ظل فى كتاب ألف ليلة وليلة . وظهر هذا الظل فى بطش حكام البصرة بالرعية . وربما كان لهذا صلة ما بتاريخ هذه المدينة من مدن العراق . وإلا لما استطاع القاص أن يأتى بهذه الصورة التى اشتمل عليها الكتاب .

وندع الطابع البصرى والطابع البغدادى جانباً وننظر فى الطابع المصرى كما يتضح لنا فى كتاب ألف ليلة وليلة .

والحق لقد نضحت البيئة المصرية على (الليالى) بكل ما فيها . وكان أعظم ما تمتاز به تلك البيئة المصرية ملامح وأشياء :

فمن ملامح البيئة المصرية يومئذ السحر والطلاسم والرقى والتمائم ونحو ذلك . ومن ملامح هذه البيئة المصرية كذلك التاجر المصرى بصورته المعروفة حتى إنك لتنظر فى أيامنا هذه إلى هذا (التاجر المصرى)

فى جهة (الغورية) فلا تكاد ترى فرقاً بينه وبين ذلك التاجر المصرى الذى يتحدث عنه كتاب ألف ليلة وليلة .

ومن ملامح تلك البيئة المصرية (الحمام) وهو ملتقى الخاصة والعامة فى العصور الوسطى ، ومكان التدابير الخفية ، والمؤامرات الغرامية التى تدبرها عجائز المدينة حينا وخدم السلطان حينا آخر .

ثم من ملامح تلك البيئة المصرية كذلك (سوق الرقيق) وهو مصدر حيوية دافقة فى قصص ألف ليلة وليلة . فى هذه السوق التقت طبقات الحكام ، وطبقات الصناع ، وطبقات التجار . ولكل طبقة تقاليدها وأخلاقها ، وعاداتها ، وأحكامها ، وقصصها ، وخيالها .

وصورت لنا (الليالى) كيف كان الفرق عظيما بين أخلاق الصناع وأخلاق التجار . فطبقة الصناع تكره الغريب ، وتنظر إليه على أنه جاء ينافسهم فى صناعتهم ، ويستأثر بها دونهم . على حين أن طبقة التجار على عكس ذلك - كانت تنظر إلى التاجر الغريب على أنه مصدر جديد من مصادر الثروة وانتعاش للحركة التجارية فى المدينة . ومن هنا كانت تكرم الضيف وترحب به وتغلب على طباعها الرقة او الملاينة وحسن المعاملة

على أن خير ما صورته لنا (الليالى) فى الحقيقة جانب غريب من جوانب الحياة المصرية فى تلك العصور ونعنى به حياة (الشطار) . ويظهر لنا ذلك فى قصة علاء الدين أبى الشامات . وهى القصة التى تصف لنا مهارة الشطار فى الخطف والضحك من الناس . كما تصف لنا فى الوقت

نفسه مروءتهم وشهامتهم ؛ لأنهم سرعان ما يردون إلى الناس ماخطفوه منهم مكتفين بالضحك والتسلية . وفى قصة علاء الدين أبى الشامات ، وقصة دليله المحتالة ، وقصة زينب النصابة ، وقصة الزيبق المصرى ما يدل على هذا الجانب الفكه من جوانب الحياة المصرية .

من أجل ذلك لم يزن الشعب المصرى أعمال (الشطار) بميزان الأخلاق ، ولا نظر إليهم الولاة والحكام على أنهم خطر على النظام أو الأمن العام ، وإنما نظر الجميع إلى هذه الأعمال التى تصدر عن الشطار على أنها من قبيل الألعاب البهلوانية ، والحركات التى يقصد بها إلى مجرد الضحك البرىء . فهم — أى الشطار — لا يؤذون أحداً ، ولا يسفكون دما كما يفعل الطارئون على مصر من الأعراب الذين همهم القتل والسلب والإضرار بمن تصل إليه أيديهم من العباد .

ومن ثم كان الفرق عظيما فى (الليالى) بين صورة رجل (كأحمد الدنف) وعصابته من الشطار وصورة الأعرابى الذى أتى للنهب والسلب والإيذاء : الصورة الأولى تنتزع إعجاب العامة والخاصة ، والصورة الثانية لا تحظى منهم بغير السخط والسخرية .

الحق لقد أفلحت قصص ألف ليلة وليلة فى أن تمدنا بصورة دقيقة من الحياة المصرية الإسلامية فى العصر الوسيط بكل ما فى هذه الحياة نفسها من جد ولهو ، وعادات وأخلاق ، وطباع وخرافات . فوصفت لنا الأعياد والمواسم وفرح الشعب بالسلطان الجديد والمولود الجديد وكيف كان يقترن هذا كله بالعفو عن المسجونين ، ورفع المكوس عن

كواهل المصريين . كما وصفت لنا الليالى كيف كان المصريون يخافون الحسد ، ويأخذون أنفسهم بالتفاؤل والتشاؤم ونحو ذلك .

وأخيراً وجدنا قصص ألف ليلة وليلة يصف لنا عسف الحكام وظلم الولاة بطريقة تتفق ومزاج المصريين ، بل تتفق وشخصيتهم التى تكونت لهم منذ أقدم العصور .

فإذا كان عسف الحاكمين قد اتخذ فى القصص البصرى فى ألف ليلة وليلة صورة البطش من جانب الحاكم والسخط وحب الانتقام من جانب المحكوم فإنه قد اتخذ فى القصص المصرى صورة السخرية والفكاهة من الحاكم الذى صدر عنه هذا البطش . وذلك بالضبط كما نرى هذه الطريقة فى كتاب من كتب المصريين فى العصر الأيوبى . هــو الكتاب الذى ألفه ابن مماتى بعنوان (الفاشوش فى حكم قراقوش) . فانظر كيف أن هـذه الطريقـة لم تخطىء المصريين فى كل عصر من عصورهم وحالة من حالاتهم ؟

بقى أن نشير إشارة موجزة إلى .

طريقة تأليف الكتاب

ويقال فى هذا إن طريقة تأليفه هندية خالصة . أى أنها طريقة تجعل الحكايات سلسلة متماسكة الحلقات متعاقبة النسق والخطوات وذلك بأن ترتبط جميع الحكايات فى الكتاب بحكاية أصليـة تأتى فى أوله . على نحو ما نرى فى مثل كتاب « كليلة ودمنة » . أو بأن نروى القصص والحكايات موزعة على عدة أبواب فى الكتاب بحيث تكون الأقصوصة

أو الحكاية فى أى باب من هذه الأبواب مقدمة للحكاية أو الأقصوصة فى الباب التالى له مباشرة . وذلك على نحو مانرى فى كتاب (فاكهة الخلفا ومفاكهة الظرفا) لأحمد بن عربشاه الدمشقى .

والحكاية فى ألف ليلة وليلة تجرى على جميع هذه الطرق : تجرى على الطريقة الهندية فى الأقاصيص المتداخلة بعضها فى بعض كحكايات البنات الثلاث ، والصعاليك الثلاثة ، وحكاية الخياط والأجرب والطبيب ، وحكاية ورد خان ونحوها .

كما تجرى الليالى على الطريقة الفارسية فى الحكايات المفردة . فحكايات العشاق وما يجرى مجراها مبنية على نمط فارسى فى اعتمادها على الحب الوهمى الذى يصيب ظرفاء الشباب عقب طيف للحبيب يزورهم فى الكرى .

ثم تجرى الليالى كذلك على طريقة عربية فى الأقاصيص الصغيرة المقتبسة من كتب الأدب كحكاية حاتم الطائى ، وحكاية إبراهيم المهدى وحكاية خالد بن عبد الله القسرى .

وأما أسلوب الليالى فأدنى إلى العامية وإلى كثرة الحشو وكثرة التضمين ، وإلى التصريح دون التلميح . وذلك كله فضلا عن جريه مجرى السجع على طريقة ابن العميد والقاضى الفاضل . ويتظرف أحياناً بذكر مصطلحات العلوم النقلية ومنها النحو على سبيل التشبيه والتورية . كقوله فى قصة قمر الزمان « وبتنا على ضم وعناق ، وأعمال حرف الجر باتفاق ، واتصال الصلة بالموصول وزوجها كتنوين الإضافة معزول » الخ

ومع هذا وذاك فإن خير ما يمتاز به أسلوب الليالى هو الوضوح والجرأة والصدق والصراحة وشدة الأسر .

والكتاب لهذه الصفات الأخيرة قد جذب إليه كثيراً من أدباء الغرب ففتنوا به ، ونقلوه منذ أوائل القرن الثامن عشر الميلادى إلى كل لغة . وقال عنه فولتير « إنه لم يزاول فن القصص إلا بعد أن قرأ ألف ليلة وليلة أربع عشرة مرة » . وأما القصصى الفرنسى إستندال فكان « يتمنى أن يمحو الله من ذاكرته ألف ليلة وليلة حتى يعيد قراءته ليستعيد ذاكرته»

سيرة بنى هـــلال

من الآداب الشعبية التى عرفتها الديار المصرية — فيما خلا ألف ليلة وليلة — أدب السير ؛ مثل سيرة عنترة ، وسيف بن ذى يزن ، والزير سالم ، وسيرة بنى هلال ، وسيرة الظاهر بيبرس . وغيرها .

وقد تسلمت مصر هذه السير جميعها بعد العصر الفاطمى . أو بعبارة أخرى بعد أن أصبح السلطان الفعلى فى يد غير العرب . أفلا يدل ذلك إذن على أن مصر بعد إذ تمّ إسلامها وتم استعرابها أرادت أن تقف أمام الدول غير العربية موقف المؤمن بشخصيته ، الشاعر بذاتيته ، الحريص على التعبير عن كل ذلك ؟

بلى — وجدت مصر فى جميع هذه السير التى أشرنا إليها انتصاراً للعروبة ، واستمساكا بها ، وإخلاصاً لها وللإسلام . أى أن مصر بعد أن استقرت من الناحية السياسية — وكان ذلك بعد مضى قرن أو قرنين من الزمان على الفتح — أصبحت لا تعنى بالعصبية القبلية ، ولا بالتفرقة بين عدنان وقحطان ، أو بين القيسية واليمنية ، وإنما قصرت عنايتها على العروبة من حيث هى . وكما أن مصر كانت تقبل

كل فاتح أجنبي عنها مادامت تعرف أنه مسلم ، فكذلك حاولت مصر فى القصص الشعبي أن تخلع على أبطالها وشجعانها صفة العروبة . فعلت ذلك بالظاهر بيبرس ، فأخرجته من الجنسية الجركسية التى ينتمى إليها وخلعت عليه صفة العروبة التى أرادتها له . وكذلك فعلت مصر فى معظم القصص الشعبي الذى وصل إلينا .

على أننا لا نستطيع هنا أن نتحدث عن جميع السير الشعبية التى مرت بالديار المصرية . بل نحن مضطرون إلى الاكتفاء منها بسيرتين فقط هما . ١ — سيرة بنى هلال

٢ — وسيرة الظاهر بيبرس

فأما (سيرة بنى هلال) فكما يتبين من اسمها ليست سيرة فرد بل جماعة . ومعظم أحداث هذه السيرة وقعت فى غرب العالم الإسلامى لا فى شرقه فى الحقيقة . أى أن مسرح هذه الحوادث هو شمال إفريقيا، والتاريخ يحدثنا عن هذه البلاد أنها اضطربت عقب وفاة الفاتح العربى الأول (عقبة بن نافع) . فقد ارتدت قبائل البربر هناك عن الإسلام ، حتى إن الوليد بن عبد الملك اضطر إلى فتحها من جديد على يد (موسى بن نصير) . ومنذ يومئذ والعروبة والإسلام فى كفاح دائم مع سكان تلك الجهات ، ولا شك أن سيرة بنى هلال صورة من صور هذا الكفاح . وهى صورة رسمت بطريقة شعبية لا تاريخية . ومع هذا وذلك فإنها تعتبر وثيقة تاريخية لا تقل فى أهميتها مطلقاً عن الروايات المدونة فى أمهات الكتب . ثم هى فى الوقت نفسه — كأغنية رولان

فى الأدب الأوربى — تعبير صحيح لشعب كامل عن مشاعره الجماعية لا الفردية .

مراحل السيرة الهلالية :

وتؤرخ سيرة بنى هلال بطريقتها الشعبية لأجيال ثلاثة من أبناء الهلالية

فالجيل الأول

هو الجيل الذى نشأ فى نجد منذ الجاهلية . وجاء الإسلام فاتصل جدهم الأعلى (هلال بن عامر) برسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورضى عنه الرسول ، وأسكنه وادياً يقال له وادى العباس .

وولد لجدهم الأعلى ولد سماه « المنذر » . وتزوج المنذر هذا بامرأة يقال لها « هدباء » لم تنجب منه ولداً . فحزن المنذر لذلك حزناً عظيما وسافر إلى بلاد السرو وغيادة . وهناك تزوج بأخرى يقال لها (عذباء) وهى ابنة ملك السرو . ثم شاء القدر أن تنجب الزوجتان فى ليلة واحدة فرزقت هدباء (بجابر) . كما رزقت عذباء (بجبير) .

واستقر أولاد هدباء فى نجد . كما استقر أولاد عذباء فى السرو .

وكبر جابر وبلغ سن الزواج ، وأعقب أولاداً كثيرين منهم غلام اسمه «رزق» . وحدث أن تزوج «رزق» هذا بعشر نساء لم ينجب منهن إلا ولداً مشوه الخلقة . فحزن لذلك . وصمم على الزواج من الحادية عشرة ، واسمها «خضراء» . وهى ابنة شريف مكة . فولدت له فتاة تسمى « شيحا » وفتى أسود اللون يسمى « بركات » — والسبب فى سواد لونه أن خضراء

خرجت مع بعض النساء . فرأت طائراً أسود ينقض على جموع الطير كلها فيغلبها ، ويقتل جانباً عظيما منها . فأعجبت به ، ورفعت يدها إلى السماء ، ودعت الله أن يرزقها غلاماً على شاكلته . فاستجاب الله لها . وغضب زوجها الأمير رزق ، وأنكر الغلام . وأشار عليه أصحابه فى حفل (السبوع) أن يطلق (خضراء) ففعل ذلك على كره منه .

وخافت الأم أن ترجع إلى أبيها بهذه التهمة . ومشت فى الصحراء حتى لقيها الأمير فضل الله بن بيسم فعرفها ، واحترمها ، وأكرمها وترك ولدها « بركات » ينشأ مع ولديه نعيم ومنعم .

وتعلم بركات الفروسية وعلوماً كثيرة أخرى . ثم عرف بركات فى يوم ما أن فضل بن بيسم ليس أباه . وأما أبوه فقالت له أمه إنه قتل على يد أمير اسمه (رزق بن نايل) .

وكان هذا الأمير منذ فارق زوجته خضراء قد استبد به الأسى فاعتزل قومه فى خيمة عاش بها . ثم حدث بعد ذلك أن هاجم الهلاليون بلاد الزحلان . وأظهر بركات فى هذه الحرب الأخيرة كل ضروب الشجاعة . ومن ثم أطلق عليه قومه اسم «سلامة» فأصبح من ذلك اليوم يعرف باسم « أبى زيد الهلالى سلامة »

وأصرّت القصة بعد ذلك على أن يقع أبوه فى أسره ، وكل منهما لا يعرف الآخر ، وكاد الابن يقتل أباه بسيفه ، لولا أن أمه بادرت فى هذه اللحظة بتعريف الابن حقيقة الأمر . إذ ذاك استرد الأب ولده وزوجته معا ، واعترف بنو هلال بمكان « بركات » وزوجوه بعد ذلك من ابنة أمير الزحلان واسمها « غصن البان »

الجيل الثانى

ومن أبطال هذا الجيل أبو زيد بن رزق المعروف بأبى زيد الهلالى سلامة ، والحسن بن سرحان ، ودياب بن غانم .

وفى هذه المرحلة من مراحل القصة اضطر الهلالية إلى ترك نجد والجزيرة العربية إلى بلاد الغرب ، وذلك بسبب الجدب . وتطوع ثلاثة نفر من شباب القبيلة بارتياد الطريق . وهؤلاء الثلاثة هم مرعى بن نافلة، ويحيى بن عمرة ، ويونس بن سروة . وتنكروا إذ ذاك فى زى شعراء متجولين . وانتهى بهم المطاف إلى تونس ، وهناك وقع الجميع فى قبضة صاحب هذه المدينة . ولم ينجح منهم إلا أبو زيد الهلالى سلامة الذى كان قد رافقهم فى هذه الرحلة ، ثم عاد منها إلى بلاده ، وأخبر قومه بما رآه فأعدوا لكل شىء عدته ، وتهيئوا جميعاً للسير إلى بلاد المغارب .

وفى طريقهم إلى تلك البلاد التقوا بالعجم تارة ، وبالمغول تارة أخرى ، وبالتركمان تارة ثالثة ، ومروا فى أثناء ذلك بحلب ، وحمص ، وحماة ، وبعلبك ، ودمشق ، والقدس ، وغزة ، والعريش ، وقتلوا أميرها البردويل ، ودخلوا مصر ، وضربوا خيامهم بجهة بلبيس ، ثم فروا إلى صعيد مصر حيث لقيهم أمير عربى اسمه (الماضى) فأكرمهم وتزوج امرأة كانت تسايرهم وتحمسهم للقتال ، وكانت تسمى «الجارية» وبالرغم من زواجه بها فإنه تركها تعود مع قومها إلى مباشرة المهمة التى سارت معهم من أجلها .

ووصل الهلالية إلى تونس الخضراء ، وملكها يومئذ هو (خليفة

الزناتى) . وانتهى الأمر بقتل زناتة هذا وفك أسرى الهلالية مرعى ويحيى ويونس ، وقسمت البلاد على كبار القواد : ـ

فأخذ الحسن بن سرحان بلاد (القيروان) . وأخذ دياب بن غانم (تونس) . وأخذ أبو زيد الهلالى سلامة (الأندلس) . وبعد ذلك تنتقل السيرة إلى .

الجيل الثالث

ويعرف هذا الجيل فى السيرة الهلالية (بالأيتام) إشارة إلى ما فعله دياب بن غانم الطاغية بآباء أولئك الأيتام . ومن ثم قام هذا الجيل كله على الأخذ بالثأر من هذا الطاغية وأصحابه .

وأعاد التاريخ نفسه فإذا (بزيدان) بن أبى زيد الهلالى سلامة يجمع العرب من الشام والحجاز ويلتقى بهم جميعاً فى صعيد مصر . ثم يسير بهم حتى يملكوا برقة وطرابلس . وكذلك يفعل الهلالية فى الأندلس ، يخرجون منها سراعاً ليشدوا الخناق على تونس . ويشترك الفريقان بعد ذلك فى فتح هذه القلعة المنيعة وفى قتل أميرها دياب بن غانم ثم يعاد تقسيم البلاد من جديد :

فيتنازل الهلالية عن تونس لابن خليفة الزناتى . ويبايع الهلالية كذلك ابن الحسن بن سرحان أميراً عليهم . ويصبح أبناء القاضى (بدير) قضاة كذلك فى المدينة. وتستقر كل عشيرة فى مكانها القديم من بلاد المغارب . ويعود زيدان بن أبى زيد الهلالى سلامة إلى صعيد مصر .

ويعود الذين جاءوا من الأندلس — وهم أبناء أبى زيد الهلالى وأحفاده — إلى الأندلس .

على أن استقرار هذه القبائل خارج الجزيرة العربية لم ينسها ذكر نجد ولا غيرها من أجزاء هذه الجزيرة العربية .

وقد عبّر (مرعى) عن هذا الحنين أو الحب بقـــوله يخاطب (سعدة) بن خليفه الزناتى :

يا سُعدة (نجد) العريضة مربّـة   ربيت بها أهلى وكل جدود
بلدى ولو جارتْ علىّ مربّـه   وأهلى ولو شحّـت علىّ تعود

* * *

تلك سيرة بنى هلال — وهى السيرة التى يقضى فى إنشادها المنشدون فى المقاهى البلدية وفى الريف ستة شهور أو تزيد . وقـد تأثر الأدب الأوربى بهذه السيرة كتأثره بقصص ألف ليلة وليلة . وظهر هذا الأثر بوضوح فى شعراء (التروبادور) . كما ظهر كذلك فى قصة أوروبية تعرف باسم « أوكاسان ونيكوليت » .

الأطوار التى مرت بها السيرة

ومرت سيرة بنى هلال فى طورين ظاهرين :

أولهما — الطور الغنائى . وكان قبل القرن السادس الهجرى — يؤيد ذلك شواهد لابن خلدون تدل على أن السيرة فى أول أمرها كانت عبارة عن قصائد غنائية توزعتها أجيال مختلفة وبيئات متعددة .

وثانيهما — الطور القصصي . وقد ظهرت أماراته أيام ابن خلدون كذلك فى القرن الثامن الهجرى . وقد أورد ابن خلدون كذلك بعض نصوص عن خليفة الزناتى .

على أن هذا التطور الذى حدث للسيرة لم يحدث فجأة ، ولا تم طفرة وإنما استغرق من حياة الأمة العربية وقتا ليس بالقليل .

وثم سؤال يعرض للباحثين دائما فى سيرة بنى هلال وهو : هل من حق العرب أن ينظروا إلى هذه السيرة نظرة الأوربيين إلى الملاحم ؟

إن المستشرق نيكلسون يقول .

« إن الأدب العربى لم ينتج ملحمة شعرية . وكل الذى أنتجه فى الواقع عبارة عن قصص نثرية لها طابع قريب من الملاحم . فأولى بها إذن أن تسمى قصصاً تاريخية »

أما الذين درسوا السيرة الهلالية وسيرة الظاهر بيبرس وسيرة عنتر وغير ذلك من السير المعروفة فى تاريخ العرب فلا يوافقون على رأى نيكلسون ولهم فى هذه المخالفة حجج .

منها — أن هذه السير ليست من وضع فرد بعينه . ولكنها من وضع جماعة . ولا يمكن أن تنسب إلى جيل معين ، ولكنها منسوبة إلى أجيال وبيئات متعددة .

ثم منها — أن السيرة الظاهرية قائمة كلها على الشعر . والشعر فيها يقوم بوظيفة السرد ووصف مواقف الحب وغيره من العواطف البشرية .وبعض هذا الشعر فصيح والآخر عامى .

وفى السيرة الظاهرية — التى سيأتى شرحها بعد قليل — نثر . ولكنه

نثر مسجوع ومقفى . وفى هذا تختلف السيرة الظاهرية فى أسلوبها عن ألف ليلة وليلة فى أسلوبها كذلك .

وكذلك الشأن تماماً فى السيرة الهلالية . فالشعر فيها يستوعب جميع الأحداث . ومعنى ذلك أن الشعر هو الأصل الذى تقوم عليه السيرة فى الحقيقة . وما النثر فى السيرة الهلالية إلاّ ترديد للشعر وشرح له لا أكثر ولا أقل . ثم إن النثر فى هذه السيرة يقوم بوظيفة أخرى لها أهميتها . وهى وصل القصائد الشعرية الطويلة والقصيرة فى سياق واحد . ولا تنس أن هذه القصائد الشعرية ظهرت فى فترات متباعدة وبيئات متباعدة أيضاً . وهنا تظهر أهمية العمل الذى يقوم به النثر فى السيرة الهلالية .

أليس فى ذلك كله إذن ما يدل على وجود الملاحم فى الأدب العربى ولكن بالصورة التى تتفق والذوق العربى ؟

وثم ملاحظة جديرة بالذكر لابد منها فى الحديث عن هذه السيرة . وخلاصتها أن الحب فيها حب واقعى ؛ إذ هو حب الزوج لزوجته ، يحزن لفراقها ، ويفرح للقائها . وهو حب متبادل بين الرجل والمرأة .

السيرة الهلالية فى مصر

ولكن ما هى الصفات التى ظهرت فى السيرة الهلالية وجاءت مسايرة للتقاليد المصرية والشخصية المصرية ؟

هل هى صفة الفروسية ؟

هل هى عبادة البسالة ؟

هل هى المعجزات وخوارق العادات ؟

هل هى الآثار والعاديات ؟

— ليست هذه الصفات هى كل ما استهوى المصريين ، وحببهم فى هذه السيرة . بل إن الذى حببهم فيها على الحقيقة إنما هو عروبة السيرة . وكما يقول بعض الباحثين :

« ولا شك أن بقاء الخطوط البارزة فى السيرة الهلالية على حالها ، إنما يعنى مسايرة هذه الخطوط للروح القومى المصرى ، ولفلسفة الحياة التى درج عليها المصريون فى جميع عصورهم ، وملاءمتها للتقاليد القصصية المتوارثة فى هذه البيئة . ويبلغ هذا الروح القومى أوجه فى الجزء السابع من السيرة ، وهو الجزء الذى يتحدث عن صلة العرب الهلالية بالمصريين ، وهو المعروف بديوان مصر » .

ولقد صورت لنا السيرة كذلك كيف حكم بعض الهلاليين مصر ، وكيف أن منهم من طمع فى الاستقلال بها مثل دياب بن غانم . ولكن المصريين قد تعودوا السخرية من الحاكمين . ولذا أجرت السيرة على بعض الشخصيات المصرية مثل هذه الكلمة ؛ وهى قول هذه الشخصية « ... ولكن العرب لا يملئون أعين المصريين » . وفى هذه العبارة وأمثالها مسايرة للذهنية المصرية والخلق المصرى .

وفى السيرة الهلالية انطباعات كثيرة من هـــذه الخلقية المصرية والمعتقدات المصرية . مثال ذلك قولهم « مصر محروسة من عدوها بالأقطاب الموكلين بالأرض » . ومثل تعظيمهم لرجال الدين إلى حد أنهم أجلسوا شيخ الأزهر على كرسى السلطنة فى قلعة الجبل . ومثل

اعتقادهم فى الغيب عن طريق النجوم والرمل ونحو ذلك ، وإيمانهم بالقدر إيماناً لا حد له .

أما (المرأة) فى سيرة بنى هلال فهى المرأة المحجبة لأن الحجاب كان هو الغالب على نساء مصر فى تلك العصور وإلى عهد ليس ببعيد .

وأما (القاهرة) فلها طلالها الواضحة فى سيرة بنى هلال . وهى طلال لا تقل عن مثيلاتها فى قصص ألف ليلة وليلة . فالقاهرة تبدو فى السيرة الهلالية واضحة كل الوضوح بخططها وأسواقها وحماماتها ودكاكينها ومساكنها ونحو ذلك .

وأكثر من هذا وذاك أن مصر استطاعت أن تطور العصبية القبلية فى هذه السيرة إلى عصبية وطنية ، وأن تطور النزاع القبلى إلى ما يشبه النزاع السياسى . وفى هذا ما يكفى للدلالة على عظم الأثر الذى تركته مصر فى هذه السيرة . فلننتقل منها إلى :

سيرة الظاهر بيبرس

وهى قصة فريدة من قصص الفروسية العربية . جمعت بين الحقيقة والخيال . وجاءت صورة دقيقة من عادات الشعوب التى تحدثت عنها — وأخصها الشعب المصرى — ومعتقدات هذه الشعوب وما نسب إليها من خرافات وخوارق العادات .

ولقد قام المستشرق لين Lane فى كتابه (المصريون المحدثون) بتلخيص هذه السيرة من أولها إلى آخرها . وهى سيرة طويلة تقع

فى خمسين جزءاً . وقد وصلت القصتان الأخيرتان منها بتاريخ مصر إلى العصر الحاضر . ولهذه السيرة فوق ذلك خاتمة تجيش بالعاطفة الوطنية لا القبلية . وفى ذلك ما فيه من مسايرة هذه السيرة لمقتضيات الأحوال وتطور الحياة المصرية ذاتها عبر الأجيال .

وعلى الرغم من ذلك ذهب الباحثون إلى أن القدر لم يقيض لسيرة الظاهر بيبرس من المؤلفين البارعين ما قيضه للخليفة العباسى هارون الرشيد فى قصص ألف ليلة وليلة . فكأن الموهبة القصصية أخذت تضمحل بعد ظهور هذا الكتاب الأخير ؛ وهو ألف ليلة وليلة .

وعلى هذا وذاك فهنالك طائفة من القصص الطويلة فى سيرة الظاهر بيبرس . ولكن من الصعب استخلاصها وروايتها منفصلة عن غيرها ،

أما التاريخ الذى ألفت فيه هذه السيرة ، والمؤرخون أو القصاص الذى اشتركوا فى تأليفها جيلا بعد آخر فمن الصعب كذلك أن ندلى فيهما برأى . فقد نسبت هـــذه القصص تارة إلى (ابن الدينارى) وإلى أصحاب له عاونوه فى وضع بعض القصص . كما نسبت تارة أخرى إلى محمد بن دقيق العيد المتوفى سنة ٧٠٢ هجرية . وإن عرف عن هذا الأخير أنه كان مولعا بالأغانى الشعبية كالأزجال والمواليا أكثر من ولعه بالقصص . ثم نسبت السيرة إلى أشخاص آخرين وهكذا .

بيبرس بين الواقع والخيال :

وقد لا يعنينا كل ذلك بقدر ما يعنينا أن نوازن بين صورة بيبرس فى التاريخ وصورته فى الأدب الشعبى .

فقد سمى الظاهر بيبرس فى السيرة باسم (محمود) وجعل له نسب غريب . وخلعت عليه السيرة صفة العروبة ، ونزعت عنه صفة « الجركس » التى له فى الحقيقة . وفى هذا كله ما يرضى الذوق المصرى والخيال المصرى كما سبق ذكر ذلك .

وتصور لنا السيرة كذلك كيف أن الظاهر وفد على مصر من حلب والتحق بخدمة الصالح نجم الدين أيوب . وكيف أنّ كل من كان يلتقى (الظاهر) يتنبأ له بمستقبل حسن . وظاهرة التنبؤ تمثل جانبا من حياة المصريين كما يبدو ذلك من المثل الشائع بينهم ، وهو قولهم : « الديك الفصيح فى البيضة يصيح » .

ويوصف الظاهر فى التاريخ بأنه أسمر اللون وبإحدى عينيه بياض. أما السيرة فلم تشر إلى هذا العيب ، وإنما وصفته بالذكاء والشجاعة والحسن ، وبأنه إذا غضب ظهرت فى وجهه جدريات ، وبدا بين عينيه شبه سبع من اللحم . حتى إذا سكت عنه الغضب ذهب كل أثر لهذه العلامات على اختلافها . وفى إخفاء عيوب الظاهر الجسدية ما يتفق وأذواق المصريين الذين يقربون بأبطالهم من مرتبة الرسل ، ويصفونهم بالكمال التام فى الخلقة . وربما كان للحديث عن « الجدريات » التى تظهر فى وجه بيبرس عند الغضب صلة ما بالحديث عن « الحسنة »

و « الخال » والعلامات المميزة لأجساد بعض الناس . بل ربما كانت له صلة كذلك بما تميز به رسول الله صلى الله عليه وسلم من أن له شامة أو علامة يعرف بها ، ولا نظير لها فى أجساد سائر الخلق .

وقد أسند التاريخ إلى الظاهر بيبرس وظائف ، وأسندت السيرة إليه وظائف أخرى كذلك . وهو فى هذه الأخيرة — ونعنى بها السيرة — رئيس لفرقة من المماليك اسمها الوجاقية . وهو وال على مصر من قبل الملك الصالح . وهو كاشف للجيزة . ثم هو أمير للقدس . وكل هذه الوظائف أسندت إليه فى السيرة قبل أن يستولى على مصر .

كما حرصت السيرة على أن تجعل فى يده الحل والربط وبقى على هذا زمانا إلى أن أرادت له القصة وضعاً آخر يخالف الوضع الأول . فقد أضعفت القصة بعد ذلك من شخصية الظاهر بيبرس ، وجعلته مجرد رمز للدولة لا عمل له إلا الذهاب إلى البلاد المفتوحة بعد الفراغ من فتحها ، والانتهاء من المعركة . وفى ذلك ما يدلنا على موقف المصريين من الحاكم ، وكيف أنه لا يبدو قريباً من نفوسهم ، ولا محبباً إلى قلوبهم فى معظم الأحيان .

أما صفات (الظاهر) النفسية فالتاريخ يحدثنا أنه كان سياسياً ماهراً يعمد أحياناً إلى اصطناع الدس والمكيدة فى سبيل الوصول إلى غايته . والسيرة تصفه لنا بالدهاء ، وتصف أعوانه بأنهم أشد منه دهاء وأوسع حيلة . تريد بذلك أن تقول إن الظاهر بيبرس رجل تغلب عليه (الطيبة) ولذا تنفى عنه صفة التآمر . ولكنها إن وصفته بهذه الصفة وضحت لنا أنه لا ينجح فيها كل النجاح . مع أن القارئ لمصرع

تورانشاه أو قطز لا يسعه إلا أن يتهم الظاهر بيبرس بهذه الصفة الأخيرة التى هى صفة التآمر .

ثم إن السيرة أسبغت على الظاهر صفة الدين ، وجعلت منه ولياً من أولياء الله الصالحين . وهو ما يتفق كذلك وطبيعة المصريين وميول المصريين .

ولا تنس أن القصة أفلحت كذلك فى وصف الظاهر بالشجاعة النادرة ، وهى الشجاعة التى استطاع بها التغلب على اللصوص وقطاع الطريق ، ثم هى الشجاعة التى اقترنت إلى جانب ذلك ببعض الصفات الخلقية العالية التى ارتقت بالظاهر إلى حد الأسطورة ، وأرضت بذلك خيال القاص وذوق هذا القاص .

وأخيراً تصر القصة على الصورة التى مات بها الظاهر بيبرس . فتجعله يموت شهيداً بعد أداء فريضة الحج وزيارة قبر الرسول صلوات الله عليه . وفكرة الشهادة نفسها تريح نفوس المصريين وتتفق وميولهم الدينية التى أشرنا إليها .

(والخلاصة) فى سيرة الظاهر بيبرس أنها سيرة بطل يشاركه أبطال آخرون فى محاربة الصليبيين . والأحداث كلها بعد ذلك كر وفر بين العرب المسلمين من جهة والصليبيين من جهة ثانية ؟

خاتمة الكتاب

خاتمـــة

— ١ —

تحدثنا فى أول هذا الكتاب عن الشخصية المصرية فى المجال السياسى والمجال العلمى ثم المجال الروحى والمجال الأدبى، ورأينا كيف أن مصر أصبحت زعيمة العالم الإسلامى فى العصور الثلاثة التى أرخنا لها. وكانت زعامتها أكثر وضوحا فى العصرين الأيوبى والمملوكى. وذلك لأنها دفعت الثمن غالياً فى سبيل الحصول على هذه الزعامة. ففى العصر الأيوبى كانت مصر قطب الرحى من الحروب التى اشترك فيها المسلمون ضد الصليبيين. وفى العصر المملوكى استطاعت مصر أن تحمى العـــالم الإسلامى من خطر المغول

والحق لقد كان هذا الخطر الأخير سبباً فى نهضة المصريين فى عهد المماليك. فقد هبوا مدفوعين بغيرتهم الشديدة على الإسلام وتراث الإسلام، وشرعوا يستنقذون الثقافة الإسلامية من جميع أطرافها فجمعوا هذه الثقافة فى موسوعات بعضها أدبى، كما فى نهاية الأرب، وبعضها جغرافى كما فى مسالك الأبصار، وبعضها لغوى كما فى المعاجم الكبيرة المعروفة مثل القاموس المحيط ولسان العرب، وبعضها ديوانى كما فى صبح الأعشى. ولولا الخطر المغـــولى ما بادرت مصر إلى القيام بهذا الواجب الشاق نحو الثقافة الإسلامية وصيانتها من الضياع.

— ٢ —

ومن السهل على قارئ هذا الكتاب أن يتعرف على بعض ملامح هذه الشخصية المصرية فى الدين والأدب : (فأما من حيث الدين) فقد لاحظنا أن المصريين قوم متدينون بطبعهم . ومن ثم كانت بلادهم تربة صالحة للتصوف . حتى ذهب بعض المؤرخين إلى أن التصوف مصرى النشأة . ومن أجل هذا أقبل الولاة والحكام على بناء الأماكن التى يقضى فيها المتصوفة أكثر حياتهم ، يفرغون فيها للعبادة ، ويشتغلون فى أثناء ذلك بتحصيل العلوم . وهكذا طغت الخوانق والمدارس فى العصرين الأيوبى والمملوكى على الأزهر ودار الحكمة فى العصر الفاطمى . وبقى الحال على ذلك حتى كان العصر العثمانى فعاد للأزهر شىء من قديم مكانته . وعنى الولاة العثمانيون بأن يكون للأزهر « شيخ » أو رئيس على جميع العلماء . ومنذ يومئذ وللأزهر الفضل كل الفضل فى أنه حمى الثقافة الإسلامية من الضياع إبان العصر العثمانى بالرغم من أنه العصر الذى لم يستطع منافسة العصرين الأيوبى والمملوكى فى مجالات الأدب والعلم .

وثمة تأثير آخر للدين فى الحركة الفكرية ؛ وهو أنه صرف المصريين عن الفلسفة وبسبب ذلك لم تنتفع مصر فى العصور التى أرخنا لها بفلسفة الإسكندرية قبل الإسلام ، ولا بالفلسفة الفاطمية بعد ظهور الإسلام .

— ٣ —

هذا كله من حيث الحركة العلمية . أما من حيث الحركة الأدبية

فقد وجدنا الشخصية المصرية فى الآداب العامية الهزلية أوضح منها فى الآداب الفصيحة أو الرسمية . كما وجدنا ديوان الشاعر الواحد من الشعراء ينقسم إلى قسمين : قسم للشعر الرسمى يصاغ فيه الشعر بالطرق التقليدية المعروفة عند المشارقة ، وقسم للشعر غير الرسمى ينطلق فيه الشاعر من كل قيد .

وهذا الذى يصدق على الشعراء يصدق مثله كذلك على الكتاب الأدباء . فكتابات هؤلاء تنقسم أيضاً إلى ديوانية جدية ، وهزلية أو عامية . فأما الديوانية فصورة من الأدب العربى كله فى ذلك الوقت ، وهو الأدب الذى قطع مراحل عديدة تنقل فى أثنائها من دور البساطة فى التعبير على يد الجاحظ وابن المقفع ، إلى دور التعقيد والبديع على يد ابن العميد والصابى ونحوهما ، إلى دور الإغراب الشديد أو الإغراب الذى أضحت به الكتابة العربية نوعاً من الألغاز والأحاجى على يد أبى العلاء ، ثم إلى دور التغالى فى البديع والتفنن فى ألوانه الكثيرة والوصول فى كل ذلك إلى آخر الشوط على يد القاضى الفاضل ، وعند هذا الأخير ازدحم سيل من الزينة اللفظية والزينة المعنوية كان بعضه مصرى النشأة كما قلنا مثل التورية .

حتى إذا جاء العصر المملوكى رأينا محيي الدين بن عبد الظاهر يسلك نفس الطريق وينجح فى هذا السلوك .

أما فى العصر العثمانى فقد ضعف الكتاب والشعراء عن بلوغ هذه الغاية فى مضمار البديع . وذلك أن الأدب الذى يبنى على البديع يحتاج فى إتقانه إلى أمرين : أولها ثقافة عريضة يعتمد عليها الكاتب

أو الشاعر . وثانيهما حضارة عظيمة يكون النثر أو النظم صدى لها واستجابة لانطباعاتها . وهذا كله ما لم يتوافر للأدباء فى العصر العثمانى . ومن ثم ضعفوا عن اللحاق بإخوانهم الذين سبقوهم فى العصرين الأيوبى والمملوكى . وقد استثنينا من هؤلاء بعض الشعراء كالبدر الحجازى وبعض العلماء الأدباء كالسيد مرتضى الزبيدى .

— ٤ —

ومرة أخرى ننظر نظرة عامة إلى الحركة العلمية التى نشطت فى تلك العصور فنستطيع تسجيل بعض الظواهر التى تميزت بها هذه الحركة ومنها :

أن مصر كانت فى العصر الأيوبى محصورة جهود علمائها وأدبائها فى غاية واحدة ؛ هى نجاح المسلمين فى الحروب الصليبية . فالعلماء والأدباء عليهم تعبئة الشعور العام خارج ميدان القتال وفى داخله ، والمؤرخون عليهم تسجيل الأحداث بدقة وأمانة بالغة . أما مصر فى العصر المملوكى فتنشط نشاطا عظيماً فى المحافظة على تراث المسلمين من علم وأدب على نحو ما شرحنا ، وأما مصر فى العصر العثمانى فتكتفى بعمل واحد فقط هو الشروح ، وشروح الشروح ، والحواشى والتقارير على نحو ما أوضحنا كذلك . ولكن رجلا واحداً فقط فى العصر العثمانى أمكن استثناؤه من هذه القاعدة وهو (الزبيدى) — انحصر عمله فى شرح القاموس المحيط فيما سماه (بتاج العروس فى شرح القاموس) . ولكن هذا العمل نفسه يعتبر من نوع العمل الذى مارسه علماء العصر المملوكى قبله ، ونعنى به تأليف (الموسوعات) .

وفى (كتابة التاريخ) لاحظنا أن الغالبية العظمى من المؤرخين فى العصر العثمانى ليسوا سوى ذيول لمؤرخين سابقين ، ومقلدين لهم فى أساوب التاريخ . وربما كان ذلك لأنهم أرادوا بهذه الطريقة أن يستمدوا لأنفسهم شيئاً من شهرة السابقين ، ليعتمدوا عليها فى رواج كتبهم التاريخية ، ولكننا نستثنى المقريزى من هذه القاعدة ، ومع ذلك فقد ذيل المقريزى على نفسه فى كتابه (السلوك) وقال إنه كتبه ليكمل به سلسلة مؤلفاته فى تاريخ مصر الإسلامية .

— ٥ —

وعلى ذكر التاريخ والمؤرخين نحب أن ننبه القارئ هنا إلى أننا لم نكتب شيئاً عن (ابن خلدون) برغم أنه زار إمام مصر فى عهد السلطان برقوق ، وقد أعرضنا عن الكتابة عن هذا المؤرخ الكبير لأنه يعتبر من الناحية العلمية أوثق صلة بالثقافة العربية الأندلسية المغربية . قدم ابن خلدون إلى مصر ، فعينه السلطان برقوق أستاذاً للفقه المالكى بالمدرسة الكاملية . ثم عين قاضياً للمالكية ، ثم عزل عن منصبه بعد أن شغبت العامة عليه . واكتفى يومئذ بمنصب مدرس . وعاش هادئاً فى ظل السلطان مدة من الزمان فأعانه ذلك على النظر فى مؤلفاته . فنظر فيها وهذبها بقدر المستطاع ،

ومات السلطان برقوق وكان تيمورلنك يومئذ قد وصل الشام . وذلك فى عام ٨٠٣ هـ (١٤٠٠ م) فسار السلطان المصرى لملاقاته . وصحبه جمهور من العلماء والقضاة والصوفية فيهم ابن خلدون . ثم اضطر السلطان إلى العودة إلى مصر . لقيام فتنة هناك . واستطاع ابن خلدون بذكائه

وحيلته أن يحصل من تيمورلنك على إذن بعودة العلماء إلى مصر ، ومات ابن خلدون سنة ٨٠٨ للهجرة .

والذى لا ريب فيه أن ابن خلدون ترك فى البيئه المصرية العلمية أثرا لا يمحى ، وأن التاريخ ينظر إلى مؤرخى القرنين التاسع والعاشر للهجرة على أنهم من تلامذته . وإن عجزوا عن أن يتأثروا بمنهجه فى كتابة (المقدمة) . ذلك أنه ليس عندنا دليل واحد على أن المؤرخين المصريين ابتداء من المقريزى إلى الجبرتى قد تأثروا بفلسفة ابن خلدون فى المقدمة بالمعنى الصحيح . وليس عندنا دليل واحد كذلك على أنهم تابعوا العلم الذى أنشأه ابن خلدون إنشاء وهو علم (العمران) بنفس الروح .

نعم اتجه المؤرخون فى العصر المملوكى إلى كتابة الموسوعات وكان النويرى من أولئك المؤرخين الذين آثروا هذا الاتجاه . ومن المحقق أن هذه الميول أعانت كثيرا على درس الشعوب : ومع هذا وذاك فإن ابن خلدون يعتبر صاحب الفضل فى الاهتداء إلى قوانين علم العمران حتى ليمكننا أن ننظر إليه على أنه أول فيلسوف مؤرخ اتخذ من المجتمع موضوعا لهذا العلم الذى أشرنا إليه .

— ٦ —

(والخلاصة) أن الشخصية المصرية إنما تبلورت تبلوراً تاماً وأخذت صورتها الأخيرة فى عصر المماليك. وقد أشرنا إلى ظلال هذه الشخصية فى الأدب والعلم والتصوف . وفى التاريخ بنوع خاص ظهرت آثار هذه الشخصية بكل قوتها ، ورأينا المؤرخين الأيوبيين يكتبون فى سير الأشخاص تارة

سير الدول تارة أخرى . والذين كتبوا فى سيرة الدول من هؤلاء المؤرخين فى العصر الأيوبى عنوا بمصر عنايتهم بالشام سواء بسواء .

ولكن فى العصر المملوكى وجدنا كبار المؤرخين يحصرون عنايتهم أو يكادون يحصرونها فى مصر . ولا يكتفون بذلك بل يجعلون (مصر) مركز الدائرة من التاريخ العام ، وفى ذلك ما يخالف القاعدة التى كان يتبعها المؤرخون الأقدمون الذين جعلوا من (بغداد) مركزاً لهذه الدائرة . ثم لا يقف المؤرخون المصريون عند هذا الحد حتى يبدوا اهتماماً خاصاً بمقاييس النيل ويذكروا ارتفاعه وانخفاضه فى حوادث كل سنة . فعلوا ذلك شعوراً منهم بأن النيل فى مصر هو كل شىء . وفى ذلك ما يدل دلالة واضحة على النزعة المصرية الصميمة عندهم . فهم يكتبون ما يكتبون بذوق مصرى ومزاج مصرى ، وروح مصرية ، وذهنية مصرية .

وانقضى عصر المماليك وتبعه العصر العثمانى فوجدنا من أبنـــاء هذا العصر الأخير من تبع أسلافه فى هذه الطريقة ، وكتب فى تاريخ مصر وحدها وعنى بعلمائها وأدبائها وفضلائها أكثر من عنايته بأمرائها وحكامها ـ كما فعل المؤرخ الكبير المعروف (بالجبرتى) .

— ٧ —

ولئن كان صحيحاً أن الشخصية المصرية وجدت لها مجالا كبيراً للظهور فى الأدب الهزلى أو العامى أكثر من الأدب الجدى أو الرسمى فأصح من ذلك أن هذه الشخصية المصرية تجلت لنا بوضوح

فى الأدب الشعبى الذى لم يكن له مؤلف معين ، وإنما كان نتاج الشعب العربى عامة والشعب المصرى خاصة عبر العصور التى مرت بهما .

غير أن العصر المملوكى بنوع خاص هو العصر الذى تبلور فيه الأدب الشعبى أيضاً ، وسار هذا التبلور جنباً إلى جنب مع تبلور الشخصية المصرية برمتها . فلأمر ما إذن برز الأدب الشعبى فى عصر المماليك . ولأمر ما كذلك ظهرت النسخة الكاملة من قصص ألف ليلة وليلة وأكثر الألوان الأخرى من الأدب الشعبى .

والحق ـ لقد كانت قصص ألف ليلة وليلة مرآة للشعب المصرى فى أخلاقه وعاداته وخيالاته وخرافاته ، وعقيدته الإسلامية التى ملكت عليه كل حواسه ، ونوع السخرية التى كان يسخر بها من حكامه ونحو ذلك .

وهذا الذى حدث فى ألف ليلة وليلة حدث مثله تماماً فى سيرة بنى هلال وسيرة الظاهر بيبرس . فقد جاءت هاتان السيرتان فى كثير من المواضع كذلك صورة دقيقة من الحياة المصرية والذهن المصرى . والقاص فى هاتين السيرتين متفق مع القاص فى ألف ليلة وليلة فى وصف أبطال هذه القصص بالشجاعة والمهارة التى تذكر بمهارة (الشطار) وما ينسب إليهم من أعمال مخيفة للناس فى أول الأمر ، مطمئنة لهم ومريحة لأعصابهم فى نهايته .

وفى هذا كله ما ينهض دليلا على تبلور الشخصية المصرية من جميع جوانبها بشكل نهائى فى عصر المماليك أكثر من أى عصر من العصور السابقة له .

فهرس

الصفحة

الكتاب الثانى

الفصل الأول

الفصل الثانى

الفصل الثالث

الفصل الرابع

الفصل الخامس

الفصل السادس

الكتاب الثالث

الفصل الأول

الفصل الثانى

الفصل الثالث

الفصل الرابع

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٤١٥٧ / ٢٠٠٠

I.S.B.N 977 - 01 - 6632 - 4